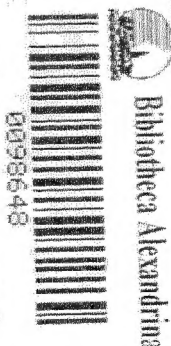


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

خزنة
رامازوف





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد السادس عشر

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الإخوة كارامازوف

١

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

لم يبارح المرض دوستوفسكى ، فنويات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد أضيف إليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه فى السن . على أن الفترة التى تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيسست بالفترات التى سبقتها ، وهى على كل حال خسبة الى أقصى حدود الخصوبة . هى سعيدة من الظاهر : ففيها تعاطف مجد دوستوفسكى حتى انتخب عضوا فى الأكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى القى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبقري لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جراته واستقلاله ، وتعترف له به الشعبية اللبرالية رغم «الجن» ورغم المقالات «الرجعية» التى تضمها «يوميات كاتب» . والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلتن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على إنتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا فى سترايا روسا ، وان حقوقه فى الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعها مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير . وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان أنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستوفسكى يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا . والنازلة الوحيدة التى ألمت به فى هذه السنين انما هى موت ابنه ألكسى عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب . وحياته سعيدة فى الباطن أيضا ، أو هى هادئة نوعا من الهدوء فى أقل تقدير : لقد تخلص دوستوفسكى بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيش فيه ما كان يعيش فيه من تمزق . صحيح ان القلق ما يزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التى أوحث اليه بأهميات آثاره . ففي تلك الفترة انما كتب دوستوفسكى رواياته الثلاث : «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» .

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا في أشخاص .

ان دوستوفسكى لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يبعو اليه ويتعصب له . ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستوفسكى يتيح عرض تلك الأفكار في مختلف جوانبها ويتيح ابرازها بمزيد من الوضوح في تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الراى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارئ امام حلول حاسمة أو قناعات قاطعة . ومن هنا يجىء اختلاف الاجتهاد في تحديد موقف دوستوفسكى ، وتفاوت الراى في تعيين اتجاهه وتعارض التفسير في تعريف الحل الذى ينتهى اليه . فمن قائل : ان دوستوفسكى قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم انه ، على عكس ذلك ، قد فتنه أوروبا فتنكر لروسيا ، ومن مدع أنه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع أنه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد .

والواقع أن دوستوفسكى قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كائنسان ، ووظيفته كروائى قد املتأ عليه مجتمعتين أن يعرض لمناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها . فما هي تلك المشكلات التى يثيرها دوستوفسكى ، أو ثور في نفس دوستوفسكى ؟

في قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » . لقد كتب دوستوفسكى الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « اننى أقرأ فى هذا السفر ثم ادعه ، وأخذ أسير فى الغرفة وأنا أكاد أبكى . » ان هذا السفر ، يا أنيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتى منذ أن كنت طفلا صغيرا . » . وان الشر الاخلاقى ، ان ارادة الشر لدى الانسان ، هى التى عذبتة خاصة . لقد فهم دوستوفسكى أكثر من أى انبسان آخر قوة الاتحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليفة أيضا ، ويكفر بعلة وجود العالم والحياة . لذلك نرى دوستوفسكى ، حين يتناول النقاد البراليون كتابه «الاخوة كارامازوف» ، فيقولون عن ايمانه بالله انه «رجعة» ، نرى دوستوفسكى يثور عندئذ ويهتف مستاء : « لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، وانما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب اليم» • ليس ايمان دوستوفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هي مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الازغاد منهم ، هم فى أكثر الحالات ، أسدج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى أفعالهم ... » • ولكن هذه الطبيعة يمكن أن تنفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تأتي من أسفل أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبه بالانسان ويلتزمه التهاما « كحشرة » ، « كعنكبوت » كرية ، « كرتلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى مختلفة : هو الشهوانية ، والانانية ، والبخل ، والرغبة فى السيطرة ، والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو « لجرد القيام بدور غير متوقع » • ولكن هذه الاندفاعات التى تأتي من غياهب « القبو » تقابلها نداءات سماوية هى التغافى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة رهيبة » • هو فى حجم الكون بأسره • روحه ميدان قتال « يصطرع فيه الاله والشيطان » • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستوفسكى بعد تجربة السجن وخبرة الحياة ، غائضا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه ... •

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض ، ومشكلة العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة • ولكن دوستوفسكى قد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها فيما حوله • لقد درس دوستوفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ، وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا ، فانتهى الى أن العدالة لا سلطان لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس ، ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ، والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حساب النفس • ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتها تستطيع أن تصهر فى الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن ونيا يستحيل الى كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مسيطرة ... • ولكن الكنيسة فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقيق سعادته ، كما ان الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد أن تكون ملحدة لتحقق للانسان رخاء ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضیعة للانسان : تستوى فى ذلك الرأسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية اللاحادية . أفلا يمكن أن يتحقق نظام تتعاقب فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين فى نظر دوستويفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم فى الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهیة لان تجيء بحل ، لان الشعب الروسى لا يزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم تخضع لآغراء السلطة والحكم . تلك كانت أمنیات دوستويفسكى ونبوءاته . أكان رجعيا فى تفكيره ؟ أكان أعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن دوستويفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى عذبتة لم تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبد الدهر .

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستويفسكى أن يعبر عنها ، فاخذ يبحث لها عن اطار روائى . وسرعان ما وافته ذلك الاطار الروائى : أسرة يمثل أبناؤها الاتجاهات المختلفة التى يمكن أن تتجهها الشبيبة فى المجتمع الروسى . تلك هى أسرة كارامازوف . ان أبناء هذه الأسرة ، «الاخوة كارامازوف» ، يحملون عيوباً وراثية ، ولكن امكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية . فاما أحدهم فهو شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بذور أخلاقية (انه نائر على وجود الشر) ، ولكن نزعتة العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شئ مباح » ، «أنا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه» . ذلكم هو ايفان الذى سيجن . وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة للعواطف الخيرة وللتطهر بالآلم ، ولكن ذلك لا يوقيه من الانكسار والانحدار . ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل أبيه ظلما . وأما الثالث فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ، وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة . انه ، فى نظر دوستويفسكى ، الحياة والمستقبل . ذلكم هو اليوشا ، أصغر الاخوة كارامازوف .

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستويفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فاما دمترى الشيلرى فهو يصور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايفان فهو يمثل السنين التي أوشك فيها أن يستعيز عن
الايمان الديني بالاشتراكية الملحدة ، واما اليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو
العودة الى الشعب الروسى الى الارثوذكسية .

مهما يكن من أمر ، فان دوستوفسكى قد أعطانا فى « الاخوة
كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره . ففي هذه الرواية نجد التعارض الذى
رأيناه فى رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه
فى « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجد هيكلا ما رأيناه فى رواية
« الأهل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا فى
مسودة « الاخوة كارامازوف » هو « الأهل » ، وجروشسكا فى « الاخوة
كارامازوف » تذكر بآناستازيا بطلة « الأهل » ، وايفان يذكر براسكولينكوف
« الجريمة والعقاب » . وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش فى
« قرية ستيبانتيكوف » . والمشكلة التى تطرح فى حلم « المفتش الكبير »
قائمة بدورها فى قصة « الجارة » التى كتبها دوستوفسكى فى شبابه .
ان « الاخوة كارامازوف » هى عالم دوستوفسكى كله مصغرا . ولكن
صورة هذا العالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفنى
وتملك حتى من جمال الاسلوب ، ما لم يصل اليه دوستوفسكى فى أى اثر
من آثاره قبل ذلك . أما الاغوار التى هبط اليها فهي الاغوار نفسها ،
وما أعمقها !

ولقد شعر دوستوفسكى بسعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة
كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيأ وأن أكتب عشرين
سنة أخرى » . كان ذلك فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات
دوستوفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ .

« الاخوة كارامازوف » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا في مجلة « الرسول الروسى »
سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صدرت اول طبعتها
المستقلة سنة ١٨٨٠

الإخوة كارامازوف

١٨٨٠ - ١٨٧٩

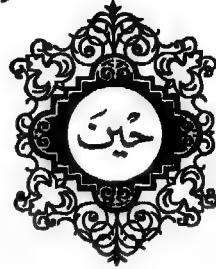
إهداء

لدى أناس جدد يوفينا دوا وتوفينا

« الحق الحق الول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة فى
الارض وتمت فهي تبقى وحدها • ولكن ان ماتت تأتي
بثمر كثير » (*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤)

إلى القارئ



أشرع في قص حياة بطل ، ألكسى فيدوروفتش
كارامازوف ، أشعر بشيء من الارتباك ، وهو
ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى
فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق
المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشيء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا
قليل ، لذلك أتوقع أن تجنى الأسئلة التى لا بد أن تطرح علىّ ، من هذا
القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر قد ، حتى
اتخذته بطلا ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت ،
وأين ؟ ولماذا يجب علىّ أنا القارئ أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت
به حياته من أحداث وحركات ؟ » •

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ،
هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه
بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون » • وما عسى أن يكون موقفى
إذا قرأ القارئ الرواية ، فلم يوافقنى على رأيى ، ولم يشأ أن يسلم
بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى أن
أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر
سيكون كذلك • فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك
فى أن أصل الى افقاع القارئ بذلك • بل اننى لأراه بطلاً فعلاً ،

بمعنى من المعاني ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل
 فى وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم
 واضحاً مفهوماً فى عصرٍ كهذا العصر الذى نعيش فيه ؟ على أن هناك
 أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابية والشذوذ
 تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى
 عصر يجهد فيه الناس أن يوحدا ما اختلف ، وأن يسددوا ما نشز ،
 التماساً لشيء من الوضوح والفهم فى هذه الفوضى العامة الشاملة .
 والشذوذ ، فى أغلب الأحيان ، سبيل الى التحيز ، والتفرد . أليس
 كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأى الأخير
 كل الموافقة ، واذا كنتم تصيرون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه
 « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ الى هذا شيئاً من الثقة ببطلى ألكسى
 فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتماً - ليس دائماً - ذلك
 الذى يتعد عن القاعدة ؟ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل فى
 ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ،
 قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على
 حين فجأة ...

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه
 التعليقات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأساً بلا
 مقدمات : فاذا حظيت قصتي برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى
 هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر أتت أعرض تاريخ حياة واحدة
 بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منها أخطر شأنًا من الأولى ،
 لأننى أقصُّ فيها أعمال بطلى فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى
 نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست فى

حقيقة الأمر رواية ، وانما هي فصل بسيط يصور حياة بطلى في صدر شبابه • وكان يستحيل على أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت ، لاستحال فهم الأمور في الرواية الثانية • وهذا ما يقام حيرتى الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للإجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أى تحليل • وواضح أن القارىء الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك دفعة واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أننى لم أزد على أن التمسث لنفسى العذر عن ذلك العدول ، ولا أشك فى أن تضييعى الوقت الثمين فى كلام لا طائل تحته قد أحققه • ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة مائل فى ذهنى • لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك لحظات ثمينة ، لسبيين اثنتين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر • وبهذا ألفت نظر القارىء الى ضرورة الحذر ، فى أقل تقدير • • ثم اننى لا يسوءنى كثيراً أن روايتى تنقسم قسمين ، مع الاحتفاظ بما فى « مجموعها من وحدة أساسية » • ان القارىء يستطيع ، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبى له أن يحمّل نفسه عناء قراءة الثانية • وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل ان فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً • على أن هنالك قراءاً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجل أن يستطيعوا التخلص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن انتقاد الروس عامة ، على وجه التخصيص • واليهام انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

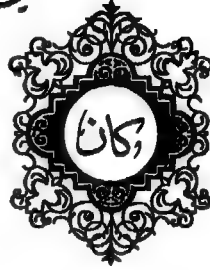
- هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنها زائدة لا محلّ لها •
- ولكننى كتبتها ، ومن أجل ذلك أحتفظ بها • لا بأس •
- ولننتقل الآن الى الموضوع •

الجزء الأول

الباب الأول: قصة الملك الصغير لا طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف



ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث
للك الأتيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي
اشتهر جداً في مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته
الفاجة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ
ثلاثة عشر عاماً على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة في الماضي (وما يزال الناس
يتحدثون عنها الى يومنا هذا) سأروى قصة نهايته تلك متى آن
الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الإشارة الى أن هذا « البومبستشيك » (كما
كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكده يعيش أبداً في أراضيه) كان انساناً
عجيباً . انه ينتمى الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين - وهو نوع منتشر
انتشاراً كافياً والحق يقال - الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحلة
وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون
حق المعرفة كيف يصرفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة
العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر
ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ،
يأكل تارةً عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيلي تماما ؛
ولكن وجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عدداً
ونقداً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذاً

وغرابة • أعود فأكرر أن شنوذه لم يكن هو الغاوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطني ان صح التعبير •

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسى اللذين ولدا له من زواجه الثانى • كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الفية العريقة فى نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا • فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتعم الى ذلك بذكاء متفوق - ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى - أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج « طرْحاً » نافهاً هذه التفاحة (كذلك يلقبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره • لقد أتيج لى أن أعرف على كل حال فتاة - هى من الجيل القديم الرومانسى - ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التى تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطئ وعبر يشبه أن يكون جرفاً ، واذا هى تقضى نجبتها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطللة شكسبير ؛ حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطئ منبسط عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا • هذه قصة واقعية صادقة ، وهالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيكتور بالوفتش كارامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بأن الأعمال التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال . فلفل زواج آديلايد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غربية وخيال جامع ؛ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوى ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقرانها . لعل خيالا طيِّعاً قد أقنعها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه إنسان طفيل ، هو واحد من أشجع الرجال وأطرفهم في عصر التقدم هذا الذي يصارع أخطاء الماضي ، على حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر الا مهرجاً شريراً حقيراً لا أكثر من ذلك . وقد أضيفَ الى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلايد ايفانوفنا وقتها عن نفسها . أما فيدور بافلوفتش فقد كان منهيئاً نهيوّاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعي ، لحلٍّ من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل . فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة ضخمة كانا يقربانه أيما اقراء . وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أي شأن في هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة ومن جهة الخطيب ، رغم ما كانت تتم به آديلايد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولعل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته إنساناً تلتهب عواطف الحب عنده التهاباً شديداً ، لأنه بطبيعته شهواني يمكن أن يكلف في طرفة عين أي امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجّع . ومع ذلك كانت آديلايد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستر هواه ولا أضرمت عواطفه .

ولم تلبث آديلايد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار • ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج فى مثل هذه الظروف أن ظهرت • فرغم ان اسرة المرأة قد سارعت تدعى للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بأثة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات • وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن فى هذا الطرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلها فيدور بافلوفتش الذى استطاع ، كما نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعة واحدة ، وهى ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد • أما القرية وأما المنزل الرخى الذى كانت تملكه فى المدينة ، وهما جزء من البائة ، فقد ظل الرجل زمناً طويلاً يحاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانونى ، وكان يمكن أن يظفر بذلك حتماً لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقة التى لحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التى لا تنقطع ، كان قد حضها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأمًا وضجراً ورغبةً فى التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلايد ايفانوفنا قد تدخلت فى الأمر فى الوقت المناسب فوضعت حداً لهذه المكائد وحالت دون ذلك التبديد • وقد عُرف من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر فى تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلايد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مدهشة • وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمل مربياً ويعيش فى فقر مدقع ويؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتاً الذى كان يومئذ فى السنة الثالثة من عمره • وسرعان

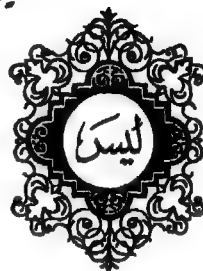
ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلايتد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاة لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصتها . وأعرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثل أمام الملا هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خاتته زوجته ؟ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التي ألت به مضيفا إليها مزيتاً لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يافيدور بافلوفتش قد نلت ترقية أو ظفرت بترقيع ، فأنت تبدو مسروراً كل السرور رغم ألمك الشديد » . وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسؤه أن تتبع له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرج ، حتى لقد ألع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامداً بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانباً من سداجة كان له شيء من تأثير أيضا ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكنة في بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحرراً لا يخطر بالبال أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هو نفسه الهدف الذي يسعى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكرأ قوياً بنية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة .



ام اليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشقية قد قضت نحبها • لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها ماتت من البؤس والجوع اللذين هدماها تهديما • فلما تنهى هذا الخبر الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد ، فأخذ يركض في الشوارع زافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب ! » ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن في رواية أخرى أنه حين علم بالنبا أخذ يتحجب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائي أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه في النفس من استمزاز وتقزز • وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التي وهبت له هذه الحرية • ان في البشر - وحتى في أعنى المجرمين - من السذاجة والطيبة فوق ما قد تتخيل • وهذا يصدق علينا نحن أيضا •

كيف تخلف من ابنه الأول



من الصعب طبعا أن تتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومربياً • لقد تصرف، من حيث هو أب، التصرف الذي يجب أن تتوقعه منه : أى انه لم يبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلايد ايفانوفنا، وأنه جهله جهلاً تاماً، لا لأنه يضرر للصغير كرهاً وعداوة، ولا لأنه يحمل له حقداً وضغينة من حيث أنه زوج خاتمه امرأته، بل لسبب بسيط جداً هو أنه قد نسي حتى وجود هذا الابن • وبينما كان الأب يزعم الناس بشكاواه، ويصدّع رموسهم بندبه خطئه العائر، مع اتخاذه منزلة مكانا للفسق والمهر والفجر فى الوقت نفسه، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين، وضمه اليه وعنى به، فلولا أن هذا الج خادم قد تولى أمر الصبى لما وجد من يهتم به، ولما نهيا له قميص يُستبدل بقميص • زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيبت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى • كان جد الصبى، وهو الشيخ ميوسوف، أبو آديلايد ايفانوفنا، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر؛ وكانت أرملة،

جدة الصبي، التي انتقلت الى موسكو ، تعاني من آلام المرض ما لم يتح لها أن تتدخل في الأمر . أما أخوات آديلايد ايفانوفنا فكان قد تزوجن . فكَذلك لبث الصبي ميّتا سنةً كاملة مقيما مع الخادم جريجورى فى كوخ يسكنه فى آخر فناء المنزل . وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه فى مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابنا على كل حال) لأسرع بطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبي عقبةً فى طريق عمره وفسقه وفجوره . ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلايد ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع فى ذلك الأوان من باريس . ان بطرس هذا ، الذى سيعيش فى المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا فى شرح الشباب ، وكان رجلا من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد نشأ وترعرع وتربى فى العواصم الكبرى ، وأحاطته اقاماته فى الخارج رجلا غريباً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح فى أواخر حياته لبرالياً على طراز ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ؛ وكان على صلة بأكثر المفكرين لبرالية وأشدّهم تطرفاً فى زمانه ، سواء فى روسيا وفى خارج روسيا . حتى لقد عرف برودون وباكونين* معرفة شخصية . فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيرا أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التى قامت فى باريس ، وكان يحلو له كثيرا أن يفهم سامعيه فى هذه المناسبة أنه أوْشك أن يشارك فى تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المنابر . كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر بألف نفس* . وكانت أراضيه العظيمة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتاخم أراضي ديرنا الشهير الذى أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أى بعد أن آلت اليه هذه الأراضي فوراً ، قضيةً طال أمدها فما تنتهى . والتمضية تتعلق

بحقوق الصيد فى النهر أو حقوق قطع الأشجار فى الغابات ، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره ، وهى قضية تافهة فى ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح وإنسان متورّ أن يقاضى « اكليركين » . فلما علم بمصير آديلايد إيفانوفنا التى لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها فى الماضى ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل فى الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه إزاء سلوكه من شعور الاستياء والاستكار ، وهو شعور طبعى فى شاب . وفى هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لفٍ ولا دوران أن فى نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبى . وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه فى أول الأمر أنه لا يفهم أى صبىٍ يعنى ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن فى مكانٍ ما من المنزل . وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئاً من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيراً . فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة فى دور ليس متوقفاً ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجنى من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر فى كثير من الأحيان . وتلك صفة تقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء ، فليست وفقاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواء . وصرف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة . هكذا مضى ميتا يعيش فى منزل ابن عم أمه ، الذى لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فقيم

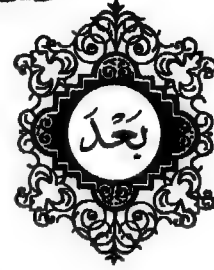
فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبي الى احدى بنات أعمامه وهى سيدة من موسكو . واتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبي هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التى أثرت فى خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها . وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبي الى منزل احدى بناتها المتزوجات . ويظهر أنه غير عشه بعد ذلك مرة رابعة ، ولكننى لا أريد أن أفيض فى ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأنى سأحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التى لا غنى عنها ، والتى بدونها يستحيل على أن أشرع فى قص هذه الرواية .

فأقول قبل كل شئ أن دمترى فيدوروفتش هذا قد شبَّ على الاعتقاد ، رغم أن أبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيثول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال . وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياة مضطربة . لم يتم سنى دراسته فى الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية . ولكنه تورط فى مبارزة ، فجرّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموال من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض . ولم يَرَ أباه لأول مرة منذ تركه فى طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه فى أمر ميراثه . ويظهر أنه نفر من أبيه دفعة واحدة ، فلم يمكث عنده الا زما قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعين له قِعة الأرض وإيرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهانتنا) • وقد أدرك فيدور بافلوفتش في تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التي قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجلها) أن الفكرة القائمة في ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية • وسرَّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له مصالحه • لقد لاحظ أن الفتى خفيف بطاش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافذ الصبر متعجل ، وأنه الى ذلك يحب اللهو والقصف • فاستتج من ذلك ببساطة أن الشيء الذي يهم هذا الفتى خاصة هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته المباشرة ، فتى تحقق له ذلك هدا فورا ، ولو الى حين طبعاً • أدرك فيدور بافلوفتش الفائدة التي يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التي يتصف بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلا ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعات زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعة من حين الى حين • حتى اذا نفذ صبر ميتيا أخيرا ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوئى قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئا البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مديناً له بشيء ؛ وما كان أشد دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذي أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له أن يطالب بشيء البتة ! الخ الخ ••• صُعق الفتى ، وأحس بأنه خُدع وغرَّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت ثأثرته حتى بدا كمن طاش ليه وذهب صوابه وجن عقله • تلکم هي الوقائع التي أدت الى

الكارثة .. الكارثة التي تألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية،
أو قل يتألف من سرد قصتها البناء الخارجي لتلك الرواية . ومع ذلك
ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابني فيندور بافلوفتش
الآخرين ، ينبغي لي أن أتكلم عن أخوي ميتيا ، وأن أذكر كيف جاء الى
هذه الحياة الدنيا .

الزواج الثاني والبن الفلوش الثاني



أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا
ولمّا يكّد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن
تزوج مرةً أخرى • وقد دام زواجه الثاني
هذا زهاء ثمانى سنين • وكانت امرأته الجديدة،

صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم
مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير خقير من أجل
قضية تتعلق بشراء أرض • ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على امترسالة
فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا
عن الاهتمام باستثمار رموس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرف شئونه
الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشىء من النذالة والفش فى
كثير من الأحيان كما يُتوقع ذلك من مثله • وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة
يتيمة لم تعرف أسرتها يوما • انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت
فى منزل ارستقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فوردخوف ، التى
كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربها وتضطلعها فى
آن واحد • لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن
هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة
مسكينة عذبة دمتة ، قد وُجدت ذات يوم تحاول أن تشق نفسها بمسمار

فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الغورات المستمرة والنزوات المتصلة
تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظاهر شريرة ، ولكنها
كانت فى حقيقة الأمر امرأة جعلها الفراغ متسلطة تسلطاً لا يطاق ،
مستبدة استبدادا أحقق لا يحتمل . وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة
فسألوا عنه ، فرفضوه . فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة
الأولى ، فعرض عليها أن يختطفها . وأغلب الظن بل الأرجح أنها
ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها.
ولكن السمعة السيئة التى نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت
حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينة لا تعرف الا
شيئاً واحداً هى أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى
منزل هذه السيدة المحسنة اليها . هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى
بيت محسن . ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشاً واحداً ،
لأن الجزالة قد غضبت غضباً شديدا فلم تهب للعروسين شيئاً عدا اللعنة.
على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال فى هذه
المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه
ما رآه فى نظرتها من صفاء أحدث تأثيراً عميقاً فى نفس هذا الرجل
الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الساقط
الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسيسة . « ان
تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عندئذ كسكين » :
كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضحكة الساخرة
المهودة فيه . ومن الجائز أيضاً أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى
فاسق مثله الا صورة من صور اللذة الحسية . وقد اعتقد فيدور
بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتخرج مع
امراته أى تحرج ، واستقل شعورها بأنها « مذنبه » فى حقه هو الذى

« أنقذها من الجبل » ، واستقل من جهة أخرى مايتصف به طبعها من
 عنوبة مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التي
 توحيا الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى
 منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات . ويجب أن أذكر ،
 في هذه المناسبة ، كسمة من السمات التي تميز هذه البيئة ، أن الخادم
 جريجورى ، الانسان الماحك المتجهم الغبي العيد ، الذى كان قد كره
 زوجة سيده الأولى ، آديلايد ايفانوفنا ، قد انحاز فى هذه المرة الى صف
 الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفش فى
 أمرها ، مستعملا فى مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبولة من فم
 خادم . حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا
 القوة فى طرد المخلوقات الفاجرة التي تجمعت فى المنزل . وقد أصيبت
 هذه المرأة البائسة التي قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها ،
 أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصة بين أبناء الطبقة الدنيا من
 الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى»* .
 ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهية من نوبات الهستريا ، كان يهوى
 بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف . ومع ذلك
 أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ،
 وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين . وحين ماتت ،
 كان الصغير الكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره . وانى لأعلم ، مهما
 بيد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنه
 طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً . وقد كان مصير هذين
 الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميّتا : نسيهما
 أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى
 كوخه مثلما ضمّ اليه أخاهما من قبل . وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انما

اكتشفتهما الجنزالة المعجوز المهووسة التي كانت لأمهما محصنةً ومنشئةً . كانت المعجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الاهانة التي ألحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تسقط أخبار « عزيزتها صوفيا » تفصيلاً ، فلما علمت نبأ المرض الخطير الذي ألمَّ بها ، كما علمت بأبناء اليثى الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عالٍ ، أمام صديقاتها ومحباتها : « لقد استحققت ذلك ، فإن الله هو الذي يعاقبها على نكرانها الجميل وجحودها النعمة . » .

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماماً ، ظهرت الجنزالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضع وقتها سدى . كان ذلك في نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذي لم يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هبَّ الى لقائهما الآن وهو في حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفته منذ اللحظة الأولى صفتين مدويتين ، دون أن يراودها أى تردد ، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات . ذلك ما رواه بعضهم . ثم اتجهت الى الكوخ الذى يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُخسلا وينظفا ، وأن ملابسهما الداخلية لم تُغَيَّر ، أسرع تصفع جريجورى أيضاً ، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، بعد أن لفتها بغطاء ، ووضعتهم في عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد تلقى جريجورى هذه الصفة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يخرج عن أدبه ؛ بل لقد رافق السيدة المعجوز الى عربتها ، وقال لها وهو ينحنى حتى مستوى الحزام ، قال لها فى اقتناع

كامل وإيمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هذين
اليتميين » ، « فصرخت الجذالة تقول له وهى تصرف : « أنت مع ذلك
أبله » ، « وبعد أن قلب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة
اتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام » ثم لم يضع بعد ذلك أية
عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربى الصبيان في منزل
الجزالة وذئبل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه ، أما الصفقات
التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها .

وحدث أن توفيت الجذالة بعد ذلك بزمان قصير ، ولكنها أورثت
كلّاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن
هذا المبلغ « مخصص لتعليمهما » ، فما ينبغي أن ينفق منه شيء إلا عليهما ،
ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ
الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فإذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غير
كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ ، « اتى لم
أقرأ وصية الجذالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هذا
القبيل ، وانها قد كتبت بعبارة لطيفة عجيبة » ومن حسن الحظ أن
الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجذالة كان رجلاً شريفاً هو
ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة ، وقد كتب الى فيدور
بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشاً واحداً فى سبيل
تعليم ابنه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ،
وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على الماطلة والتسويق ، وربما عمد
أحياناً الى التدفق فى أقوال عاطفية) ، قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن
يهتم باليتيمين شخصياً ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فرباه فى
أسرته نفسها خلال سنين ، أرجو من القارئ أن تظل هذه النقطه ماثلة
فى ذهنه ، « لئن استطاع هذان الشابان أن ينمعا فى حياتهما بتربية جيدة

وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى ايفيم بتروفتش هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن تقع على مثلهما فى غيره . انه لم يمسّ الروبيلات الألف التى ورثها كل من الصيين من الجزالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين . لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبيلات الألف طبعاً . لن أدخل هنا فى قصّة تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها .

فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراحقاً يتصف بشيء من التجهّم والانطواء . صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرة هى أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، النخ النخ . وقد أظهر هذا الصبى فى وقت مبكّر - منذ طفولته الأولى فيما يقال - استعداداً عظيماً للتعلّم وتفوقاً واضحاً فى الدراسة . اننى لم أطلع على التفاصيل ، ولكنى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتش وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش فى « بنسيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتش فى طفولته . وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتش من حماسة شديدة لأعمال الخير » ، لان ايفيم بتروفتش قد استقر فى ذهنه أن صيياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مرب عبقرى . على أن ايفيم بتروفتش والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب الى الجامعة . وقد تأخر استلام الروبيلات الألف

التي أوصت بها الجزالة المهووسة للأطفال والتي صارت بالفوائد ألفين، تأخر استلامها نتيجة لسوء تدوين التداير التي اتخذها ايفيم بتروفش، وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والأجال الطويلة التي لا بد منها ولا غني عنها في بلادنا ... لذلك كانت الستان الأوليان اللتان قضاها ايفان في الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات . لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته . يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات أن يستنجد في ذلك الطرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم في نفسه ، واما عن احتقار وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادي قد حدثته بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال . المهم أن المصاعب لم تفت في عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا . أخذ في أول الأمر يعطى دروسا في المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيرا - بالسعي من ادارة تحرير الى ادارة تحرير - أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، في حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلة بتوقيع « شاهد عيان » . وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعاً . بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما في عوز وفاقه ، ويلم بهم في عواصمنا البؤس والفقر والشقاء ، ويحاصرون ادارات تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح الى المساء . انهم في المادة لا يحسنون أن يتكروا شيئا غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال المراسلة . فلما استطاع ايفان فيدوروفش أن يصل الى ادارات التحرير دبر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء السنين

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية . على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت إليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه . كان هذا فى مناسبة طريقة جدا شائعة جدا . كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهيأ بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريباً التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجب أن المقال يعالج موضوعاً لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمي (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) . لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى * الذى كان فى تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان . فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية . وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة . ومع ذلك فان عدداً من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله . وأدرك بعض أهل الصحافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة . وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى الدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركى تثير اهتماماً عاماً على حين فجأة . لقد قرئ المقال فى المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه ، • وها هو ذا كاتب المقال يظهر في مدينتنا بنفسه في تلك الآونة نفسها •

تُرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أنني قد ألقيت هذا السؤال على نفسى منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق • ان هذه الزيارة المشؤمة التى كانت السبب فى وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت فى ذهنى خلال زمن طويل ، بل ظلت فى ذهنى الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلا • انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقرر على حين فجأة أن ينجى الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن ينجى الى أب كهذا الأب الذى جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يصرف شيئا عنه ، حتى نسى وجوده ذاته • والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذى كان سيرفض قطعاً فى أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنه شيئا من مال لو سأله ذلك ، كان فى خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبوا منه بعض المال واحدا بعد آخر • ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا • وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان فى ذلك الحين يقيم عندنا فى الأرض التى يملكها بضواحي مدينتنا • فلقد رضى أن يترك باريس الى حين ، بعد أن اتخذها مقراً له • ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصبح يحسن

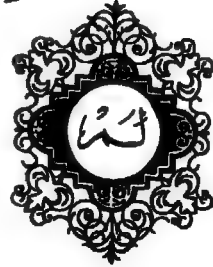
بالمناصفة بينه وبينه فى شئون العلم والثقافة العامة ، على شئ من ألم يستشعره خفياً • كان يسر الينا فى كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء • ولن يصعب عليه أن يجنى رزقه • ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه لينحصل على مال ، لأن أباه لن يعطيه شيئاً • أما أن يسكر وأن يسترسل فى المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فإن الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! » • هذا صحيح • ولقد كان واضحاً أن الشاب يؤثر فى أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يعطيه فى بعض الأحيان ، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعى كثيراً ، ورغم أنه يكون فى بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم فى سلوكه قليلاً •••

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمان طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه • وفى هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينةتنا ، انما عرف ذلك الأئخ الذى لم يكن قد رآه من قبل فى يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يرأسله قبل سفره الى موسكو فى موضوع قضية هامة تتعلق خاصة بدمترى فيدوروفتش • وسأشرح للقارئ ماذا كانت تلك القضية ، حين يجيى أوان الكلام عليها • ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطعنت على هذه الظروف الخاصة ، ظلمت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً مجبراً ، وظلمت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجسد له تعليلاً ولا تفسيراً •

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً فى النزاع الناشب بين أبيه وأخيه الأكبر دمترى الذى ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية •

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع في تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون في هذه المناسبة • ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذى كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التى وصل اليها قبل أخويه • ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا في هذه القصة التى هى تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضعة كلمات تكون مقدمة للدخول فى موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : اننى مضطر فى الواقع الى أن أقدم بطلى للقارئ فى مسوح فنى يتأهب للترهب • انه يعيش فى ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئا لأن يستكشف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو •

اليوشا، الدير الثالث



بكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد
دخل أخوه ايفان فى الرابعة والعشرين ؟ أما
أخوهما ديمترى فهو يشارف على الثامنة
والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاحمال

ان الفتى اليوشا لم يكن فيه شئ من تعصب دينى فى رأى ، لا ولا كان
صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأى فيه قلت : انه ، بكل
بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من
حياته • فلئن اختار طريق الاعتكاف فى الدير ، فما ذلك الا لأن هذا
الطريق كان يبدو له فى تلك الآونة النسييل الوحيدة التى يجب أن تسير
فيها حياته ، والملاذ المثالى لنفسٍ مقتونة بالنور والمحبة ضد ظلمات الكره
والبنفس فى هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا
بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيماس*
الذى عدّه الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقاً شديداً فيه كل الحرارة
الأولى التى تندفق فى قلبه الظامى • على أننى لن أنكر أن هذا الشاب
كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ
المهد • سبق أن ذكرت ، فى هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه فى السنة
الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة فى خياله طوال حياته ، فهو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها « كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها أمامي » ، ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع قد ترسخ في النفس ، حتى في سنٍ أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبعثرة تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاء منفصلة من لوحة كبيرة انطلقاً سائرهما وبلغته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التي بقيت وحدها ساطعة . وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسي الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أى شيء آخر) ، وصورة مقدسة في ركن من الغرفة ، وسراجٍ صغير يشتعل أمام الصورة ، والأمّ راكبةً على ركبتيها ناشجةً متعجة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنان موجة ، ثم اذا هي تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤله ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت الأم تمدّه الى الأيقونة كأنما لتضعه في حوى أم الرب ... وتظهر خادمة الطفل فجأة في الغرفة ، فيبدو في وجهها زعر شديد ، وتسارع تنزع الطفل من بين يدي أمه . يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم في ذاكرة أليوشا في تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الانصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم في الطبع والمزاج ... أبداً ... بل بسبب شيء خاص في نفسه ، بسبب اهتمام داخلي ، شخصي تماماً ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشأن أنه يتسبه حتى وجود الناس • ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر • وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في اندفاع ثقة بالناس ، ومع ذلك لم يمد أحد في يوم من الأيام امرأ غراً أو ساذجاً • كان في نفسه شيء لا أذكرى ما هو ، شيء يشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانسان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يدين ، وبأنه لن يرضى بحال من الأحوال أن يلقي اللوم على الملائ • حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان • ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفه شيء ، وذلك منذ غصارة صباه • وفي منزل أبيه ، الذي كان مآخور فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذي بلغ العشرين من عمره محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأي انسان • أما أبوه ، الطفيلي القديم الذي كان لهذا السبب سريماً الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله في أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير (• انه مسرف في الصمت تجاهي ، مسرف في التفكير دون أن يقول شيئاً) ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين في أكثر تقدير يماثقه ويضمه الى ذراعيه في كل لحظة • صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور • ولكن كان واضحاً مع ذلك أنه يحبه حبا صادقا عميقاً ، كما لم يحب رجل من نوعه أحداً •••

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال • لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة له في نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته • وأياماً كان يعيش في منزل المحسن اليه والمربي له ، ايفيم بتروفش بولينوف ، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاماً عن أى مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سنٍ يجعل فيه الكائن الانسانى كل شىء عن فن المالأة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه . لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك . هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخریات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان . لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاهه فى فترات الراحة بين الدروس ، فيفرق فى التأمل . كان أليوشا يحب كثيرا ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتاباً من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيماً ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاهه غيرَ منازع . كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية راقية . وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى كذلك أحدا . ولكن الصيبة لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدَلُّ بها ، بل يظل بسيطا منطلقا على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجراته وجسارته . وكان لا يحتفظ أبداً بذكرى اساءة نالته أو اهانة ألحقت به . وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين . كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يقتن الصية ويسحرهم فورا . ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، فى جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خيئة فى السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع فى نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشديد ، وخفزه العظيم المرتبط بالخشمة والعفة . ان الأحاديث التى يتبادلها التلاميذ عن النساء والتعابير التى يستعملونها فى هذا المجال ، كانت أمورا لا يطبق الصبى أليوشا أن يسمعها . ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها . ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صفارا ، يجدون لذة كبيرة فى أن يتحدثوا فى هذه الأمور ، بصوت عالٍ فى كثير من الأحيان، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستجى حتى الجنود فى التكنات أن يتكلموا فيها . الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، فى كثير من الحالات ، أمورا أصبحت فى أيامنا هذه مألوقة أو شبه مألوقة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب . والحق أن ذلك لا يجب أن يعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التى يحلو للتلاميذ أن يمدوها علامة رهافة فى النوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تقلّد . فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على « هذه الأمور » ، أصبح يلذ لهم أن يتحلّقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذّية وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة . فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتقى على الارض ، ويخفى وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساعة صامتا • واتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلّها نوع من الرأفة به والعطف عليه • وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه فى يوم من الأيام •

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة ستين بعد موت ايفيم بتروفتش • ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التى لا يجد العزاء الى قلبها سيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هناك زمناً طويلاً مع أسرتهما كلها التى تتألف من نساء فقط • فاتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمان الى أسرة بولينوف بقرى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هى الترتيبات التى استقبلته هاتان السيدتان على أساسها • تلك سمة بارزة من سمات طبعه ، هى أنه كان لا يهمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش ! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياةً شديدة البؤس والفقر والموز خلال الستين الأولين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله • على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقنع بأنه كان فى شئون المال واحداً من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألهم ذلك أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه ويسلبهم اياه • وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وإنما يجب أن نفهم هذه الكلام على المجاز لا على الحقيقة
 طبعا . كان ألبونا اذا أعطى شيئا من المال ليكون في جيبه ينفق منه عند
 الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له
 اما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن
 ينفقه بلا حساب فاذا بكل شيء يختفى في غمضة عين . ان بطرس
 ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شئون
 المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما
 بعد أن لاحظته عن كتب : « لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد في هذا
 العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد في وسط مدينة كبرى
 لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد . . . انه سيدبر أموره
 عندئذ بأيسر طريقة . . . فسرعان ما سيأخذهم فيطعمه ويسكنه . .
 ولن يكلفه ذلك أى جهد ولن يحمله أية مذلة . . والشخص الذى
 سيضمه اليه لن يشعر بعينه ، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى . . .
 لم يتم ألبونا دراسته في الكوليج . كان قد بقى عليه أن يقضى
 في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن في ذات يوم
 للسيدتين اللتين كان يقيم في منزلهما أنه سيذهب الى عند أبيه لأمر
 يتنويه . نذبت السيدتان حفله كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن
 عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته
 - وهى هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج -
 فقد زودته بمبلغ وافر من المال ، وأعطياه ثيابا جديدة وملابس داخلية .
 ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حرصاً مطلقاً على أن
 يسافر في الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصل الى مدينتنا أبى أن
 يجيب عن الأسئلة الأولى التى ألقاها عليه أبوه (ماذا دهاك ، يا بنى ،
 حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟) ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عُهد فيه • ذلك ما قيل • وسرعان ما عُرِف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه • وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال ، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذي دفعه الى المجيء • ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه • ولعله كان يجهل هو نفسه فى تلك الآونة الأسباب العميقة التى حملته على المجيء ، ولعله كان لا يستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفته دفعا لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها • لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدلّه على المكان الذى دُفنت فيه زوجته الثانية • انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت ...

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش • لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا • انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واستقر فى أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة • وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا فى منازل يهود فحسب ، بل فى منازل عبريين أيضا » • فمن حقنا اذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حياته انما نمى وحسن وجوده فى تصريف الأعمال وارباة الأموال • ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث سنين • وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعد ؛ كما اكتسب عادات فيها مزيد من الاستهتار والوقاحة • من ذلك مثلا أن هذا المهرج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من المناسبات والعجرفة أن يخفض الآخرين الى هذا المستوى ؛

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والفسح لا كما كان يتعاطى ذلك كله
 فى الماضى ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبغى على الاشتراز أيضا .
 ولم يلبث أن فتح فى مديرتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه
 كان يملك رموس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا
 جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديرتنا يقرضونه
 أموالا ، لقاء فوائد طيبة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتضعف وتفضن
 فى الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه
 منها فى الماضى ؟ وأصبح سلوكه أقل ترويا وتأنيا ووعيا ، حتى لقد برهن
 فى بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبيل ، فهو ما يكاد يشرع فى
 أمر حتى يتركه الى غيره ، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط
 بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض . وأصبح يسكر مزيدا من
 السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجورى الذى دلف الى الشيخوخة قليلا
 هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربى أو المربية تحريا ، اذن
 للقى فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجيء ألكسى
 قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيرا حسنا فيما يظهر ، فكأنه أيقظ فى
 نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ
 زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا
 أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أم
 ألكسى .) . واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى
 الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم فى ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلّه
 على صفيحة من الصلب كانت مهجورة فى مكان ضائع ، وقد نقش عليها
 اسم المتوفاة وأصلها ومنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها فى أسفل
 هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن
 تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه

الصفحة المعدنية انما كانت قد وضعت في ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا . لقد حاول جريجورى أن يذكر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالتعب ، وغير حافل بالذكريات . لم يظهر أليوشا أى انفعال أمام قبر أمه ؛ واستمع بغير اهتمام الى مارواه جريجورى جاداً متعلماً متحذلقاً عن اللوح المعدنى كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضاً رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة . على أن تذكر الماضى هذا قد أثر فى فيدور بافلوفتش بعض التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يتوقع منه . أخذ ألف روبل دون أن ينبئ أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية ، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلايد ايفانوفنا ، تلك التى كانت تضربه . وفى ذلك اليوم نفسه أيضاً ، سكر سكرأ شديداً وقال بحضور أليوشا كلاماً أسوأ من شق الرهبان . لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل الدين الى أقصى حد ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بقرش واحد أمام أيقونة . غير أن أفراداً من هذا النوع قد يتفق لهم أن يفزروهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن فى الحساب ، ولكنه موقت على كل حال .

سبق أن قلت انه قد تفضن وجهه . والحق أن وجهه كان يحمل فى تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التى عاشها ، وأنواع الأهواء التى عصفت به . فالى الجيوب الطويلة المتفتحة التى كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تطلان دائماً باحتئين مفتشتين

وفجئتين ساخرتين ، وإلى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تمخذ وجهه الذى كان صغيرا ولكنه مليء بالشحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تفضي على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منفرة • وكان له أيضا فم كبير نهيم منتفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تفتت تماما • فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متاثرا • ولقد كان يجب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؟ كان يلح فى كلامه خاصة على شكل أنفه الذى كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس • كان يقول : « هو أنف رومانى حقا ، فإذا ضمنت إليه ذقنى المزدوجة كنت ترى نبلا من نبلاء روما فى عصر الانحطاط • • » كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معذرا به •

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزم من قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئا • وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرر أمنياتها ، وأنه فى هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير • وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب المعجوز زوسيم الذى انزوى فى الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا فى « ابنه الطيب العذب » •

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذى لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

— لا شك أن هذا الشيخ زوسيم* هو خير أولئك الرهبان ••• هيم ! ••• ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بنى الطيب اللطيف • (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة في ضحكة سكران عريضة لا تخلو من
مكر وخبث (... هيم ! ... لقد تنبأت أنا بأنك ستتهي الى حيث
انتهيت ، هل تعلم ؟ هأت ذا قد عزمت أمرك الآن . انك تملك ألفي
روبل هما لك وحدك ... تلك ذخيرة طيبة ... أما أنا يا ملاكى فلن
أتركك قط ، حتى اننى مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل
ما سيطلبه منى . ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن
نزعجهم ... أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق
كثيرا ، ولست تحتاج من المال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيور
الكنارى ... تكفيك جبتان فى الأسبوع ... اننى أعرف ديراً يملك ،
فى خارج المدينة ، دوراً صغيرة . وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور
تضم « زوجات الدير » ... ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة
هناك ... ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم . لقد ذهبت الى هناك
وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التمتع . ليس ثمة
الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن
فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز
رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووجدانا ...
أما هنا فلا شيء من ذلك ! ليس للدير زوجات ... وعددهم مائتان
هؤلاء الرهبان ! لا شيء هنا الا العفة والشرف . هم أناس أطهار ...
أعترف أن ... هيم ... أتريد أن تكون راهبا ؟ اننى أرئى لحالك
قليلا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أننى تعلقت بك ؟ على كل حال ...
رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على
الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويغفر لنا ، ذلك أننا قد أئمننا
كثيرا على هذه الأرض . اننى أتساءل منذ زمن طويل : « ترى من ذا
الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلى لنا ؟ • • يا ولدى المسكين ، انتى غيبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت • • • غيبى جدا ، صدقتى ! • • • ولكن مهما أكن غيبا فى هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا • صحيح أنتى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى فكرت فيها • قلت لنفسى : • • • يستحيل أن تسمى الشياطين انتقاطى بمجارفها حين أموت ، • • • ثم تساءلت : • • • « مجارف ؟ من أين لها المجارف ؟ وممَّ صنعت هذه المجارف ؟ ألعلمها صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ أعلل عندهم اذن مصنا ؟ • • • ان الرهبان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا • • • أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقد بوجود الجحيم ، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف • • • انتى أوتر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمانا أقرب الى مذهب لوتر بمعنى من المعانى • • • ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؟ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه • • • من عسى يلتقطنى بعد موتى ، من عسى يحملنى على معرقة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطنى الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ فى هذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجل أنا خاصة ، من أجل وحدى ، لأننى مذهب خالغ العذار يا أليوشا ، لو علمت ! • • • • •

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه باتباه :

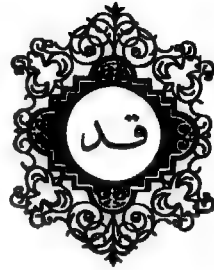
- لا ليس فى الجحيم مجارف •

- هه ! هى اذن أطياف مجارف فحصب ؟ فهمت ! فهمت ! هذا يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى : • • • رأيت طيف حوذى * كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة • • • من أين عرفت يا طائرئ الصغير

أن ليس نعمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنَّ غير هذا الكلام •
 اذهب اليهم على كل حال • ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدتھا
 تعال الىَّ فحدثنى عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسوة على ، لأنتى
 أكون قد عرفت ما ينتظرنى فى الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسك أكثر
 من منزلى الذى يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ... رغم أنك بما
 لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ
 بها ملاك • لا أدرى هل تستطيع البقاء أيضاً مع هؤلاء الرهبان ... لذلك
 آذن لك أن تلتحق بالدير ! ... اننى أعتمد على سلامة حكمك وحصافة
 رأيك • ليس الذكاء ما يعوزك • ان النار تشتعل ثم تنطفئ • فمتى
 شفيت رجعت الىَّ • لسوف أنتظرك • أنت الانسان الوحيد فى هذا
 العالم الذى لم يتهمنى ولم يدنِّى ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعرفه
 يا صغيرى الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل • انه عاطفى : هو خيبت
 وعاطفى مما •

مشايخ الرهبان



يميل بعض قرائي الى الاعتقاد بأن الشاب، الذي أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم . والواقع أن ألبوشا كان فى تلك الآونة عكس ذلك : انه مراهق فى التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورّد الخدين مضي النظرة ؛ بل لقد كان جميل الوجه قوى البنية . وهو مربع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسما على شيء من الاستطالة ، تسطع فيه عيان شهاباوان قائمتان متباعدان تفيضان حياة . انه يبدو شارد الذهن كثير التفكير ، وهو فى الظاهر هادىء همدوء كبيرا . رب قائل يقول ان تورّد الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى الصوفية . ولكننى أعتقد أن ألبوشا كان واقعا أكثر من أى انسان آخر . صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأيى أن تززع فكر انسان واقعى . ذلك أن المعجزات ليست هى التى تولد الايمان لديه . ان الواقعى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا سبيل الى ججودها آثر أن يشك فى صدق حواسه على أن يسلم بالواقع • حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عدم ظاهرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر • ان المعجزات لا تولد الايمان لدى الواقى • بالعكس : فان الايمان هو الذى يستدعى لديه المعجزات • فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها • لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى ، ولكنه حين رأى هتف يقول : « أنت الهى يا رب ! » • فهل المعجزة هى التى أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا • • • وأنه انما آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، فى أعماق كيانه منذ كان يقول : « لن أؤمن ما لم أشاهد • »

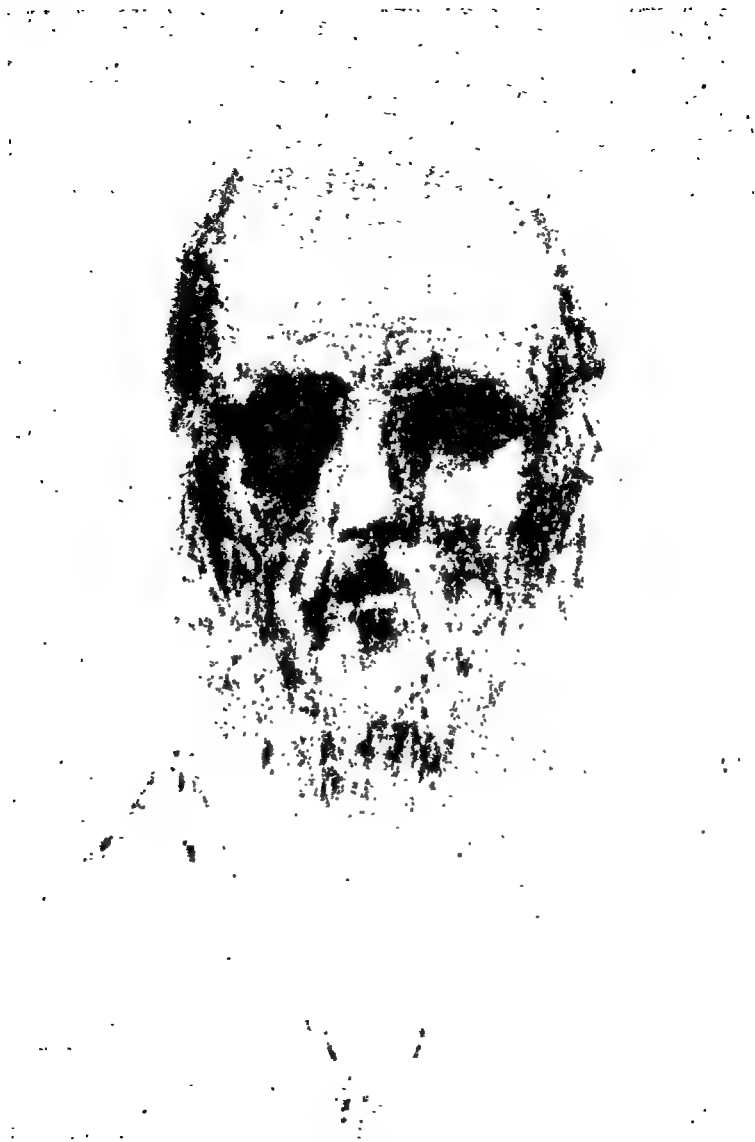
وقد يُظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم يتم دراسته فى الكلية ، الخ • فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسابانه رجلا غيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير • ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها الطريق الوحيدة التى كانت تجتذبه فى تلك الآونة ، لأنها الطريق الوحيدة التى تتيح له فرصة رائمة هى أن يتمكن مرة واحدة من حل الصراعات القائمة فى نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطلاق نحو النور • تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشيء ، أى كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتسمى اليها وتؤمن بها • فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة فى أن يقف على خدمتها كل روجه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطاء أو تلكؤ ، وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن كل شيء فى سبيلها والزهد بكل شيء من أجلها ، ولو كان هذا الشيء هو الحياة ذاتها • من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لا يدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة
 فى كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال
 خمس سنين أو ستة من الدراسة - ولو لمضاعفة وسائل تأثيرهم وأدوات
 عملهم بالمعرفة المكتسبة - بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التى يريدون
 ان يندروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمالهم التى يحلمون بها
 تحقيقاً أتم وأكمل ، اقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب
 شجاعة أكثر من الشجاعة التى تتطلبها التضحية بحياتهم • تلك صورة
 أخرى من التضحية قد تفوق فى كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب •
 صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التى كان يسلكها فى
 ذلك الزمان أكثر معاصرية ، ولكنه اندفع فى هذه الطريق برغبة قوية
 حارة فى الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين • انه منذ فكر تفكيراً
 عميقاً فافتتح بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعى تماماً :
 « اننى أريد أن أعيش للخلود ، واننى أرفض التسويات وأنصاف
 الحلول » • ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فافتتح بأنه لا وجود لله ولا
 وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدًا واشتراكيًا
 (لأن الاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق
 عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانما هى قبل كل شيء نظرة الحادية
 وتجسيد حديث للكفر بالدين • انها قصة برج بابل القديمة التى أراد
 البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرتفعوا من الأرض
 الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) • ما كان أليوشا أن
 يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش فى الماضى • لقد قيل : « هب كل
 ما تملك واتبعنى اذا أردت أن تبلغ الكمال » • فحدث أليوشا نفسه
 قائلاً : « هل فى وسعنى أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب « كل
 شيء » ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء « اتبعنى » فهل أكتفى بالذهاب الى

الصلاة ؟ ، • من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا في ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير في الماضي للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التي كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبتة أيضا • ونهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطى « كل شيء » ، أم يعطى روبلين قصص • ولكنه التقى في الدير بشيخ الرهبان ذاك •

انه شيخ الرهبان زوسيم ، كما سبق أن أشرت الى ذلك • وقد آن لي أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذي يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان في أديرتنا • سوف أحاول ، رغم اننى أشعر ، على أسف ، بأننى لست بالعالم الكفء في هذا المجال ، وبأن معارفى ليست راسخة جدا في هذه الشئون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحياً • ويجب أن أذكر قبل كل شيء ان المختصين في هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التي يمثلونها لم تظهر لدينا في الأديرة الروسية الا في عهد متأخر بعض التأخر ، في عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت في الشرق الأرثوذكسى كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آتوس منذ أكثر من ألف عام • ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا في روسيا في أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التترى والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود • ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك في بلادنا الا في نهاية القرن الماضى على يد أحد كبار

المناضلين منا في سبيل الايمان ، ألا وهو الناسك بائسى فيلتشوفسكى *
 (كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مريديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك
 المدة كلها ، وهى تقارب مائة عام ، الا فى عدد صغير من الأديرة ، بل
 لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب
 كما لو كانت بدعةً خارقة . ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصةً
 (فى روسيا) فى الصحراء الشهيرة ، صحراء كوزلسكايا أوبستينا * . أما
 متى دخلت الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك
 أمر اعترف بأثنى أجهله ، ولكنى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير
 ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيم . كان زوسيم يحس أنه يوشك أن
 يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا
 مات . ان لهذه المسألة شأنًا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك
 شيئًا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا وفات قديسين ، ولا أيقونات لها
 معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط
 بتاريخنا القومى . ان هذا الدير لم يشارك فى أى عمل باهر ، ولم
 يسهم فى أى عمل وطنى . انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا
 فى روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج ذرافات
 من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفرامنخ ، رغبة
 فى رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم . فما هو الشيخ على وجه
 التحديد ؟ انه السيد المطلق الذى يسيطر على النفوس والارادات ،
 ويحتوى فى ذاته جميع ما تجيش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار .
 فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطاعة
 مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان . والذى يختار هذا النظام القاسى ،
 ويرتضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة ، انما يفعل ذلك بارادته ،
 أملاً فى أن يصل ، بعد محن طويلة ، الى التغلب على ذاته ، الى



الشيخ زوسيم
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقية : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدها الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل الى بلادنا . ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجرد « الطاعة » التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتنا الروسية . فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفرض نقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ فى اتصال روحى أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلاً أن راهباً مبتدئاً من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر فى البلد الجديد الذى مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيراً أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التى يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعاً ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعُرف أخيراً أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، ما لم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم أسطورة قديمة طبعاً ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا * ، اعتكف فى دير بجبل آتوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آتوس هذا الذي ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا . قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » . حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضى ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة . ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد في العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذي فرضه عليه وألزمه به . هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح في بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود . وذلكم هو السبب في أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا في كثير من أديرتنا في أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد . ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما . من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكبارهم واعجابهم ويُسَرِّثون اليهم ، في مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد . وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الخطوة التي نالوها وهذه الثقة التي اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يوح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف . غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا في بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أدبرتنا • يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع
عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح
روحى للانسانية يرفضها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالاً
روحياً ، يمكن أن يصحح فى بعض الأحوال سلاحا ذا حدين ، وأن يخلق
لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطوسة خبيثة
وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدى الى استعباد النفس بدلا من تحريرها •
ان الشيخ زوسيماس هو الآن فى الخامسة والستين من عمره ، كان
فى سالف الزمان « بوميسيتيك » انخرط فى العسكرية فى صدر شبابه ،
وعمل ضابطا فى القفقاس • لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ،
فأحدث فى نفس أليوشا تأثيرا قويا • كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها
التي كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفاً كبيراً ،
فارتضى أن يكون له ولياً حميماً • يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم
أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن
قد تقيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن
يغيب ، وربما غاب عن الدير أياماً بكاملها • ولئن ارتدى مسوح الرهبان ،
فلقد فعل ذلك بارادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شيء • على أن
من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضا • ولعل خيال
أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين
كانتا تحيطان بشيخه • ويقان ان زوسيماس هذا كان قد اكتسب من طول
ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا
يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسدى
اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة
النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح
فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرقه من أسرار وما أفضى به

اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجعون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التي تجيش في نفسه وحتى الآلام الخيثة التي تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليكاد يرمى في قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة . وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف ، حتى اذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادىء النفس مطمئن البال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة في أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة . ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة . بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح . وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا . صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى في نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كراهة ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لا ينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذي كان من أقدم رهبان الدير ، والذي اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام . غير أن أكثر الرهبان قد احازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشك أن يكون تعصبا ،

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك فى أنه قديس ؛ واذ كانوا يتبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسمعون سلفا للمجد الذى سيناله الدير فى مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله . وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المعبد . لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاموا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يمودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتسائل هل تمَّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى . لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له ، كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجبين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بنية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصبحون صيحات الوجد والنشوة . وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تحيته برجالها ليشفيهم . فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرة ، وباركهن قبل أن يصرفهن . وقد أصبحت نوبات المرض فى الآونة الأخيرة تبلغ من اضافته فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أياما بكاملها . ان أليوشا يرى أن من الطبيعى أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة .

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويكون خائفاً حين يرون وجهه • كان أليوشا يشعر شعوراً قوياً بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسى ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضئها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة - خطايا الناس وخطايا هي - كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلًا أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ... ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؟ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هي الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضاً فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء فى الكتاب . » • كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب • فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايماناً لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفلاحات اللواتى يمددن صفارهن الى الشيخ ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجدداً خارقاً كان أرسنخ وأقوى من يقين أى راهب آخر . ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوماً بعد يوم • وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائى فى هذا العالم رغم كل شيء • كان يقول لنفسه : « أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّاً بحث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض بغية أن يصير جميع الناس قدسين وأن يحب بعضهم بعضاً ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعاً سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكوت

يسوع المسيح . . . ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا .
ويظهر أن وصول أخويه للذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين
قد أحدث فى نفس أليوشا أثراً كبيراً فى تلك الآونة . لقد تفاهم مع
أخيه غير الشقيق ، دمتري فيدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمق من
تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل
دمتري . كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كثب ، ولكن
رغم أنهما يعيشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان
كثيراً ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقى : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً .
لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوى على نفسه فى نوع من
الخشية أو من الحرج الداخلى ؟ وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته
الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح
لا يهتم به . وكان أليوشا يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فرق
فى السن والثقافة . غير أن تعليلاً آخر كان يساور فكره أحياناً ، فكان
يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال
يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشغول
البال دائماً بشئ ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جداً ، وأنه يتطلع الى
بلوغ هدف لعله رفيع جداً وصعب جداً ، فما يتسع وقته كثيراً لأن يلتفت
الى أخيه وأن يفكر فيه . أقللاً يكون هذا هو السبب الحقيقى الوحيد
لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن
أن يشتمل هذا الموقف على شئ من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه
راهب مبتدىء غبى ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله . ان
مثل هذا الاحتقار - اذا وجد - قد لا يكدر أليوشا ، ومع ذلك كان
أليوشا ينتظر ، بقلق غامض تخالطه خشية ، اللحظة التى يقرر فيها
أخوه أن يقترب منه . أما دمتري فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة . ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التي خلقت بين الأخوين فى الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقاً . وكانت هذه الحماسة التي يظهرها دمترى فى تقدير أخيه ايفان تكسب مزيداً من الدلالة فى نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلاً لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر فى الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور انسانيين بينهما من قوة التسافر وشدة التفاوت ما بين هذين الأخوين .

وفى تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلى أو قل الاجتماع العائلى فى حجرة الشيخ زوسىما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتأخرة ، وذلك حادث كان له فى أليوشا تأثير كبير . الحق أن الهجة التي اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة . ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ فى تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق . وان فيدور بافلوفتش هو الذى اقترح - مازحاً فيما يظهر - أن يُعقد اجتماع فى حجرة الشيخ زوسىما بنية الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ فى الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كقيمتان بأن تؤثرا فى الجميع تأثيراً يهدى النفوس ويصالح القلوب . وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذى لم يسبق له أن زار الشيخ يوما والذى لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعاً أن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويله بسلطان هذا الشيخ . ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدى ، لأنه كان فى سرٍّ يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والتزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول
أحيانا كثيرة في الآونة الأخيرة • ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن
في منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وانما كان يقطن وحيدا في
الطرف الآخر من المدينة • وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطرس
ألكسندروفتش ميوسوف الذي كان يقيم في مدينتسا آنذاك ، أن تبني
الرأي الذي اقترحه فيدور بافلوفتش • انه ، وهو اللبرالي على طراز
سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ، قد ساهم
في هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة
طائشة في السخرية والاستهزاء • وقد انتهى فجأة أن يرى الدير وأن
يرى « قدس » الدير • واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد
طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيهِ
وحُدود أراضي الدير ، وعلى الحقوق الغامضة في قطع أشجار الغابات
وحصد أسماك النهر ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع
يتهمز هذا الطرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصا ،
فسي أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى
القضاء ! وقد ذكر في تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية
الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالا لطف وأكرم من الاستقبال الذي
سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر •
وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات في داخل
الدير ، وفعلت فعلها في الشيخ المريض الذي أصبح منذ زمن لا يكاد
يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا
أن يفدوا اليه • لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحدّد موعد للمقاء ،
واقصر الشيخ على أن يقول لألبوشا وهو يتسم : « ما أنا في الحقيقة حتى
بحق لي أن أكون حكما بينهما ؟ » .

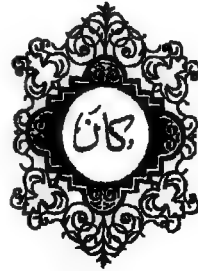
حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسيء الى الشيخ وتجرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الإدراك . فأخوه ايفان والسيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربما بداعى الفضول الغلط الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤادا وأنفذ بضيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ، فكان يرتعد قلقا عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهدبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله ملغا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر أثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدد للزيارة أن يسلم أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واختار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه في رسالة مكتوبة بأنه سينزل قصارى جهوده في سبيل أن يسيطر على نفسه وفي سبيل أن يتجنب أى « صَّار » ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فحاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقوله : « ومع ذلك فانتى أوتر أن أبلغ لسانى على أن أقول كلاماً يؤذى هذا الانسان المقدس الذي تجله وتعظمه » . « غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن ألبوشا » .

الباب الثاني: اجتماع في غير محله

١

الوصول الى الدير



ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مغيء حار . ان لقاء الشيخ قد حُدَّت له الساعة الحادية عشرة والنصف ، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظة انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهي مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره ، اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذي كان الشاب يعيش في تلك الفترة عنده ، يريد أن يصبطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلاً . هو فتى قوى البنية طويل القامة حلو الوجه ، ولكن نظراته تجمد في بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له في بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الناهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو

فى العادة كثر الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شىء من خراقة ، ولكنه يتحمس فى بعض الأحيان - اذا خلا الى صديق - فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب ظاهر . على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة . والفتى حسن الهندام دائما ، على شىء من تألق . وهو يملك ثروة حسنة تكفل له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر موارث أضخم وأعظم . ولقد كان صديقاً لأليوشا .

وأما العربية الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه ايفان فيدوروفتش ، وهى عربية عتيقة مهترئة مترحة مقرعة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناءً فى اللحاق بفسركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما .

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة .

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيرا على الأقدام . يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؛ أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً . كان ينظر حوالية بشىء من الاستطلاع ، دون أن يتأزل مع ذلك عن التظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاكتراث . ولكن ما من شىء فى داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المباني الدينية والمباني الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهى مباني ليست على حظ وافر من جمال فن العمارة . كان أواخر المصلين يخرجون من الكنيسة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رؤوسهم ؛ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجرال عجوز جدا • كان هؤلاء جميعا قد نزلوا في الفندق • وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجائوف ، فقد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كويكات ، وسارع يدها مضطرباً بعض الاضطراب - لا أدري لماذا - سارع يدها خلسة في يد احدي هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » • لم يُبد له أحد ملاحظة على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه •

استغربوا أن أحدا لم ينجى لاستقبالهم في الدير • يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن يُستظروا بل وأن يُستقبلوا استقبالا فيه حفاوة • ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل في الآونة الأخيرة ؟ أليس الثاني منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأطنان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد في النهر اذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجيء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة ، وهم أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حق لهم أن يدفنوا موتاهم في مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالسخرية اللبرالية تحرك في نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

— لا يعلم الا الشيطان من الذى ستجبه اليه فى هذه الفوضى ...

وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضى ...

وفي تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم في السن ، أصلع ، متلطف النظرة • انه يرتدى معطفا فضفاضاً من معاطف الصيف • رفع الرجل قبعته ، وقدم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعذب مترقق ينطق النجيم زائياً ، قائلاً انه الملاك ماكسيموف من اقليم تولا • وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

- ان الشيخ زوسيمًا يقطن الصومعة في مكان منزوي على مسافة أربعمئة قدم من الدير • فيجب للذهاب اليه اجتياز الغابة الصغيرة ، هذه الغابة الصغيرة •••

فأجاب فيدور بافلوفتش :

- أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجيء الى هنا من زمان طويل ••••

قال الرجل :

- يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً في الغابة ••• الغابة الصغيرة •• هيّا بنا •• هل أستطيع أن •• انني أنا أيضاً ، أنا أيضاً •• الطريق من هنا ، من هنا ! ••

خرج الجميع من الباب وساروا في الغابة • كان مالك الأطيّان ماكسيموف ، وهو رجل في نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنسوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة • قال ميوسوف بلهجة قاسية :

- يجب أن أقول لك اتنا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمر تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فملكك

تدرك اذن أننا مع شكرنا لك على أنك تدلنا على الطريق نسألك أن
لا تصحبنا في الدخول عليه •

– لقد كنت عنده ••• كنت عنده ••• هو فارس عظيم ••

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه في الهواء •

سأل ميوسوف :

– من ؟ من هذا الذي تصفه بأنه فارس ؟

– الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ••• شرف هذا الدير

ومجده •• زوسيم •• ذلك الشيخ •

وفي تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد
النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأطيان
حديثه المضطرب المفكك • توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف • وخاطبهم
الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحني أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه
مستوى الحزام :

– ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ،

حين عودتكم من الصومعة ، بالمجيء إليه جميعاً لتناول طعام الغداء •

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

– وأنت أيضاً مدعو •

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار له فرحاً بهذه الدعوة :

– سأجيء ، سأجيء حتماً ••• لن أتخلف عن المجيء ! اعلم أننا

قد تعهدنا جميعاً بأن نتصرف هنا باحتشام • هل تجيء أنت أيضاً يابطرس

ألكسندروفتش ؟

- سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصى على أن أرى
جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيد الذى يقلقنى الآن هو أنتى فى
صحبتك يا فيدور بافلوفتش !

- نعم ! وما رأيكم فى دمتري فيدوروفتش الذى لم يتنازل أن
يصل حتى الآن ؟

- ليت لا يصل أبدا ! أملك ظن أنه يسرنى أن أجد نفسى مقحماً
فى جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

- اتنا تقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا •

فأجاب الراهب :

- أنا باق معكم ، لأنتى مكلف باصطحابكم الى الشنخ •

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقاً :

- أما أنا فذهاب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً • أنا ذاهب اليه
حالا •

قال الراهب متردداً :

- الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن •••

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو
الدير بخطاه القصيرة السريعة :

- يا للعجوز الصغير المزعج !

فمقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله :

- انه يذكرني بفون سون ! *

- كل شيء يذكرني بفون سون ؟ أى شبه بينه وبين فون سون ؟
وهل رأيته أنت ، فون سون هنا ؟

- رأيت صورة له • قد لا يشبهه بلامح الوجه ، ولكنه يشبهه
بشيء يصعب تحديده هو نسخة عن فون سون • أنا لا يخطئني
الظن أبداً في مثل هذه الأمور • تكفيني نظرة واحدة ألقها على
الوجه

- طيب • لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال • ولكن
لا تنسى يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على
أنفسنا عهداً ليكون سلوكنا هنا محتشماً • تذكر هذا • راقب نفسك •
اتنى أطلب اليك ذلك جازماً قاطعاً • اياك أن تأخذ في تمثيل دور المهرج •
اتنى أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك •

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

- أرايت أى نوع من البشر هو ؟ يميناً اتنى أخشى أن أذهب في
صحبتة الى عند أناس محترمين

ارتفعت على شفقي الراهب الرقيقتين الناويتين ابتسامة ناعمة
صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء • لقد كان واضحاً
كل الوضوح أنه انما يعتمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية •
قطب ميوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب • وقال يحدث نفسه : « شيطان
يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ،
الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

- هذه هي الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصل
والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين
التي تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه • وقال :

- لكل دير قواعد تجب مزاعاتها • هم هنا خمسة وعشرون قديساً
على وجه التقريب ، يشدون الأمن والسلامة والخلاص في هذا المنسك،
يتفرس بعضهم في بعض ويأكلون الكرب المخلل • ولكن ما من امرأة
واحدة يُسمح لها باجتياز هذا الباب • ذلك أعجب شيء هنا ، ولكنه
حقيقة • فكيف نعلل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل في هذا المكان
سيدات في بعض الأحيان كما قيل لي ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب •
- ان نساء من عامة الشعب توجد هنا في هذه اللحظة نفسها •
تستطيع أن تراهن : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات •
أما سيدات المجتمع الراقى فقد خصصت لهن في الرواق ، ولكن على
الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراهما من
هنا • فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلي متى أحس بأنه قادر على ذلك،
دون أن يجتاز السياج طبعاً • وثمة سيدة من مالكات الأطنان هي الآن
هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا • أغلب
الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن
أنه أصبح لا يكاد يخرج •

- هناك اذن ممر يؤدي من المنسك الى السيدات • لا يذهبن بك
الظن أيها الراهب المحترم الى أن في كلامي هذا شيئاً من غمز ! حاشاه ••
فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النساء ،

فى جبل آتوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يُمنع هناك أيضاً وجود الأنث من أى نوع من أنواع الحيوان ... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك ؟ ...

– فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك !
ولئن انصرفت أنا ليُخرجُكَ من هنا جراً من كتفيك ! ابنى
أحذرك ...

– وددت لو أعرف ما الذى يزعمك منى يابطرس ألكسندروفتش ؟
كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج
المنسك :

– انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه ! ...

حقاً ... ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً فى هذا الألوان . لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال . وكان واضحاً أن يداً ماهرة صناعاً هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب . ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران . والبيت الصغير الذى يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بخشب ومولفاً من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوّقه من كل جهة .

– قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تغضبه كثيراً حتى لينفق له أن يرفع عصاه على سيدات .

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل .
أجاب الراهب الصغير قائلاً :

- كان مظهر الشيخ فارسونوف يومه حقاً فى بعض الأحيان أنه
إنسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التى قىلت فى حقه
ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحدٍ فى يوم من
الأيام ! انتظروا هنا لحظةً يا سادة • سأبلغ الشيخ قدمكم •

اتسع وقت ميوسوف لأن يقدم قاتلاً لفيدور بافلوفتش :

- أذكرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ••• أحسن التصرف ،
والاجعلتك تدم ! •••

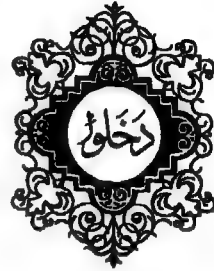
فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

- لا أستطيع أن أفهم ما الذى يجعلك تثير الأعصاب الى هذه
الدرجة • أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أنت خائف من قدرة هذا
الشيخ ؟ يقال انه يقرأ فى أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش فى
الضمائر وكل ما يتوى فى قرارة النفوس • هل يجوز لرجل باريسى
تقدمى مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا
ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخریات ، لأنهم قد دعوا
الى الدخول • وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحرق يلم به ويغيط يفسزو
قلبه •

قال يحدث نفسه : « اننى أعلم ما سيحدث الآن • أنا أعرف
نفسى • سوف تور أعصابى ، سوف أغضب ••• سوف أمحس ، فبذلك
أخفض قدرى وأغض من قيمة آرائى • • • »

الخرج العربي



الحجرة في نفس الوقت الذي ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجته تقريباً • كان في الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما • ان أحدهما هو الأب القيسم على مكتبة الدير ، والثاني هو الأب بائسي • ان الأب بائسي رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن في السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم • وكان هنا لك فتى يبدو في الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف في ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) • انه طالب سيصبح في المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ، ويشملانه بالرعاية والحماية • هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضى وجهه عينان شهابوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء واتباء • وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة • انه لم يسلم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه نداً لهم ، بل شخصاً ثانوياً مرموساً •

دخل الشيخ يصحبه ألبوشا ومترهب مبتدى • نهض الراهبان

الكاهنان فسلماً على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنيا له خني لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلوا كلمات المباركة وقبل يدي الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردد عليهما التحية منحنيًا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لاسماً بيديه الأرض . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التي قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحس ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال . وكان ميوسوف في مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه - وذلك أمر فكرر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة - ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك في هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبسات التي طبعها الرهبان على يدي الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكفني بأن حيًا الشيخ تحية عميقة منحنيًا له الانحناءة الكبيرة التي ينحنيها رجل مهنّب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرميه هادئاً رصيناً وقوراً . واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه في كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليدًا ، ولملّه فعل ذلك عامداً . وسلم ايغان فيدوروفتش هو أيضا سلاما رصيناً مهذباً ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسي أن يسلم . وأنزل الشيخ يده التي كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيّاهم مرة أخرى رجاهم أن يجلسوا . صعد الدم الى خدي أليوشا . لقد كان يشعر بالخجل والخزي من ذويه . ان ما أوجسه وتبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الألكجو ، قديمة الطراز جداً ، منطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، بامتناء الرامين الكاهنين ، صفًا

واحدا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم الى مقاعد أربعة من خشب الأكالجو مغطاة بجلد أسود رثٍ جدا • وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة • أما الطالب وألوشا والترهب المبتدئ فقد ظلوا واقفين • ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذى فيها عادى فقير يقتصر على ما هو ضرورى لا غنى عنه • وهذان أصيصان للزهر يزنان حافة النافذة ، وهنه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس فى ركن من الترفة ، احداها للسيدة العذراء ، وهى أيقونة كبيرة جدا يرجع تاريخها الى عهد سابق على الاشفاق الدينى * • وعلى جانبى العذراء صورٌ مقدسة أخرى فى صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبعدها بقليل يرى الرائي تماثيل أطفال لهم أجنحة ، وبيضاً من خزف ، وصليبا كاثوليكيا مع أم محزونة تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان فى القرون الخوالى ، وهذا كله قد اختلط بعضه ببعض فوضى ؛ والى جوار تلك الصور الفنية التى لها قيمة كبيرة يرى الرائي عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء ، هى من تلك الصور التى تباع فى جميع أسواق البلاد بكوبك واحد • وهناك صور ليتوغرافية أخرى هى وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الفرفة • طاف ميوسوف على هذه « التفاهات » بنظرة سريعة ، ثم حذق الى الشيخ • ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة نافذ البصرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن تنفصره له حنماً اذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهى سنٌ يكون فيها الانسان الذكى الذى ينتمى الى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيراً ، على غير شعور منه فى بعض الأحيان •

لم يعجبه الشيخ فى الوهلة الأولى • والحق أن فى وجه الشيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضاً • هو رجل قصير القامة محدوب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاماً فحسب ، غير أنه يبدو أظمن في السن بسبب مرضه الذي يُظهره أكبر من عمره بـ عشر سنين في أقل تقدير • وإن وجهه النحيل الضامر المعروق مخدّد كله بنضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة • وليست عيناه بالكبيرتين ، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كبير من الحركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين • ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين • أما لحيته الدقيقة فهي صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفته اللتان كبيراً ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقّ من سيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير •••

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيه يدل على ان له طبيعة كالحية شرسة ، وعلى أن فيه زهواً سخيفاً وكبرياءً مسكينة » • وأحسن ميوسوف باستياء من نفسه •

ودقت الساعة تقطع الصمت • ان ساعة صغيرة بخضة الثمن كانت معلقةً بالحائط ومزوّجة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتي عشرة دقة متتابعة سرية ، مؤذناً بحلول الظاهر • فصاح فيدور بالفوفتش يقول :

— هو الموعد المحدد ولما يصل ابني دمترى فيدوروفتش • أرجو أن تعذرني أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش ألبوشا حين سمع قول أبيه هذا • أيها الراهب المقدس جدا •) • لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعدٍ في يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأنني أتذكر أن دقة المواعيد هي أدب الملوك •

— ولكنك لست ملكاً فيما أعلم •••

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه • فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :
- صحيح • لست ملكا • ثق يا ألكسندر بتروفتش أتى أعلم حق العلم أنتى لست ملكا ، لا يراودنك فى هذا شك ! ولكن هذا شأنى دائما : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له •

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجئ غريب :
- يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرج عريق • كذلك أقدم اليك نفسى • هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فأنى لا أقبل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجمهم • أليس من واجب الانسان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ... منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية • قررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء • استقبلنا الايسبرافنك • انه رجل ضخم طويل أشقر متجهج المظهر • ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات • ان أكبادهم مريضة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مباشرة ان صح التعبير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاً تازلت ياسيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلا : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » • فصرعان ما أدركت أن كل شيء قد ضاع • صمت الرجل قاصى النظرة كالح الهيمة صعب المراس • حاولت أن أعتر • قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أُنشج المرح في الجو . وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندما ، ونحن ان كنا في حاجة الى شيء فالى نوع من رئيس أوركسترا يحقق لمشروعنا الانساق والانسجام ظننت أنني قدمت له بهذا الكلام تفسيراً معقولاً قائماً على تشبيه سليم ، أليس هذا صحيحاً ؟ ، فأجابني قائلاً : « عفواً ، أنا ايسبرافنك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف قال ذلك وأدار لى ظهره وانصرف . ركضت وراءه صائحا : « أنت الایسبرافنك ! أنت ايسبرافنك لا نابرافنك . . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول لقد سميتى نابرافنك ، فحسبنا هذا ! ، . هكنا غرقت صفقتنا فى الماء فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتي فى أن أكون لطيفاً تسمى الى دائماً فى هذه الحياة . من ذلك أتى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حساسة اذا دغدغت ، ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية . ولكن الرجل أسرع يسألنى فجأة : « أنت دغدغتها اذن ؟ ، ولم أملك أن أقاوم رغبتي فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله دغدغتها قليلا ، وهكذا ، فليترك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحى الآن أن أرويها . فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

- وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة .

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر .

- صحيح يا بطرس الكسندروفتش ولكننى أعرف ذلك ،

وفد تبنأت به منذ فتحت فمى • وكنت أعلم أنك ستكون أول من يلاحظ هذا • وفى مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المرحلة لم تتجبع ، يتصلب خدائى فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابى ، الى الأيام التى كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقى بتلك المهنة ! أنا مهرّج يا صاحب السعادة ، أنا مهرّج حقيقى ، مهرّج مفلور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب السعادة اننى انسان بسيط أبله ! ••• قد تكون الروح التى تحركنى غير ظاهرة ، أنا لا أجد ذلك ، ولكنها روح صغيرة • فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاختارت لها مسكناً أفضل • على أنها ما كانت لتشارك أمت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورنى الشك الا فى الآونة الأخيرة ، وهأنذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررنى من اسارى • أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو • لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوماً الى البطريك افلاطون فى عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول فى برود : « الله غير موجود » • فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغة السلافونية : « الطائش يقول فى سرّه : الله غير موجود » ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتسى فجأة على قدمى الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمّدونى ! » • وسرعان ما تم تعميده على النور ، فالأميرة داخلوكفا* أمسكتة على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرّابه •••

فأطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

— فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطلق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ،
وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا
التمثيل ؟

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة :

— كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة
لا أصل لها . والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرانك أيها
الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن تعميم ديدرو انما
اخترعتها في هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد
خطرت ببالي مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة في مزيد
من الملاحاة . . . انتى أمثل هذا التمثيل ليرضى عنى بطرس السكندروفتش
مزيداً من الرضى . ثم انتى لا أدري أنا نفسى في بعض الأحيان لماذا
أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذلك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر
بآله » ، فذلك نقطة سمعت السادة القرويين في هذه المقاطعة يروونها منذ
أكثر من عشرين عاماً ، وذلك في شبابي أيام كنت أعيش عندهم ؛ حتى
أن عمك نفسك يا بطرس الكسندروفتش ، عمك المحترمة مافرا
فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويها من أمور .
وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب
الى البطريرك أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله .

نهض ميوسوف نافد الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على
نفسه . لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً .
ان ما يجرى في هذه الحجرة لهو في الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن
جرى مثله من قبل . فمئذ ثلاثين عاماً أو أربعين توافد على هذا المكان ،
حتى في عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن
أولئك الزائرين جميعاً بغير استثناء كانوا يجيئون ممثلين بروح الاحترام

والخضوع والتقديس • ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها اترعى على الأرض راکماً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة • وان أكثر الزائرين ، حتى أعلامهم مقاماً ، وأغزهم علماً - وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب النقد وكثرة المشاكسة والمييل الى الالحاد - أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم فى هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلَّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطالب بأى مال ، وأن كل شئ فيه يتم محبةً واحساناً من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظلم الى الحقيقة والرغبة القوية فى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب • كذلك كانت تجزى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأةً فى تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث فى نفوس من يرون هذا المشهد أو فى نفوس بعضهم على الأقل استغراباً شديداً ودهشة أليمة • فلما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردَّ الفعل عند الشيخ باتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً • وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاره حتى لا يبكى • ان ما يدعشه خاصة هو أن أخاه ايفسان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذى كان يمكن أن يتدخل فى الأمر ، قد لبث ساكناً على كرسيه ، غاضباً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكرات أو اهتمام ، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها • وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يسهده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يعجز حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر مايدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدبر على كل حال •) •

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

- سامخنى ••• لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحظيرة . ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسنا لاتقا أمام شخص محترم مثلك ••• فلو كنت تنبأت بأننى سيكون على أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن •••

لم يكمل بطرس الكسندروفتش جملته ، وكان قد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من النرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه • قال له وهو ينهض على ساقيه النحيلتين ويمسك بطرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

- لا تخش شيئا ، أرجوك ••• هدىء روعك ، أرجوك ••• ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة •

وبعد أن حيا مرة أخرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة •

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

- تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه ، هل يسىء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعي المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض وائماً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

- أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج • لا تكره نفسك على شيء ، وتصرف كما لو كنت في منزلك ••• واياك أن تشعر بالخزي من نفسك خاصة ، فان شعورك بالخزي من نفسك هو بعينه أصل البلاء •

- أنصرف كما لو كنت في منزلي ؟ أتريد أن تقول ان على أن أطلق نفسي على سجيته وأن أظهر على طبعتي ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل انه لجميل مسرف في الجمال ، ولكنني أوافق ••• انتي أقبل ما تقترحه على شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوى • اسمع أيها الأب المبجل! لا تدفعني الى حالة الطبيعة ، لا تجازف فتفعل هذا ••• على انتي لن أمضي بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية والظهور على حالة الطبيعة • وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً • أما فيما عدا ذلك فان كل شيء ما يزال غارقا في ظلمات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم في وصف طبيعة نفسي • ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بطرس الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذي هو ضياء كله ، فانتى أضع عند قدميك اعجابي مندفعاً بغير حدود •

ثم نهض ورفع يديه الى السماء وقال :

- « بورك البطن الذي حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك* ، نعم الثديان ••• انك حين نصحتني منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزي من نفسي ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتي وقرأت في أعماق قلبي • ذلك بعينه هو ما أحسه • انتى أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأننى أخبت من غيرى ، وأن الآخرين جميعا يعدوننى

مهرجاً ، فأخاطبهم عندئذ بينى وبين نفسى قائلا : ••• لكن ••• سأمثل دور
المهرج طائفا مختارا ، ولست أخشى رأيكم ، لأنتى أعرف أنكم جميعاً
شر منى وأجدر بالاحترار والازدراء ! ، ذلك هو السبب أيها الشيخ
العظيم فى أنتى أهرج ••• أنتى أهرج لشعورى بالخزى ، لشعورى
بمذلة عميقة ! أنتى لانعدام ثقى بنفسى اضطرب فأمثل دور المجنون !
آه ••• ليتى ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقا من أن
كل واحد سيمدنى على الفور خير انسان وأذكى انسان فى العالم ، اذن
لأصبت عندئذ رجلا من أنبل الرجال •••

قال ذلك ثم ارتدى راکما على حين فجأة يقول :

— ماذا يجب على أن أعمل ، يا معلم ، حتى أغفر بالحياة الأبدية ؟
انه ليصعب على المرء أن يقول فى تلك اللحظة هل كان الرجل
ما يزال يمثل ويهرج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ •••
نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

— تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذى يجب عليك أن
تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك • امتنع عن الاسراف فى الشراب ،
لا تستسلم للفجور ، وتخلّ خاصةً عن عبادة المال • أغلق دكاكين بيع
الخمرة ، أغلق دكاكين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تفلقها كلها •
وقيل هذا وذاك ، لا تكذب ••• فذلك أهم شىء •••

— أملك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

— لا ••• ليس الأمر أمر ديدرو ••• فانما الشىء الأساسى أن
لا تكذب على نفسك • ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلى عليه
أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزا عن رؤية الحقيقة فى أى

موضع ، فلا يعود يراها لا في نفسه ولا فيما حوله .
 لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غيره .
 لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن ينفذ الأمور .
 أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء ويندفع وراء الملذات الخسيسة هذه
 فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية
 وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على
 نفسه . ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه .
 ألا يشعر المرء بكثير من اللذة في بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟
 وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اختراع
 الاهانة بنفسه اختراعاً في سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالع
 وغالى تزيناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على
 غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً ... هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع
 الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذاً تلذذاً يبلغ حد الفرح ، فاذا هو
 يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقي ... ولكن انهض
 عن الأرض ، أرجوك ... اجلس في مكانك ، أرجوك ، تلك كلها
 أوضاع كذب أيضاً ...

— أيها الانسان المقدس ، اسمع لي أن أقبل يدك العزيزة
 اللطيفة ! ...

لقد نهض فيدور بافلوفتش بوثة ، واقرب من الشيخ بحرارة
 وقوة ، وطبع قبله رنانة على يده الضاوية المعروقة .

— تماماً ، تماماً ، هذه هي الحقيقة . ان في اهانة المرء نفسه لذة .
 لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا
 الكلام . لقد ظللت طوال حياتي أهين نفسي ، تشدناً للذة ، بل وطلباً
 للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا • ذلك ما نسبت أن تصفيه الى كلامك أيها الشيخ العظيم !
 سوف أدون هذا في دفترى الصغير • لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن
 الكذب طوال حياتي ، في كل يوم ، وفي كل ساعة • أنا في الواقع كذب
 يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لست للكذب أباه ••• لعل هذا التعبير
 بقايا جملة قرأتها فبقيت في ذاكرتي فاستيقظت الآن •• والأولى أن أقول
 انتي ابن الكذب لا أبوه ••• يكفيني كبراً أن أكون ابن الكذب •••
 ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التي قلتها حين تكلمت
 عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه
 لا تسيء الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارة •••
 بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ••• لقد أوشكت أن أنسى ••• انتي أنتظر
 منذ ثلاث سنين أن تتاح لي فرصة القاء سؤال عليك • كنت أريد أن أتعلم
 منك ، كنت أريد أن أجيء الى هنا لهذا الأمر خاصة ، كنت أريد أن
 أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً • ولكن أصدر أمرك أولاً
 الى بطرس السكندروفتش بأن لا يقاطعني • اليك ما كنت اريد أن
 أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين
 يروى في موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد في
 سبيل إيمانه ، أى قطعوا رأسه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأسه من
 الأرض ، ويعاقله في حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ،
 حانيا عليه ملاطفاً له * • قولوا لي أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟
 قال الشيخ :

- بل هو غير صحيح •

وقال الراهب قيّم المكتبة :

- لم يرد ذكر هذه القصة في أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذى تقصده ؟

- أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور •
لا شك فى اتى خُذت وضللت • لقد سمعت أحداً يروى هذه
القصة • وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بطرس
السكندروفتش هذا الذى ناز على منذ هنية بصدد ديدرو ! هو الذى
روى لى هذه القصة ، نعم هو •••

- هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اتى لا أكلمك
أبدأ ، ولا أتحدث اليك يوماً !

- اعترف بأنك لم تروها لى أنا • ولكنك رويتها فى اجتماع كنت
أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر
الواضح فلأنك قد زعزت ايماني فى ذلك المساء ، بتلك القصة
المضحكة ••• نعم يا بطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان
لك أن تتنبأ به ، ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن
يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من
الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى
سقوطى الأخلاقى ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو •••

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ،
ولكن كان واضحاً لنا جميعاً فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرج • ومع
ذلك شعر ميوسوف بأنه أودى ايذاءً شديداً أليماً • فقدم يقول :

- يا للسخف ! انك لا تقول الا حماقات ! من الجائز حقاً أن أكون
قد رويت هذه القصة مرة ••• ولكننى لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد
سمعت أنا هذه القصة ••• حدث ذلك فى باريس • أكد لى فرمى أن
هذه القصة الواردة فى كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً ... أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسى ... ولست أتوى أن أقرأه على كل حال ... ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء ...

— أثناء عشاء ... ها ... ها ... يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى ! ...

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً :

فانفجر ميوسوف يضحك :

— ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما تاب الى هدوئه فقال بلمهجة احتقار :

— انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطباً جميع الحضور :

— معذرةً أيها السادة ، اننى مضطر أن أترككم لحظات . هناك

زوار ينتظروننى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

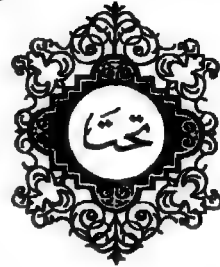
— أما أنت فاترك الكذب ! .. صدقتى ...

وخرج . واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعده على هبوط السلم . كان اليوشا قد نفذ صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحباً دون غضب . وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ،

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة • قال بصوت مختلج :

— أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العزيزة اللطيفة مرة أخرى • ذلك أن المرء يستطيع أن يفاهم معك دون أن يفقد حبه للحياة وإقباله عليها وميله اليها • لا تظنّ أننى أكنب هكذا طول الوقت وأننى لست الا مهرجاً • الحق أننى فعلت هذا عامداً من البداية الى النهاية ، فعلته عامداً لأختبرك وأمتحك ! لقد أردت أن أتأكد من أنك رجل انساني ، ومن أن شخصي الهين يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبريائك • فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك • والآن لن أتكلم قط ، لن أقول كلمة واحدة • سأجلس على هذا المقعد ، فألبث ساكناً حتى النهاية • الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسى •• مدة عشر دقائق •

إيمان نساء الشعب



قرب الرواق الخشبي المتاخم للحاجز
الخارجي من السور ، كان يزدحم جمهوز
ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددن نحو
من عشرين فلاحه . لقد آبلغن أن الشيخ
سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف
أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكاة
من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهي
امرأة غنية جداً أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهي لطيفة
باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على
سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها ،
وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهي في الرابعة
عشرة من العمر ، فهي مصابة بشلل في الساقين . لقد أصبحت الصبية
المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر ، فهي الآن تخرج على كرسى
متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواء المرض قليلاً ، لكنه على
جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئاً من المكر يترامى في عينيها
الصغيرتين القامتين اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى

منذ الربع أن تمضي بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان في مدينتنا الا منذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال في الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذي أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته . لقد توسلتا بكثير من الالاحاح أن يُمنَّ عليهما « بأن تسعدا برؤية هذا الشافي العظيم مرة أخرى » . و بانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمى الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة . لقد ترك ديرهُ الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا . ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضاً أن يحظى بمباركة الشيخ . ولكن الشيخ الذي ظهر على الرواق في تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقة الشعب . تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التي لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقل الرواق الذي لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض . توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات ، وتلفع بجيبته وأخذ يبارك النساء اللواتي يزدرجن أمامه . قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهيبة تدل على هذيان ، وهي ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعاني آلام ولادة . وضع الشيخ جيبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ . لا أدري ماذا يحدث الآن ، ولكنني في أثناء طفولتي قد أتيت لي مرارا أن أرى وأن اسمع هاته النسوة المرضيات في قرانا وفي أديرتنا . كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نايجات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة • فما ان يُقرَّب من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين • لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية • وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً • ولكنني حين سألت عن سرّ هذا الأمر قال لي بعض الملائكين ، وقال لي معلوم مدرستي خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة • حتى لقد رُويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير • ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة مني ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشاراً واسعاً في روسيا خاصة ، وأن مردّه الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة • فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطيبة بهن • تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مردها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى مايلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها • فأما ذلك الشفاء العجيب الذي تُنقذ به نساء مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس - وهو شفاء يدعى بمضهم تمليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرج به « رجال الدين » اخراجاً مسرحياً - فالحق أنه يرجع هو أيضاً الى أسباب طبيعية • ثم ان النساء اللواتي يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايماناً عميقاً



كليكوشا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كايماهنن بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخيثة التى حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فاذا هى تبارجهن متى دنون منه وانحين له . لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى فى جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبى نفسى مما منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذى لا بد منه فى نظرهن ، ولانتظار البرء الذى لا محيص عنه حتماً ، وهو نتيجة طبيعية لايمانهن بالمعجزة ايماناً ليس له حدود . فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير . وهذا بعينه هو ما وقع فى الحالة الراحنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه .

كان بين الجمهور الذى ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يكنين حائناً وخشوعاً وحماسة . واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل . وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب . باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن . وكان يعرف الكليكوشتا التى قدمت اليه . انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؟ وما هذه أول مرة يؤتى بها اليه على كل حال .

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن فى السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوَّحاً ولكنه مسود اسودادا غريباً (كانت راكعة على ركبتها تحديق الى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة ، وفى وجهها شيء من الوجد والنشوة) :

— هذه آتية من مكان أبعد .

فقلت المرأة بصوت كأنه الفناء وهى ترجيع رأسها ترجيحاً متواتراً موقفاً ، وقد أسندته الى راحة احدى يديها :

— نعم يا أبى ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ .

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى التريل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألماً أحرس مدعناً ، هو الم ينطوى على ذاته ويعتصم بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجراً ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالتريل . وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين . ان التريل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيى جروح القلب بلا انقطاع ، وينكؤها بغير توقف . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تقتضى من الشعور بسمة أبعادها ، فالتريل انما يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

— لعلك من سكان المدن ؟

— أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعم ... وان أكن قروية الأصل . نحن من سكان المدن لأننا نعيش في المدن . ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب ، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابني ، ابني الصغير ... فخرجت أضرب في الأرض حاجّة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقبل لي هنالك : « اذهبي اليه أيتها المسكينة نانا سيوشكا* » اذهبي لرؤيته هو ... يقصدون أنت ... اذهبي لرؤيته ... رؤية الأب العزيز جدا ... ، هكذا جئت اليك . أمس اعترفت وتناوت ، وهأنذا الآن أمامك .

— لماذا تبكين ؟

— أبكى صغيري أيها الأب الطيب . كان عمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر* . انني أبكى ابني ، أبكى صغيري . ذلك ما يعذبني . كان آخر أبنائي . كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا* أربعة أبناء . ان

الأطفال لا يقفون عندنا • انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا •
 دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم • أما ذاك ، الأخير ، فاني
 لا أستطيع أن أنساه • يخيل الىّ انني أراه ، هنا ، أمامي ، أراه طول
 الوقت • جفّت نفسي ، يس قلبي • أنظر الى ملبسه ، الى قميصه
 الصغير ، الى حذاءيه ، فأخذ أنشج وأتجحب • أعرض أشياء أمامي
 لأناملها ••• أستعرض جميع بقاياها التي تذكرني فأبكي • قلت لعزيزتي
 نيكيتوشكا ، زوجي : « دغنى أمضى ••• أريد أن أضرب في الأرض
 حاجةً » • زوجي حوذى • ولسنا فقراء أيها الأب الطيب • عندنا مال •
 لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد • نملك خيولا وعربة تنفق
 عليها من مالنا • فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزي نيكيتوشكا
 الى طريق الضلال حين تركته • أخذ يشرب • أنا أعلم ذلك • وما هذه
 أول مرة • كان يضعف كلما خولت عيني عنه • ولكنني الآن لا أحفل
 بذلك • استوت عنبدى جميع الأمور • أصبحت لا أفكر فيه • تركت
 المنزل منذ ثلاثة أشهر • نسيت كل شيء • أصبحت لا أريد أن
 أتذكره • وما عساني أقبل معه ؟ لقد أنهيت صلتى به ، أنهيت صلتى
 بجميع الناس • لا أريد أن أرى منزلى بعد الآن يوما ، لا منزلى ولا
 رزقي ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطه :

— اسمعى أيتها الأم الطيبة ! فى يوم من الأيام رأى قدیس كبير
 من قدیسی الماضی ، رأى فى الهيكل أما تبكى ابنها الذى فقدته مثلما تبكين
 ابنك الآن ••• كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه
 الرب اليه • قال لها القدیس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين
 من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس
 فى ملكوت السماء كله أحد أجراً من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجراءة ؛ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك . . . وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي . ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة . فاعلمني هذا أنت أيضا أيها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح . . . وصلى للرب من أجله . كفك بكاءً . . . ابتهجي وافرحي ! . . .

كانت المرأة تصغي الى الشيخ مسندة رأسها الى احدى يديها ، غاضةً بصرها . وتنهدت تنهداً عميقا .

— بمثل هذه الأقوال انما كان يعزى زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابنا هو الآن قرب الرب مع الملائكة . . . كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكى هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكى مثلما أبكى . . . قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا . . . أعلم أن ابنا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتنى أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر . . . وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقرب منه ، سأحتبي في ركن ، وسأصمت ! آه . . . أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتنى أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » ليتنى أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض :
 تلك .. تلك ... ولقد كان يجيء الى - اتنى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا
 جدا - يجيء الى راكضا صاخحا ضاحكا .. آه .. ليتنى أسمع وقع
 خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ، ولكن لا ...
 يا أيها الأب الطيب ... لن أسمعه بعد اليوم قط ... انظر ... هذا
 حزامه الصغير ... أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من
 الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ..
 قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبّها الحزام الصغير المزخرف ،
 حزام ابنها الغائب ، فما ان رآته حتى هزّها التشيع ، فسارعت تخفى
 عينيها يديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على
 فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

- هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صفارها ولا يعزيها عن
 فقدم شيء * . ذلك هو حظك فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تعزى
 يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت فى حاجة اليه . لا تعزى ... بل
 ابكى ما استطعت الى البكاء سيلا . ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى
 فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وأنه يراك من
 علباء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويفتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه
 الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكين هذه الدموع ، دموع الأم
 المفجوعة بابنها . ولكن بكائك سيستحيل أخيرا الى فرح هادى ، وستصير
 دموع المرارة التى تحسبها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة
 ساجية ، وتطهر روحى . سوف تخلصين من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى
 من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

- الكسى ، أيها الأب الطيب .



امراة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكونا

- اسم جميل • مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله •

- نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

- ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى * • وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء • ذلك أن هجرتك أياه خطيئة ، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعنتى به • ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما • فهل تريدان أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت • ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تراه • فكيف يمكن أن يجىء اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتعزيدين ، فعودى الى منزلك يرسل اليك أحلاماً تهديء روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

- سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأبسط نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لأية •••

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلاً ••• ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوبا عاديا من ثياب المدينة • كان فى وسع المرء أن يرى فى عينها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر • قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش • انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد • وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسييريا • كتب

اليها رسالتين في البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة . أرادت أن تسأل عنه وأن تقصى أخباره ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه ... قالت :

— ان ستيانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى : « هلمنى فخذنى منذ اليوم شيئاً من المسال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليك . . . » ذلك ما قالته لى تلك المرأة . وقد أكدت ستيانيدا ايلينشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائماً . . . غير أن فى نفسى شكوكا ... فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهل يجب على أن أتبع نصيحتها ؟

— دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالاً كهذا السؤال؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلّى على روح ابنك وهو ما يزال حياً ؟ أنفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هذه الخطيئة ستُغفر لك بسبب جهلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك ، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآتمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأؤله لك أيضا يا بروخورفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريباً ، أو سيكتب اليك حتماً . كونى على ثقة . وانصرفى الآن بسلام . ان ابنك حى . صدقنى .

— جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعاً ، وتستغفر عن خطايانا .

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحه شديدة التحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة . كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيها

تسألان شيئاً من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألهما الشيخ :

— وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقال بصوت بطيء خافت :

— أتعذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض •

— لقد أئمت يا أبتاه ، وأنا خائفة من الثمن •

فعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزها نوع من التشنج :

— ترمكت منذ ثلاث سنين • كنت شقية مع زوجي • كان هراماً وكان يضربني كثيراً • ففى ذات يوم ، بينما كان مريضاً متمدداً على سريرى ، نظرت إليه وقلت بينى وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي اذا شفى من مرضه ونهض من جديد ؟ » • فى تلك اللحظة انما برقت فى ذهنى تلك الفكرة الخبيثة •

— انتظرى لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفيتها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرأة أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارتها •
سألهما الشيخ :

— أهذا منذ ثلاث سنين ؟

- نعم منذ ثلاث سنين • لم أكن أفكر فى الأمر من قبل • أما الآن فقد صرت مريضة • ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسى •
- أأنت آتية من مكان بعيد ؟
- من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا •
- هل ذكرت هذا فى الاعتراف للكاهن ؟
- نعم •• ذكرته مرتين •
- هل قبلوا أن تتاولى القربان المقدس ؟
- قبلوا • ولكننى خائفة ، خائفة من الموت •

- لا تخشى شيئاً ! هدى روعك ! اطمئنى بالآ ! لا تدعى للخوف أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك • اجعلى الندامة مستقرة فى قلبك قوية عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء • ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن تدم عليها صادقاً • ثم ان الانسان لا يمكن أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يعترف آثاماً كبيرة الى حيث تستغف رحمة الرب التى لا حدود لها • أفنظنين أن فى هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى بنفسك كلها ، واطردى من قلبك كل خوف • تقى أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصورى ، وأنه يحبك حتى فى خطيئتك ، ورغم هذه الخطيئة • ان الآثم الذى يندم ويتوب قد أعدت له فى الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأنبوا فما ندموا * • كذلك قيل من زمان بعيد • امضى • لا تخشى شيئاً • ولا تحملى للبشر حقداً • انسى الاساءات • اغفرى فى قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه فى قرارة نفسك • أنت تحيين ما دمت تشعرين بالندامة • وما دمت تحيين فأنت لله ••• ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء . لئن كنت ، أنا الخاطئ ، أشاركك
ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن
يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل
عن خطايا الآخرين أيضا . انصرفي الآن بسلام ، وكوني بعد اليوم بلا
خوف .

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول
صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة . حيثه
الفلاحة صامتة وانضت حتى الأرض . ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت
نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بذراعيها
رضيعاً .

— أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب .

— من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملة هذا الصبي
على ذراعيك ؟ فيم ترغين ؟

— أردت أن أراك فقط . لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تتذكر ؟
ان كنت قد نسيته فليست ذاكرتك اذن بالقوية . لقد قالوا عندما املك
مريض ، فأردت أن أراك بعيني . واني لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أملك
مريض . دعك من هذا ! لتعيشن عشرين سنة أخرى ان شاء الله .
ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن
تمرض ؟

— أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبي !

— لي عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً . اليك خمسين كوبكاً فأهداها
يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر مني . لقد قلت لنفسى وأنا في طريقي

الى هنا : « سادفَع هذا المال اليه هو ، فانه أدري مني بمن يستحق أن
يوهب له » • • •

– شكرآ ، شكرآ أيها القلب الطيب • هذا يسرني • سوف أفعل
ما تطلين • هل طفلك هذا بنت ؟

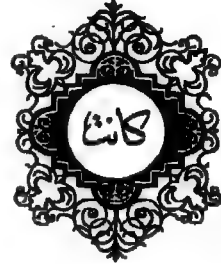
– بنت أيها المبارك ! اسمها الزايبث •

– بارك الله فيكما كليكما ابنت وابنتك الزايبث • لقد أفرحت قلبي
أيها الأم الطيبة • الى اللقاء يا أصدقائي ، الى اللقاء يا أعزائي ، يا أولادي
الطيبين •

بارك الشيخ الحجاج وحيّاهم جميعا تحية عميقة •

٤

السيدة الضعيف (إيمانها)



السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها
برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة وباركها ؛
وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير • انها
امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة
الطيبة كثيراً • فلما اقترب الشيخ منها أخيراً ، تلقته بكثير من العاطفة
المتدفقة قائلة :

— ما كان أعمق انفعالي ، وأشد اضطرابي حين رأيت هذا المشهد
المؤثر ...

وقطع الاحتياج كلامها فلم تتابعه • ثم استأنفت تقول بعد لحظة :
— اتنى أفهم أن يحبك الشعب • وأنا أيضاً أحب الشعب ، أنا أريد
أن أحبه • وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لا يحب
المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

— كيف حال ابتك ؟ كنت تريدین حديثاً آخر معى ؟
— أوه ... لقد ألححت فى طلب هذه المنة • توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجد على ركبتي ثلاثة أيام بليلها تحت نوافذك في سبيل أن تستقبلني • لقد جئناك ، أيها الشافي العظيم المقدس ، لنجبر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتي ليزا من مرضها ، شفيتها شفاه تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضي ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقييلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثيرنا ، وأن نعرب عن تبحيلنا وتقديسنا •

- شفيتها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها ممتدة فى مقعدها •••
- ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالاً تاماً ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماماً (كذلك أسرع تضيف السيدة قولها هذا بشئ من العصبية) • وأكثر من ذلك أن ساقها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماماً ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وما هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة • أصرت اليوم اصراراً مطلقاً على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتنى على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوماً قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيينا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهزّ كفيه وقال : « اننى لا أفهم شيئاً ! هذا أمر خارق » • فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيتك ونحن نحترق شوقاً الى أن نطير اليك ، وأن نصيح تمييزاً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا ليزا • عبّرى له عن عميق امتنانك •••

اكتسى وجه ليزا الجميل الضاحك هيئة الجسد ، ونهضت على كرسىها ما استطاعت النهوض ، وتظرت الى الشيخ ضامةً يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة • قالت وهى تشير الى أليوشا خجلة غاضبة كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

— هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد فى تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة • وومضت شعلة فى عينيه اللتين سارع يفضهما •

تدخلت الأم قائلة :

— عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسى فيدوروفتش •

وأضافت الفتاة تقول وهى تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أبيض :

— كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة متنبهة • ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها يده وهو يتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والخرج • وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجسد والوقار والرصانة • وقالت له وهى تناوله رسالة صغيرة :

— كلفتنى كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة • انها ترجوك كثيراً أن تجيء اليها ، أن تجيء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير إبطاء • انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنها •

— تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ••• لماذا ؟

كذلك دعدم يقول أليوشا وقد ظهرت فى وجهه دهشة واضحة • وسرعان ما اكتست سمته تعبيراً عن همٍ أظلمت له عيناه •

قالت الأم تشرح :

- أوه ... الأمر أمر دمترى فيدوروفتش طبعاً ... وأمر هذه الأحداث كلها أيضاً ... لقد اتخذت كاترين إيفانوفنا قراراً في هذا الشأن . ولكنها تريد أن تراك أولاً ... لماذا ؟ لا أدري ... ولكنها تصر اصراراً شديداً على أن تراك بأقصى سرعة . ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتماً ! ... العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك .

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :
- ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !
قالت الأم :

- ولكنها امسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ... تذكر ما عاتته وما تزال تعانيه ... وفكرت أيضاً فيما ينتظرها ... أليس هذا رهيباً ، أليس رهيباً ؟
قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى إيضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :
- طيب ... سأذهب ...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

- أوه ! ... ما أجمل هذ منك وما أنبله ... تباً لى ... لقد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ... سوف يرفض قطعاً ... لأنه اعتكف فى الدير » . انك طيب جداً ، نبيل جداً . لقد قدّرت دائماً أن لك نفساً رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم .
تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

— ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت مخاطب أليوشا :

— لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الى مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد ، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينة ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحا أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه أت من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا بسان سلفستر ، دير لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعا أن يزوره فى حجراته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومئ الى ليزا باشارة رصينة ذات أبهة :

— ما تلك القوة التى تتيج لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

— لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاما وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان نعمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا عن النعمة الالهية . لا شئ يتم الا بإرادة الله .

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

- تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلى • اننى مريض ،
واننى أحسن أن أياى معدودات •

صاحت أم ليزا تقول :

- لا •• لا ••• ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ،
طويلاً جداً • ما عسى يكون مرضك ؟ ان فى وجهك كثيراً من الحياة
والفرح والسعادة •

- صحيح أتتى أشعر أن حالتى اليوم أحسن كثيراً مما كانت ،
ولكننى أعلم أن هذا لن يدوم • أنا أعرف الآن مرضى معرفة كاملة •
قولين اننى أبدؤ فرحاً • فاعلمى أنه لا شئ يمكن أن يفرحنى كما
يفرحنى أن أسمع منك هذه الملاحظة • لأن الانسان انما خلق للسعادة ،
والذى يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : • لقد حققت ارادة الله
فى هذا العالم • • ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع
الشهداء كانوا سعداء فى جميع ظروف الحياة •

هفت الأم تقول :

- ما أجمل هذا الكلام الذى تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعانى
التي تبهر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضى الى القلب رأساً •
ولكن أين هى السعادة ؟ من ذا الذى يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من
تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاًّ تحمّلت أن أنضى
اليك اليوم بما سكت عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث
عنه فى المرة الأولى ! دعنى أكلمك فيما يمتدنى كثيراً منذ زمان طويل ،
منذ سنين • اننى أتألم • اننى شقية ! آه ••• معذرة •

قالت السيدة ذلك وهى تضم يديها أمامه فى سورة مفاجئة من
الانفعال •

- ما الأمر ؟

- اننى أتألم ... من فقدى الايمان ؟

- أأنت لا تؤمنين بالله ؟

- ليس هذا ... اننى لا أجرو حتى أن أفكر فى هذا • وانما أنا
أشك فى الحياة الأبدية • ذلك لفر لم أستطع أن أستبينه ! وما من أحد
ما من أحد يستطيع أن يهب لى جواباً عن هذه المسألة ، ما من أحد
يستطيع أن يقدم لى حلاً لهذه المشكلة • اصغ الى : أنت انسان تشفى
المرضى وتعرف أغوار النفوس • لست أطمع طبعاً فى أن أفوز بثقتك ،
لست أطمع فى أن تصدقنى تصديقاً كاملاً ، ولكننى أؤكد لك ، أقسم
لك بأعظم ما فى هذه الحياة ، اننى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة •
صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمنى الى حد العذاب ، الى حد
الرعب ، الى حد اليأس • لا أدري الى من يجب أن أتجه ... لقد ظلمت
مترددة فى هذا الأمر طول حياتى • ولكننى أجازف الآن فأكشف لك
عن دخيلة نفسى • يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ ما عساك ترى
فى من رأى ؟ (قالت ذلك وهى تعقف يديها) •

أجابها الشيخ قائلاً :

- لا تهمنى برأى • أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق •

- أشكر لك ذلك أعظم الشكر • اننى أغمض عيني وأفكر • أقول
لنفسى : « ان جميع البشر يؤمنون ، فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضهم
الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان فى الماضى

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود فى الواقع ؟ ، ثم أقول
لنفسى عندئذ : « واذن فانتى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى
منى بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى ، كما قرأت
هكذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب !
فكيف ، كيف أرتد الى الايمان ؟ على انتى لم أؤمن الا فى طفولتى ،
وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط . . . فكيف ، كيف السبيل
الى البرهان على الحقيقة ؟ ، . . . لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضع أن
تنيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصة اليوم ، فلن يستطيع أحد
أن يجيئنى فى يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ انتى أريد أن أقتنع .
ما أشقائى ! انتى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع
الناس ، أو جميع الناس تقريباً ، لا يحفلون به ولا يكثرثون له ، واننى
الوحيدة التى لا تطبق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

– هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان .
ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .
– كيف ؟ بأية طريقة ؟

– بمعاناة الحب الفعال . حاولى أن تحبى أقرانك حباً فعالاً غير
منقطع . فكلما ازدادت حباً ازدادت اقتناعاً بوجود الله ، وازدادت اقتناعاً
بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخرين نسياناً
تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك
حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة . . .

– أقول : الحب الفعال ؟ هذه مشكلة أيضاً ، ويا لها من مشكلة !
انظر يا أبتاه : انتى أبلغ من حبى الانسانية أنه يتفق لى فى بعض
اللمحظات – صدقنى – أن يخطر ببالى أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبسة ! اننى أغمض عيني ،
وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تقالَب •
ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى • أنا أشعر بأننى
مستعدة لأن أضمدّها ، لأن أغسلها بيدي ، وأتمنى لو أصبح حارسة
للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم •

- انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور
بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة • بدأت أعتقد أنك سستهيّن فى
يوم من الأيام الى أن تقومى بعمل جليل فعلاً •

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسة :
- نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك
هو السؤال الأساسى ، ذلك هو ، بين جميع الأسئلة ، السؤال الذى
يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة • اننى أغمض عيني وأسأل نفسى : «أتراك
تستمرين طويلاً فى هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذى ستغسلين
قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبّر لك عن شكره فوراً ، وانما هو
يرهقك بنزواته ، دون أن يقدّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية
المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو نار عليك ، وأغلق
لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيان
أولئك الذين يمانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تستمرين فى حبك أم لا
تستمرين ؟ » • ولقد أجبت نفسى عن هذا السؤال ، هل تصور ؟ أجبت
نفسى عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شيء يمكن أن يطفىء جذوة
حبى » الفعّال ، فوراً ، فذلك الشيء انما هو نكران الجميل • ، • معنى
هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأننى أطالب بأن
يُجزى حبى على الفور مديحاً وحباً • وما لم أتل هذا الجزاء ، لا أستطيع
أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها في سورة صدق جامع ، حتى اذا فرغت من كلامها حدثت الى الشيخ وقد بدا في وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً •

قال الشيخ :

— ذلك بعينه ما حدثني به طيب منذ زمان طويل • كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء • وكان يتكلم بصدق وإخلاص كما تتكلمين، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً في مزاجه • قال : « اننى أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً فى نفسى يدهشنى : كلما ازداد حبى للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبى للبشر أفراداً ، أى أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطيب يسرُّ الى بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لى كثيراً أثناء اندفاعى فى الأحلام أن تستبد بى حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة فى خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أُصلب فى سبيلها اذا بدا هذا ضرورياً فى لحظة من اللحظات • ومع ذلك لو أريد لى أن أعيش يومين متتاليين فى غرفة واحدة مع أى انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك • اننى أعرف هذا بتجربة • فمتى وجدت نفسى على صلة وثيقة با انسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتى وتجور على حريتى • اننى قادر فى مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مسرف فى البطء فى تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مصاب بركام فهو لا يتفك يمحط • اننى أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم • • • وأضاف الطيب يقول مؤكسداً : « ولكننى لاحظت فى كل مرة اننى كلما ازدادت كرها للبشر أفراداً ، ازدادت حرارة حبى للانسانية جملةً • • • »

— فما العمل فى هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس

تماماً ؟

- كلا . . . انه ليكفى أن تشعرى من ذلك بأنك نعيصة شقية . افعل
ما تستطيعين أن تفعل ، وسيسحب لك هذا . ولقد فعلت منذ الآن كثيراً
ما دمت قد استطعت أن تقرئى في قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق
كله . وإذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى في هذه اللحظة ،
الا لتسمعى منى ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلت ذلك ، فانك لن تصلى
طبعاً الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك في أحلام لا أكثر .
ولكن من المؤكد أنك ستسعين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل
وستتهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .
- لقد دمرتني ! الآن أدركت ، في هذه اللحظة وحدها ، حين
سمعت كلامك ، أنتى كنت لا أتوق في الواقع الا الى سماع ثنائك على
صدقي في الاعتراف لك بجزئى عن احتمال نكران الجميل . لقد نفذت
الى دخليتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتى على أن أفهم نفسى
بنفسى .

- أصبح هذا الذين تقولين ؟ أنتى بعد اعترافك هذا قد اقنعت
بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلباً طيباً . فإذا لم تبلغى السعادة ،
فلا تنسى أنك سائرة في الطريق السليمة ، فلا تجيدى عنها . واهربى من
الكذب قبل كل شيء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب
الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب في نفسك كل ساعة ،
وكل لحظة . وتجنبى الاشتزاز أيضاً ، تجنبى الاشتزاز من الناس ومن
نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه
ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل
حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحة الحب ما قد
تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفالك السيئة نفسها
أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أنتى لا أملك أن أقول لك شيئاً فيه

مزید من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب اذا قيس بالأحلام التي يحلمها المرء عنه • ان من يحلم بالحب يشعر بظماً الى عمل مباشر بطولى يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضياً شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً ، وانما يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن • ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضى جهداً ويتطلب صبراً ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله • وتقى مع ذلك أنك حتى فى اللحظة التي ستلاحظين فيها مذكورة أن جميع جهودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربي منه ، تقى أنك فى تلك اللحظة نفسها تكوينين فى الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب فى نفسك من فعل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدَّ أزرَكَ وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره • معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقي معك زمناً أطول ، فان هناك أناساً ينتظروننى • الى اللقاء •

كانت المرأة تبكى • ثم هتفت تقول كأنما هى ثابت الى نفسها على حين فجأة :

— ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها • باركها !
فقال الشيخ مازحاً :

— هى لا تستحق حتى أن تحب • لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا • لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟
كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر • لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها، فكان هذا يسليها كثيراً • فهى اليوم ترقب نظراته وترصدها بالحاج •
واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبته نظرها عليه ، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطراب وينضب . وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ . ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فأجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في فمها بلفت من الاندفاع المبالغ أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

— لماذا تحاولين أن تضايقيه أيها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عينها ، واكتسى وجهها هيئة الجذ الشديد ، وأجابت بفتة بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

— ولماذا تركني هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملني بذراعيه ، وكان يجيء في الماضي البنا ليعلمني القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّد لي ، حين ودعنا ، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأنا سنظل صديقين دائماً الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفاً مني كأنني سأكله ! لماذا لا يقترب مني ؟ لماذا لا يكلمني ؟ لماذا لا يجيء إلينا ؟ أأنت الذي تمنعه ؟ نحن تعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية . وليس على أنا أن أنادي به ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر . ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟

... انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض ...

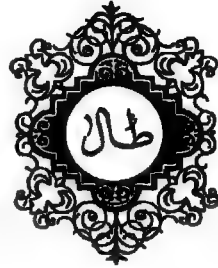
قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فإذا هي تعطى وجهها يديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكة ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العvisية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاحبة كثيراً • أصغى الشيخ إليها مبتسماً ، ثم باركها فى حنان • فتناولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكى قائلة :

— لا تغضب منى • ما أنا الا حمقاء لا أساوى شيئاً ••• ولا نك فى أن ألبوسا على حق ••• انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله •••

قال الشيخ بلعجة جازمة :

— سأرمله اليكم حتماً •

لكن مشيئة الرب



غياب الشيخ قسراة خمس وعشرين دقيقة • كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولما يصل بعد دمتري فيدوروفتش الذى عقد هذا الاجتماع من أجله • وكان يبدو أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا • ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين • أما ميوسوف فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية ، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه • لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فى ميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة . فلم يستطع أن يطبق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان • كان يحدنه نفسه قائلا : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أنني فى مستوى كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا » • وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظا مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسما ابتسامة

هزه وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حق وغبط • انه يفكر فى أن يثار لنفسه منذ مدة طويلة ، ولا يريد أن يفوت فرصة جميلة كهذه الفرصة • واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يطره بسخرياته من جديد ، متكلم بصوت خافت :

– لماذا لم تصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صجة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة وإهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثار فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللامع • وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بذكائك •

– استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فوراً •

– دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تصرف الا آخر المنصرفين ! ...

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة •

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة • ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فوراً أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتغلب على تعب • ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيوبات من شدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيوبة هذه عامة ، ها هى ذى تنشى وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضان • وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع • لا بد أن هناك سبباً يدعو

الى ذلك • ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ باتتياه شديد •

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

ـ كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التى نشرها هذا الشاب • لقد أورد آراء أصيلة فى عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين • الموضوع هو موضوع القضاء الاكليركى ومدى الصلاحيات التى يجب أن يُعطاه • كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً فى هذه المسألة* ، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها فى جريدة ...

أجاب الشيخ وهو يلقي على ايفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

ـ يؤسفنى أننى لم أقرأ مقالتك ، ولكننى سمعت عنها •

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول :

ـ ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقاً ، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الاكليركى ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة • قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

ـ هذه فى الحق فكرة شائقة ، ولكن بأى معنى تفهمها ، وما الذى تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع فى جوابه ذلك التعالى الذى يشتمل على احترام مذهب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة مبيتة أو حكم سابق • قال :

- ان فكرتى هى أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كعارض الكنيسة والدولة ، سيقبل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يودى الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطين بل ولا الى مصالحة بسيطة مهما يكن حفظها من الاتساق والانسجام يسيرا • والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه • وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمر "مستحيل ولا يمكن تخيله إطلاقاً ان رجل الاكليروس الذى اتقنت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود • فأجبت بأتىء من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بماوى بسيط تعصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى • وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن ننظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل •

قال الأب بائسى الراهب الكائن ، العلامة الشديدي الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصية :

- هذا صحيح تماماً •

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقاً على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

- ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلاً :

- دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متوجهاً الى الشيخ :

— ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه — ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس — وهي آراء يعدها خصمه « جوهرية وأسامية » : الرأي الأول أو الموضوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف في الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها » ، الموضوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائي والمدني يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة ، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضاً مع صفتها كنظيم انساني ووجد لتحقيق أهداف دينية » الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » .

فقال الأب بائسي يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحاً :
— ذلك لعب بالألفاظ لا يليق في رأيي بعضو من أعضاء الاكليروس .

— لقد قرأت الكتاب الذي رددت عليه ، وقد أدهشني أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هذا العالم فمن البديهي أنه لن يمكن عندئذ أن يتحقق في هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد في الأناجيل ، القائل بأن ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم ، ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقم الكنيسة على الأرض . صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه في السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التي أقيمت في الأرض . لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمراً لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله في هذا المجال . ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة • وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوة على كل حال ...
قال الأب بائسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً •

وكان ايفان فيدوروفتش يصغى الى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهمجة رصينة باشة طيبة :

— ان الفكرة الأساسية التى تجمل مفالتى كلها هى أن المسيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسةً فحسب ، وكانت لا تطمع فى أن تصبح أكثر من ذلك • ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحي • ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال • فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها • وكان طبعياً أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبدأ من مبادئها ، ولا أن تترك أى جزء من الصخرة التى بُنيت عليها • كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعاً لذلك • ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معين فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم اسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقسوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذى اتقده) ، بل العكس هو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هى التى يجب عليها أن تستحيل فى خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة ، متازلة من أهدافها الخاصة عن تلك التى لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهذا التحول لن ينفصاً من قيمة هذه الدولة ولن يتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها من حيث هى دول كبرى ، لا ولن يسيء الى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعى نتيجة للوظائف التى يقومون بها ، وكل ما هنالك أنه سيخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذى ساروا فيه ، وسيضعهم فى اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى تحقيق غاياتهم الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكبرى فى داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولما يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التى عرضها والتى عدد لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنيهة هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويمارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تمس . ذلك كل ما قلته فى مقالتي التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائسى يتخل مرة أخرى مشدداً على كل كلمة من كلماته :

- الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيراً فى قرنتا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلة من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تنوب فى الدولة ، بعد أن أخلت



ایمان کارامازوف
بريشة الغنائة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هي رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرِضَ عليها عندئذ مكانٌ محدود تلوذ به وتأوى اليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم في أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهي ترى أن الكنيسة ليس عليها هي أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هي التي يجب عليها أن تحاول أن تصبح أخيرا الى كنيسة وأن لا تكون شيئا غير ذلك . هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن في اتجاه معاكس :

– أعترف لك بأنك قد رددت الى شجاعتي : اذا صح فهمي فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه في زمان مقبل مايزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جدا ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل ان هذا يذكر بالاشتراكية بعض الشيء . لقد كنت أخشى في البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمع للكنيسة ، منذ الآن ، في أن تمارس السلطة فتقضى في الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاما بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايغان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

– حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هي السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم في العالم ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعدام أو بالأشغال الشاقة . ان صفة الجريمة وطريقة معالجتها تبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئا فشيئا ، على التسريخ . ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية . . .

قال ميوسوف وهو يحدّق اليه بنظرة نافذة :

— أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايغان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

— يوم تحوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحرم الخطاة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا • قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب ، بل بالمسيح أيضا • وستجعله جريمته عندئذ عدواً للإنسانية وعدواً للكنيسة المسيح • وان الأمر لكذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور ، ولكننا لا نعترف بهذا صراحة • ان السوء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحح أننى سرقت ، ولكننى لم أناصب الكنيسة العدا • • • انتى لست عدو المسيح • • » • هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا • أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على السوء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعا على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى — أنا القاتل أو السارق — أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق • • » • وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضايف ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر • وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى بتر العضو المريض ، كما يفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديداً وبشء بقاءً جديداً وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة •

قاطعه ميوسوف سائلاً :

— الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك • انك تعود الى الأحلام • هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم، بل لا سبيل الى فهمه • عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أَسْأَلُ أَلست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفسان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأةً للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة، قال :

— ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن • ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة • فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه •

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

— كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

— انظر • ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسدى ، ان ذلك كله لم يُصلح أحداً ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم • فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد • لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة • يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة • فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخران • فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انساناً جديداً ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضاً الى قانون المسيح على نحو ما رسمخ فى قرارة ضميرنا • ان اعتراف المجرم بذنبه كائناً من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كائناً من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة • فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذب • فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن يتبى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج فى الحياة الاجتماعية • ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهملها العقاب الفعلى الذى يتم ازاله فى المذنبين • انها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحذب عليهم حذب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس • انها تتجدهم وتقيهم، وتعاملهم معاملة تساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة • وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هى أيضاً ، فحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحذاراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحذار الذى يمكن أن يهوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمانهم ! ومن ذا الذى يضمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رعوف ، وهى تعزف عن معاقبتهم فى الواقع ، لأنها ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هى ، قد نالهم عدالة الدولة بعقاب قاس ، فهم فى حاجة الى أحد تأخذهم بهم شفقة على الأقل . وهى تمتنع عن معاقبتهم خاصة لأن عدالة الكنيسة هى العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة ، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون مغنيا وعمليا مع أى قضاء أجنبي ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أى تنازل فى هذه النقطة . ان المجرمين لا يشعرون فى البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التى ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هى أعمال تمرد على القوى التى تضطهدهم ظلما وعدونا ، فالمجتمع ينذهم من حصنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقوته العليا ، وهو يشفع هذا الابداد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله فى أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجرى اذن دون أى عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها فى عدد من تلك البلاد التى لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبان دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقى فقد سارت منذ زمن طويل فى طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهى مرحلة الجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التى يزعم أنها عليا وهى مرحلة الدولة ، بنية أن تفرق فيها غرقا كاملا . تلك هى على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكية الرومانية فانها منذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو فى الكنيسة ، فهو حين ينزله المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكره يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة . وفى وسعكم أن تتخللوا بسهولة الى أين يودى هذا . قد يترامى ان الامور تجرى على هذا النحو غالباً فى بلادنا أيضاً . ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعد ابناً عزيزاً ما يزال جديراً بالحب . هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً . وانه لصحيح كل الصحة أيضاً ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاحاً لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصاً كبيراً . ان الكنيسة نفسها - وهذا أمر مؤكد - ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سرتكب ذنباً فى المستقبل ، وأن تعرف الجريمة التى تنهى ، أكثر كثيراً مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدى الضالين ، وأن تبقي فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تنهض أولئك الذين سقطوا .

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهياً ، وأنه غير باقى الا بفضل الصالحين السبعة ؟ ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعا أى تنظيمًا انسانيًا يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع •
 هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو في آخر الزمان ،
 لأنه قد أريد وحْدَدَ منذ الأزل • وما ينبغي أن يقلقنا طول الانتظار
 وبطء الزمن ، ما دام مفتاح المصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب
 تعاقبها بحكمته وطيبته وسابق علمه • ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا
 جدا في تقدير البشر قد يكون في بعض الأحيان على وشك أن يتحقق
 بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها •
 لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب •

قال الأب بائيسى مؤيدا في رصانة ووقار :

— فلتكن مشيئة الرب •

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

— هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلا بحذر :

— ما هو الشيء الذي تراه في هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغثة :

— شيء عجيب كل العجب ! شيء لم أسمع به من قبل ! يزيلون

الدول القائمة ليشيدوا في مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد

ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف في الأخذ بعقائد ما وراء الجبال !

ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القليل !*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

— الأمر قبيح ما ترى تماما • نحن لا نعتقد أن الكنيسة هي التي

يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه • ان ذلك الحلم هو

حلم روما حقا ، وهو ثلاثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك تقيض ما تراه روما ، تقيض عقيدة ما وراء الجبال ، تقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارنؤذكسية • أن نجمة هذا الايمان المظفر مستطلع فى سماء الشرق •

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا • ان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته • وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع • وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب • لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه • ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شىء باتباه ، ويسمع كل شىء باصغاء ، رغم أنه غاضب بصره • ومع ذلك فإن أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبث فيه هذا الاضطراب •

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاضم :
- اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة • حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بعيدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية • فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره • لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية - ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها • انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع • واذ

لم يكن عند رب الدار عندئذ بصفته زائراً بل بصفته مرعوساً يقدم تقريراً ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بى ، قد شرفنى بأن أفضى الى بعض الأمور ويأخذ لى بعض الأسرار . طبعاً لم يفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاحظة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاحظة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكننى استطعت أن أرى ما فى نفسه واضحاً كل الوضوح . لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين ، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانباً وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جداً أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسر لى : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدون الثوريين . نحن نراقبهم من كتب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجالاً من طراز خاص ، وإن لم يكن عددهم كبيراً جداً : أولئك هم المؤمنون ، المسيحيون ، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الدينى . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى شئ آخر . هؤلاء أناس خطرون جداً . إن رجلاً يجمع بين الاشتراكية والمسيحية مما لهو أخطر بكثير من اشتراكى ملحد . » . لقد فجأتى هذه الفكرة كثيراً فى تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدري لماذا ...

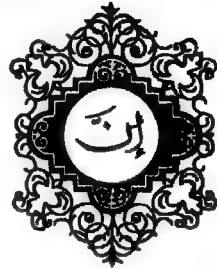
سأله الأب بائسى فجأة بغير لف أو دوران :

— هل تريد أن تقول إن هذه الفكرة تصدق علينا وإنا فى نظرك

اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بطرس الكسندروفتش الى جواب يقوله ، فتح الباب وظهر دمترى فيدروفتش بعد تأخر طويل جداً . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجئ هذا قد أحدث فيهم شيئاً من دهشة .

لاؤا ربح أوف عيسى مثل هذا الرجل



دمترى فيسدوروفتش ، وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه ، يبدو في الواقع أكبر من سنه . انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائي أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان في قسمات وجهه شيئاً مرضياً . هو نجيل الحيا خاسف الخدين ، في لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة . وان في عينيه القامتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضاً مبهما ، رغم أن نظرتيه تبدو حازمة وثيقة . وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً فان نظرتيه تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هي تفصح في كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة في بعض الأحوال . « ان من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور في فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين . وكان الناس اذ يلاحظون نظرتيه القائمة الواجمة يدهشهم في أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها في نفس اللحظة التي تتجهم فيها عيناه . على أن ما يظهر في سحته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التي يعيشها

بمديتنا فى الآونة الأخيرة • لاهياً قاصفاً مستهتراً ، ، أو هم قد سمعوا
عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضاً درجة الاحتياج المرضى الذى وصل
اليه فى خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؛ حتى أن الناس فى
مديتنا قد تافلوا عن ذلك قصصاً وحكايات • والحق أنه بطبيعته غضوب ،
وأنه • مندفع مشوش ، ، كما وصفه بذلك صادقاً كلّ الصدفى قاضى
الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات • ولقد كان فى ذلك
اليوم يرتدى صدره ذات أزرار أنيقة أنيقة لا مأخذ عليها ، ويلبس
قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية • وكما يفعل كل عسكرى
محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ،
ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين • وهو يمشى مشية حربية
حازمة واسعة الخطى •

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور ،
اتجه نحو الشيخ قدماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيّاه منحنياً له
اتخامة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمتري
فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديداً بصوت
يدل على الحق والامتناء ، قال يشرح :

— أرجو أن تفضلوا فتغفروا أتنى جعلتكم تنتظرون هذه المدة
الطويلة كلها • ان الخادم سمردياكوف الذى أرسله «باتيوشكا» * قد
أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُددت
له الساعة الواحدة بعد الظهر • وهأنذا أعلم الآن أن ...

قاطعته الشيخ قائلاً :

— اطمئن • ليس الأمر بذى بال • لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس
لهذا التأخر من خطورة ...

- أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا السامع لما
أعرفه عنكم من طيبة ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيّاً مرة أخرى ، ثم التفت نحو
أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان في تحيته للشيخ من
انحناء شديد واحترام عظيم • واضح أنه كان قد هيا هذه التحية سلفاً ،
وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه
أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نيّاته • وقد بوغت فيدور
بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً
فبرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيراً رصيناً
مفرطاً في التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشرّاً • وبعد أن حيا دمترى
فيدوروفتش سائر الحضور في الحجرة بانحناء واجدة صامته ، اتجه
نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائس ،
على المقعد الوحيد الذي كان لا يزال خالياً • ومال ب صدره الى أمام ،
منهياً لتابعة المناقشة التي قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين ، وكان
لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً ولكن ميوسوف لم يرَ في هذه
المرّة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذي طرحه الأب بائس
والذي يكاد يكون مزعجاً •

قال بشيء من الاهمال الذي يُعرف به أبناء المجتمع الراقي :

- اسمح لي أن لا أتمرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جدا
من جهة أخرى • وأنا أُلح أن ايقان فيدوروفتش يتسم وهو ينظر اليّ اناء
فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة في هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه
ان شئت •

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلاً :

- ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظة ثانية • ان اللبراليين في أوروبا ، كساتر هواء اللبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمى اليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمى اليها المسيحية • وهذه النتيجة الغربية العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير • ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به اللبراليون وهواة اللبرالية ، وانما هو يحدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة ، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية • وان حكايته الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش •

فكرر بطرس الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

- أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخرى شائعة جدا ومميّزة جداً ؛ والحكاية في هذه المرة تتصل بإيفان فيدوروفتش • لقد كان ايفان فيدوروفتش منذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصة من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحة أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ، فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون • حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هذا الاعتقاد بالخلود فسرعان ما ستغيب جميع ينباع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

حياتهم في هذا العالم . أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يصد
منافياً للأخلاق ، وسيكون كل شيء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر .
بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقي للطبيعة
يتغير وجهه فوراً في نظر كل فرد - في نظرنا نحن مثلاً - متى كان هذا
الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقي للطبيعة يأمر عندئذ بنقيض
ما سلم به الدين من قبل وما جاء في تعاليم الدين من قبل ، فإذا بالإنانية
التي تمضي الى حد الجريمة لا تصبح مباحةً للإنسان فحسب ، بل
تصبح كذلك مشروعة وضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول ، بل
والمخرج الوحيد النيل . ففي وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه
المفارقة على الآراء الأخرى التي يراها عزيزنا الخيال الكبير والسفسطائي
الظيم إيفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التي سبق أن أعلنها وآراؤه التي
لعله ما يزال ينوي أن يعلنها .

هتف دمترى فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا في حسابان
أحد البتة :

- اسمح لي ! هل ما سمعته منك هو « أن الجريمة يجب أن لا تعد
مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعد كذلك ، في نظر كل ملحد ، هي
المخرج المعقول الذكي من وضعه ؟ » .

قال الأب بائس :

- تماماً .

فقال دمترى فيدوروفتش :

- أنتي أسجل هذا .

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما
تكلم فجأة . فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول .

واتجه الشيخ فى تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :
- هل يمكن أن يكون فى تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود
الروح ستكون له هذه النتائج ؟
فأجابه ايفان فيدوروفتش :

- نعم ، ذلك هو رأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا فضيلة بلا
خلود .

- ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا
واما شقى جدا .

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

- ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

- لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح
ولا بشيء مما كتبه عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية .

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغريب وقد احمر
وجهه على حين فجأة :

- قد تكون على حق ... ولكننى لم أعبت الا نصف عبث ، لم
أمزح الا نصف مزاح !

- أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح . فان هذه المسألة لما تُحلَّ
فى قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك . ان الذين يعانون هذا
العذاب يحبون أحياناً أن يعذبوا بعذابهم ، وتلك طريقة فى التعبير عن
كربهم ويأسهم . وهذا ما تفعله أنت . فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات في الجرائد ، أو بالاندفاع في مناقشات في الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجذلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل في سرّك مثلاً ... ان هذه المسألة لم تحسم في نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضي الحل حتماً ...

فقال ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحته تغيراً غريباً وحدّق الى الشيخ مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها :

– وهل من سبيل لي الى حلّها ؟ هل يمكنني أن أحلها ايجاباً ؟

– اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون في قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر لله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعاني ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة في الأعلى ، لأن وطننا في السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد في قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقت بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو في مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفان نهض فجأة فاقرب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس في مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهه في تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد ورسامة . ان هذه البادرة التي قام بها وان تلك الكلمات التي تبادلها مع الشيخ والتي كانت لا تتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث في جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هذا الجو الأخاذ اذ رفع كفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيراً الى ايفان فيدوروفتش :

- أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابني ، هذا فلذة كبدي ، هذا ولدي الحبيب ! انه أعلى أبنائي قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هو من نوع كارل مور قليلاً ان شئت ... أما الذي وصل الآن ، أما دمتری فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم احتراماً ، انه صنو فراتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتي أشبه نفسي في هذه القصة بجراف فون مور * . فانظر في الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن في حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضاً .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

- لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تنهن أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء .

هتف دمتری فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار ، هتف يقول :

- هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمتری بافلوفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى انني أجهل اللقب الذي يجب أن أناديك به . لقد خدعوك وغرروا بك ، فكنت ضحية طيبة نفسك وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبي لا يسعى الا الى الفضيحة والجرسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

فى كل عمل يقوم به حساباً يجرىه • وأظن مع ذلك اتى أحزر ما يضر
من نيات خفية فى هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

- انهم جميعا يتهمونى • هم جميعا يناصبونى العدا • وبطرس
الكسندروفتش يتهمنى أيضا •••

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف • مع أن ميوسوف لم يخطر
بباله أن يقاطعه • وتابع كلامه يقول مخاطباً ميوسوف :

- نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتى • هم يأخذون علىّ
أننى سلبت أولادى ثروتهم • واغتيت على حسابهم • أليس هناك اذن
محاكم ؟ اننى ألقى عليكم هذا السؤال • هلا اتجهت الى المحاكم يادمتري
فيدوروفتش فتقول لك عندئذ • بالاستناد الى الايصالات التى وقعتها •
والرسائل التى أرسلتها • والاتفاقات التى أبرمتها • ما هو مقدار ميراثك •
وما هو المبلغ الذى بددته • وكم بقى لك ؟ لماذا يرفض بطرس
الكسندروفتش أن يقضى فى خلافنا هذا ؟ ليس دمتري فيدوروفتش
شخصاً أجنبياً عنه • فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً
يناصبونى العدا • مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مديناً لى بعال فى
آخر الحساب ! هو المدين لى • وليس دينى عليه مبلغاً زهيداً بل هو
ألوف الروبلات • أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق فى يدي ! ان حياة
القصف واللمو والتبذير التى يعيشها ترجع أصداء اشاعتها فى مدينتنا
كلها • وهو منذ كان فى الجيش قد تمود أن يرمى ألف روبل أو ألفين
فى سبيل أن يقضى على عفاف البنات الشريفات ! هه ••• اتى أعرف
هذا يا دمتري فيدوروفتش ••• اتنى أعرف أدق التفاصيل الخفية •
وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ••• فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أقصد دمترى فيدوروفتش أخلاق أبلي فتاة من القنيات ، فتاة تنتمي الى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شعجاع منح لزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أقصد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هي ذى الآن تقيم فى مدينتنا كيتيمة مع أنها خطيئة ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » ، يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدني مع رجل محترم جدا ، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها - كزوجة شرعية تماما - لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة يمينا انها لفاضلة ! هي الفضيلة بعينها أيها الآباء المبجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب ، وذلك هو السبب فى هجومه على الآن ، لأنه يأمل أن يسلبنى مالا . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات ، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالا بعد مال . انه يستدين ، وهلل تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدور :

- صه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أبلي فتاة ! ان تعجروك وحده على الاماع اليها اهانة لشرفها . . . لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقا .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأئين وهو يحاول أن يمنع انسكاب

دموعه :

- ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى يحدث لو لمتك ؟



ديمتري كاراموزوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزأر دمترى فيدوروفتش يقول وقد جُن جنونه غيظاً :

— ممثل هزلى وقع !

فقال فيدور بافلوفتش :

— انظروا كيف يعامل أباه ! انظروا كيف يعامل أباه ! وهو فى
معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً • اسمعوا هذا أيها السادة : فى
مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو رائد (كابتن) محال على التقاعد •
لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير أن
كل شىء قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه
سليماً لم يمسسه أذى ولم ينله سوء • وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة •
فهل تعلمون ما صنع به دمترى فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه
من لحيته فى إحدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً
لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس !
كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل سرّاً ببعض الأمور فى قضية
صغيرة ! •••

قال دمترى فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش خفقاً :

— هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر ككذب فى
الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى
تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر مقتدر ، واننى نادم على
ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزي والعار من ذلك الغضب
المسمور الذى استبد بى • ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذى تقول
انك عهدت اليه ببعض الأعمال، انما ذهب الى تلك التى وصفناها منذ هنيهة
بأنها ساحرة ، فكلّمها باسمك ، وعرض عليها أن تشتري السندات التى
وقمتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودع السجن

متى أصبحت أزعجك بمطالبى فيما يتعلق بتصفية حساباتنا • فكيف
تجرو أن تأخذ على اليوم أننى أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها
أنت نفسك أن تجذبني إليها ! ثم انها لا تجد أى حرج فى أن تقص
هذا على جميع الناس ، ولقد روته لى أنا أيضا ، ساخرة منك متهمكة
عليك ! ولئن كنت تريد أن تدخلنى السجن فليس لهذا الا سبب
واحد على كل حال ، هو أنك تغار منى ، لأنك حاولت أن تزج هذه
المرأة بجبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هى التى روته لى ضاحكة عليك ،
هل تسمع ؟ ضاحكة عليك ، مستهزئة بك ! تلکم هى ، أيها الباركون ،
حقيقة هذا الرجل ، تلکم هى حقيقة هذا الأب الذى يظهر امتناعه من
سوء سلوك ابنه ! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد ، اغفروا لى
ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست سلفاً ، وا أسفاه ، أن هذا المعجوز
الواقع انا جمعكم كلکم هنا من أجل أن يحدث وقعة وأن يثير مشاجرة
أما أنا فلقد جئت على نية الصفع والغفرة اذا مدّ الى يده ، وعلى نية
نسيان الاساءة التى ألحقها بى ، والشر الذى نالنى به ، وعلى نية طلب
الصفع والغفرة كذلك • أما وأنه أهاننى الآن ثم لم يكف بذلك بل
تجراً على أن يهين أبلى فتاة - وهى فتاة أمتحانى أن أذكر اسمها فى غير
طائل ، لأننى أحترمها احتراماً دينياً - فقد قررت أن أفصح لعبته الخفية
على رموس الأشهد ، رغم انه أبى •••

لم يستطع دمتري فيدرووفتش أن يتابع كلامه • كانت عيناه
تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً • وكان جميع الحضور من جهة
أخرى مضطربين أشد الاضطراب • وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين ،
ولكنهما ينتظران قرار الشيخ • ولم يكن الشيخ قد تحرك • كان وجهه
مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض •
ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه • وهو من حين الى حين يهم أن

يرفع يده ليهدي روع هؤلاء المسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته . ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحدثين بانتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافياً عنه مستمعيًا على فهمه . وأخيراً شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه أذلّ اذلالاً عميقاً ، وأنه جُلِّل بالخزى والعار . قال بحرارة :

— انا جميعاً تحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشيء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أنني كنت أعرف مَنْ هذا الرجل . . . يجب أن ينتهى هذا الأمر فوراً . . . أيها الأب المبجل ، تق أننى لم أكن على علمٍ دقيقٍ بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن . لقد كنت أرفض أن أصدقها ، وانما عرفتُها فى هذه اللحظة لأول مرة . . . أبّ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن . . . هؤلاء هم الناس الذين اضطرت أن أجيء معهم اليك . لقد غرَّر بي ، فأريد أن أصرِّح علانية أنني قد غرَّر بي وخذعت كما خُذع غيرى . . .

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :
— دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فوراً . . . بالسدس . . . على مسافة ثلاث خطوات . . . والأعين معصوبة . . .
ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

— نعم ، والأعين معصوبة ! . . .

ان الكذابين الرقيقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثلون يبلنسون أحياناً من عمق تشبعهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالا

ويكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ، ورغم هذه الدقة « المقدسة » من الحماسة والاندفاع . . .

قطب دمتري فيدوروفتش حاجبيه ، وأظلم وجهه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف . ثم قال بصوت رقيق مكظوم :
- ما كان أغباني حين اعتقدت ، حين أملت وأنا أعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيتى ، أنتى سأستطيع أن أجمّل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، وممثلاً دينياً خسيساً !

زأر العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

- الى المباراة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلها لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف - نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ - من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تحرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمتري فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيتك فى سبيل هذه « المخلوقة » ، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها . تلکم هى المرأة التى سميتوها « مخلوقة » !

صاح الأب جوزيف يقول فجأة :

- هذا خذى وعار !

وابرى الفتى كالجائوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف استياءً وامتناعاً واستككاراً :

— يا للفضاعة ! يا للشناعة !

• وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا •

وزأر دمترى فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحذب الظهر ، زأر يقول في نوع من التخفف :

— لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاًّ قُلتُم لى ، هلا قُلتُم لى هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحد ، مومتاً الى أبيه بيده • وكان يتكلم ببطء مقطّعاً الفاظه •

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

— هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو جوابه على قولك « هذا خزى وعار ! » • هلاًّ قُلت لى أين الخزى والعار ؟ ان هذه « المخلوقة » ، ان هذه « المرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدم منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون فى الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت فى شبابها ضحية بيّتها ، ولكنها « أحببت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التى أحببت • • • *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

— المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

— بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان • • • نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه • تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرب الحامز ، وتظنون أنفسكم
بررة تقاة صالحين • تقتنون بالأسماك ، تقتنون بسمكة صغيرة في اليوم ،
وتتخيلون أنكم تخدمون الله بأسماككم هذه التي تأكلونها ! ...

— هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا
لا يغتفر بحال من الأحوال •

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات •

غير أن هذا المشهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على
نحو لم يكن في الحسبان : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كان
يفقد صوابه من شدة خوفه على الشيخ وعلى أهله ، هرع يستنه من
ذراعه • اتجه الشيخ نحو دمتری فيدوروفتش ، فلما وصل إليه هوى
يركع على ركبتيه • اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً
ووهناً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك • فحين صار الشيخ راكماً على
ركبتيه ، انحنى يحيى دمتری فيدوروفتش عامداً ، وبلغ من شدة انحنائه
أن جبينه كان يلامس الأرض • دُهِش أليوشا دهشة عظيمة نسي معها
أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض • وهذه بسمكة صغيرة
لا تكاد تُدرك ، تحرك شفتي الشيخ • قال وهو ينحنى لجميع ضيوفه
في كل جهة من الجهات :

— معذرة ، معذرة ...

لبث دمتری فيدوروفتش جامداً من الذهول بضع لحظات : لقد
ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

— يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة •

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف • واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته •

- لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة) •

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غصبي :

- لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً • لست أعبأ بحركاتهم ، ولكنني في مقابل ذلك سأعفى نفسي بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد • أين ذلك الراهب الصغير الذي استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصغير » ، وهو الذي كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذي تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت •

قال له بطرس الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

- أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الرهبان احترامي العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرني ، أنا ميوسوف ، عن اضطراري الى التخلف حتماً ، بسبب ظروف طارئة لم تكن في الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية في تلبية هذه الدعوة الكريمة •

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلاً :

- آ ... هذا أنا . الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد سئم صحبتي ولولا ذلك للبي الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة يا بطرس الكسندروفتش ، ستشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاماً هنيئاً ! أنا الذي سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! هياً اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلي ، وأكل في داري ، لأنني لن أستطيع أن أبلغ شيئاً هنا ، هل فهمت يا بطرس الكسندروفتش ، يا قريبي العزيز جدا ؟

- أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك في يوم من الأيام أيها الانسان الدنيء !

- لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القراية وتكرها . ولكنك قريبي مع ذلك ، وفي وسعي أن أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقويم القديسين . أما أنت يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربدة لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فابق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعذر اليه عن الفضيحة التي شاركنا فيها جميعاً ...

- أصبح أنك منصرف ؟ أنت لا تكذب ؟

- كيف أجرو أن أحضر المأدبة بعد الذي حدث يا بطرس الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعاً طائشاً أيها السادة ، لقد نسيت نفسي ، فاغفروا لي ذلك . هذا الى أنني مضطرب ، وأنتي أشعر بالخزي أيضاً . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير ،

وان لبعضهم الآخر شجاعة كشجاعة الكلب الصغير « أمين » ، وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجزؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألقى مرق الدير ؟ اتنى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أنه يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثل تمثيلاً ، بهذا حدثت ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرج الذى أخذ يتبعه ، بنظرة فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بأفولفتش الى وراء ، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

– آئت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

– ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوة خاصة ...

– المصيبة اتنى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لتعذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعاتها . ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلاً :

– صحيح . يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

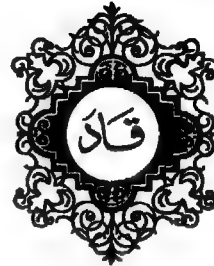
– أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

مضى المدعوّن الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً • واقتصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة
أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف
ساعة • ولكن أحدا لم يجه •

ألقي ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه :
« انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير
كارامازوفى ! » •

طالب اللاهوت



ألبوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير •
 هي حجرة صغيرة جدا لا تضم من الأثاث الا
 ما لا غنى عنه • السرير صغير من حديد ، عليه
 قطعة من لباد تقوم مقام فراش • وفي ركن من
 الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل • تهالك
 الشيخ على السرير منهوك القوى • كانت عيناه تلتصمان وكان تنفسه
 ثقيلاً • فلما جلس ، ألقى على ألبوشا نظرة طويلة متبهة ، كأنه يفكر
 فى أمره ، ثم قال له :

— اذهب يا عزيزى ، اذهب • يكفى بروفير لمساعدتى • أسرع •
 هم فى حاجة اليك هناك • اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك
 الغداء لتخدم على المائدة •

فقال ألبوشا بصوت متوسل ضارع :

— اسمح لى أن أبقى قريبك !

— أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام • سوف تخدمهم ، وقد
 يكون فى حضورك خير لهم • اذا استيقظت الشياطين فأتل دعاءً • واعلم

أيضا يا بنى العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعاني اليه ، اترك هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما !

ارتشس أليوشا • فقال له الشيخ :

- فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • اتنى أبارك بدايتك العظيمة في هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها. وأن تعانيها في الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تتزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكنى لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه في نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة في العذاب • اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحث عن الفرح في التجربة • اعمل ، اعمل بغير هواة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك اتنى أعلم ، ولو أتيت لي أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة •

عبر وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفاً شفتيه يرتشان •

سأله الشيخ وهو يتشم ابتسامة عذبة رفيقة :

- ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فانتنا ننتبط مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نتهج معه ونصلى له • دعنى الآن • يجب على أن أصلى • هياً أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قريبهما كليهما •

ورفع الشيخ يده ليباركه • كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته في البقاء معه قوية • وكان يحترق توقفاً الى سؤاله عما تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمترى ساجداً • وكان هذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجزؤ أن ينطق به • انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدر أن ذلك في الامكان • أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل • غير أن تلك التحية قد أحدثت في نفس أليوشا تأثيراً قوياً جداً : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرىاً • ان هذه الحركة التي قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول • ولما خرج من نطاق الصومعة حائلاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعاً) ، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوى في نفسه كلمات الشيخ التي يعلن فيها أن نهايته قد قربت • ان ما يتبأ به الشيخ يمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع • هذه في نظر أليوشا حقيقة مقدسة • فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيملك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل يمثل الذي يشعر به الآن من حزن • أغدأ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التي تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بمعجزه عن احتمال خواطره التي كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التي تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتي تنتصب قائمة على جهتي الممر في الغابة • ليست المسافة بعيدة ؟ هي خمسمائة خطوة في أكثر تقدير ؟ وفي مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً • ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة • كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر •

سأله ألبوشا حين أدركه :

- أنتظرني أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

- حزرتَ • أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلمُ ذلك • ان
عنده وليمة غداء • هل تعرف أنه منذ اليوم الذى استقبل فيه الأسقف
الذى كان يصحبه الجنرال باختوف - هل تذكر هذا ؟ - لم يعدّ مائدة
تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من غناية ! لن أحضر أنا الغداء • اذهب اليه
وحدك • قدّم المرق للضيوف • هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك
يا ألبوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك
هذا السؤال •

- أى رمز تعنى ؟

- تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش • لقد بلغ
من السجود له أن جبينه صدم الأرض •

- هل تقصد الأب زوسيبا ؟

- طبعا أقصد الأب زوسيبا •

- صدم جبينه الأرض ؟

- أياكون فى هذا التعبير اخلال بواجب الاحترام ؟ طيب ...
لنفرض أتى أخللت بواجب الاحترام • ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

- أجهل معناه يا ميثا •

- كنت أعلم أنه لن يشرحه لك • وليس فى الأمر شئ من سر
طبعا • هى تلك الحركات الثقية الجوفاء نفسها تكرر • ولكن الشيخ

لم يمثل هذه يمثل هذه التمثيلية بغير نية بيتها • ان جميع الثرائين والاقليم سيتحدثون الآن فى هذا الأمر وسيستأملون : • ما دلالة هذا الرمز على المستقبل ؟ بأى شىء يؤذن هذا الرمز ؟ • فى رأى أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأى ولا يعوزه نفاذ البصرة • لقد أحسن أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح فى منزلكم تنذر بشر مستطير •

— أية جريمة تقصد ؟

كان واضحاً أن راكيتين يحاول أن يجد السيل الى الانفصاح عما يدور فى رأسه ويجول فى خاطره •

— فى أسرتك انما سترتكب هذه الجريمة • ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك ترى أبك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسىما الأرض بجبينه • فاذا وقع شىء فى ذات يوم قال الناس : • لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ! • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدى المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفون الشيخ الى السحاب ، وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معتموى القرية لا يفعلون الا هذا : يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

— أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ أأنت مجنون ؟

قال ألبوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضاً ، وقال يسأل ألبوشا :

— أية جريمة ؟ أنزعج أنك تجهل الجريمة التى أعنيها ؟ ألا اننى أراهن على أنك فكرت فى هذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة .. اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائماً ، رغم أنك جالس دائماً بين كرسيين : أفكرت في هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

- خطر ببالي :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلاً :

- ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

- أقصد أنني ... لم يخطر ببالي ... ولكنني حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جداً منذ هنيهة ، خيل لي أنه خطر ببالي .

- أرايت ؟ لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً . أرايت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطيء اذن ظني ...

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

- انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ... ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولاً ...

- هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة . فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فإني أقول لك أنني ما كان لي أن أدرك شيئاً وما كان لي أن أحزر شيئاً لولا أنني في لحظة معينة قد نفذت الى سريرة أخيك دمتری فيدوروفتش ، فرأيت ما في نفسه بمثل

ومض البرق • لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل سمته من سمات طبعه • هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء فى حقيقة أمرهم ، ولكنهم ميالون الى اللذات مقبلون على المباح ، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه فى معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عرييد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال فى شيء من الأشياء يوماً ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة فى يوم من الأيام •

— لا يا ميثا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطيء ، وأنا أسترده تفاؤلى ، لن يمضيا الى هذا الحد •

— فلماذا أراك ترتش اذن كورقة فى مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتا رجل شريف ، أسلم لك بذلك (هو غيبى لكنه شريف) ، غير أنه يحب اللذات • ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر السيطر فى نفسه • وقد أخذ هذا عن أبيه الذى أورثه شهواته الخيثة • اننى لأستغرب فى بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا • كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شيء ••• والميل الجامح الى اللذة قد أصبح فى أسرته مرضاً فتاكاً ، أصبح فرحة فى الروح ، أصبح سلاً مقترساً ! فانظر الى هؤلاء الشهواتيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويترصد به مخفياً فى كمينه خنجراً • لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفأ لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم •

— أنت مخطيء فى موضوع تلك المرأة • ان دمتري يحترقها ••• كذلك قال أليوشا فى تشنج • فأجابه راكيتين :

— من ؟ جروشنيكا ؟ * لا يا صاحبي ••• لا ••• انه لا يحترقها

البته • يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيته فى سبيلها حتى تصبح على يقين من أنه لا يحقرها ذلك الاحتقار الذى تصوره ! هناك شيء • • شيء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصعبون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمههم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم لينالوا الخطوة لديها • قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رفاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمانة فاذا هم ينسبون ويفترون • ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجّد ساقها الصغيرتين فى شعر * • وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف • وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب • لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحقر جروشنكا • قد يكون صحيحا أنه يحقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن يفصل عنها وأن يتحرر من أسرها •

أقلت لسان أليوشا يقول فجأة :

— أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خيىث :

— هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها • ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك • وهذا يجعل لاعتراك قيمة أكبر ، فال موضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا الغف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوتا أنك
 انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى نقياً
 بريئاً هادئاً فان الشيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى
 أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهر الذيل ، ولكنك
 سبرت الأغوار السحيقة . . . اتى الأظلك وأرصدك منذ زمن طويل !
 أنت واحد من أسرة كارامازوف . . . أنت واحد من هذه الأسرة تماماً
 كاملاً . . . ولا بد أن تؤمن بأن للميرق والورثة أثراً رغم كل شيء . .
 أنت شهواني من جهة أبيك ، بسيط من جهة أمك . مالى أراك ترتعد
 فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت
 الى جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جئى به (كانت تتكلم عنك) ،
 فأخرج عنه ثوب الراهب الذى يرتديه ! » ليتك تعرف كم ألجت :
 « جئى به ، جئى به ! » ولقد تساءلت ما الذى يجعلها تهتم بك هذا
 الاهتمام كله ، ما الذى يشوقها فيك الى هذا الحد ؟ . . . هى امرأة
 خارقة ، صدقنى . . .

قال أليوتا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

— بلغها نصيحتى ، وقل لها اتى لن أجىء . أكمل ما كنت تريد أن
 تقوله يا ميسا ، وسأجيبك بعد ذلك .

— ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان
 فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟
 انه كارامازوف هو أيضاً . . . ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن
 هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طماعون ، أناس بسطاء . ان أخاك
 ايفان يسلى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً
 فى ذلك لحساب لا أدري ما هو ، لأنه فى حقيقته ملحد ، وهو لا يخفى
 أن يعترف بهذه الحطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب ايفان ! . . . وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتا خطيته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو .
 كيف ؟ بموافقة ميتا ان ميتا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن
 يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشكا انصرافاً كاملاً .
 وهذا كله - لاحظ ذلك - لا يث شيئاً من الاضطراب في نفسه النيلة
 المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً .
 الشيطان وحده يعلم ماذا يجري في نفوسكم . ان أخاك يعترف بحبته
 وصفاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح . اسمع
 أيضاً : ان أباك ، المعجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتا .
 لقد أفقدته جروشكا هذه صوابه ، وذهبت برشده ، فمتى لمحها سال
 لعابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة في حجرة
 الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالصة
 العذار . ان أباك مجنون جنوناً قط بقطة لقد استخدمها في الماضي
 بأجرٍ في شئون حقيرة من شئون الخمارات التي يديرها . فلما لاحظ
 ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعال نار الهشيم على الفور ، وهو منذ
 ذلك اليوم يكد ويجهد في ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه
 الخسيسة طبعاً ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما
 جروشكا فهي لما تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هي
 تمثل عليهما كليهما ، وتسلى بالهاب نار غرامهما . انها مترددة تسأل
 أيهما أنفع لها وأجدى عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تستحب منه
 مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهي تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد
 أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب في أنها
 لا تهمل ميتا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتا لا يملك
 مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيته
 ذات الجمال الذي لا يضاهى ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحدث النيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشكا التي كان يعيها في الماضي تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة . ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدي حقاً الى جريمة . وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان . وهو ينجي من ذلك فائدة من كل ناحية من انواحى : يظفر بكاترين ايفانوفنا التي يتوق اليها ، ويظفر بنائتها التي تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحدا . لاحظ أيضا أنه لا يكون في هذا كله قد أساء الى ميتا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به انتى أعلم من مصدر مطلع أن ميتا ، وقد كان منذ أسبوع فى احدى الخمارات نملاً يقضى وقته مع نساء عجريات ، قد صرح بصوت عال أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً . أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل منور مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين . ألا انتى للأسافل ما الذى تجدونه أتم جميعاً فى ايفان هذا حتى تفتسوا به هذا الافتان ، وحتى تكونوا أمامه فى حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقنى اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكم جميعاً .

سأله أليوشا بلجبة جافة وهو يقطب حاجبيه :

- من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكد هذا التأكيد القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟
- تسألنى هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابى . انك تسلم اذن ، فى قرارة نفسك ، بأننى على حق .
- أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذى يرضى أن يغريه المال .

- صحيح ؟ طيب ... وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست
المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مفرٍ .
- ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تقتته ألوف
الروبلات . انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء . ربما كان يتوق الى
الآلم ويرنو الى العذاب ! ...

- ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً متشابهون ، هؤلاء النبلاء !
- اسمع يا ميثا ! ان نفس ايفان قلقة عاصفة ، وان عقله مهموم
بمسائل خطيرة . ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذبه . هو من أولئك
الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة
الروحية .

صاح راكيتين يقول مفصلاً عن كره أصبح لا يخفى نفسه :
- ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ... انك لم تزد على
أن كررت أقاويل شيخك !
قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفاته ، وتابع
كلامه :

- ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أغبى كلامك ! ما من
شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة . يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم
كل شيء . ان مقالته التي نشرها في الجريدة مضحكة سخيفة باطلة !
أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! لا فضائل بغير
ايمان بخلود الروح . كل شيء مباح اذا لم تؤمن بخلود الروح .
(وقد صاح أخوك ميتكا عندئذ يقول : « اتنى أسجل هذا الكلام » ،
هل تذكر ؟) . هذه نظرية تقرى أناساً أوغاداً أوباشاً - مالى أصبح
فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! - لا ... لا أناساً أوغاداً أوباشاً ،

بل مثقفين أدياء يحملون في أنفسهم « مشكلات عميقة لا تحل » !
 ألا انهم لتبجحون ! ان جوهر تفكيرهم هو ما يلي : « من جهة أولى
 يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الانكار ! » .
 ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانسانية
 ستجد في نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آمنت بخلود
 الروح أم لم تؤمن . لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معاني
 الحرية والمساواة والأخوة ...

لقد أصبح راكبتين عاجزاً عن كيح جماح نفسه ، فالتهب حماسة .
 وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئاً ما .
 قال وهو يتنسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة
 السابقة :

- كفانا كلاماً في هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتصنعي نماماً
 خبيثاً ؟

- لا ... ليس يخطر ببال أن أحسبك نماماً . انت انسان ذكي
 ... ولكن فلندع هذا الموضوع ... ثم اننى قد ضحكت بغير سبب .
 أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميسا . لقد
 أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة الضيقة في أقوالك أنك أنت أيضا
 لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث . انك لا تقف منها
 موقف من لا يبالي بها ... وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها
 الأخ ، فذلك هو السبب في أنك تكره ايفان . أنت تقار منه عليها .

- لعلنى أغار منه على بائنتها أيضا ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

- لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك !

- أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايفان ٠٠٠ ألا يمكنك أن تفهم اذن أن في وسع المرء أن يكرمه بصرف النظر عن كاترين ايفانوفنا ؟ هلاً قلت لى لماذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عني سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضاً ؟

— لم أسمعته يتحدث عنك يوماً ، لا بخير ولا بشر ٠٠٠ انه لا يهتم بك .

— تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عني ، فى منزل كاترين ايفانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنى . انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يثار من الآخر ، فان لى فى هذا رأياً ٠٠٠ لقد تفضل فقال عني اننى ان لم أقرر فى مستقبل قريب جداً أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى صحيفة يومية كبرى ، كنافذ طبعا ٠٠٠ وأبقى محرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب الجريدة ، وأوجه الجريدة فى اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعيّاً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ٠٠٠ معنى هذا اننى سألعب على الجبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت — فى رأى أخيك — رأس مال ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية ، فاستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً . حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا بين حى ليتاينى وحى فيورج ٠٠٠

- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميسا نقطة نقطة في أغلب
الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع
أن يمسك عنه .

- أنت أيضاً أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتشن !

- لا ... لا ... تلك مزحة ... سامخنى ! وانما كنت أفكر
فى شيء آخر تماماً . ولكن قل لى : من قصّ عليك هذه التفاصيل ، ومن
أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ،
حين دار الحديث عنك !

- لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هذا الحديث
عنى ، ولكن دمترى فيدوروفتشن كان حاضراً . ومنه انما سمعت هذا
هذا الكلام بأذننى . أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته
على غير ارادة منى طبعاً ، لأننى كنت فى غرفة نوم جروشكا ، ولم أكن
أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفان فيدوروفتشن كان متلبساً فى
الغرفة المجاورة .

- صحيح ... تذكرت الآن ... هى قريبتك فيما أظن ، أليس
كذلك ؟

- قريبتى ؟ جروشكا قريبتى ؟ أتراك جئت ؟ أياكون عفاك
مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

- لماذا ؟ ألسنا قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

- سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر السادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النبيلة العريقة ، على حين أن
أباك كان مهرتجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً
بوجبة يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم أنتى لست ابن قس ، وهذا يجعلنى
فى نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهينى بهذه
الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضاً
يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت
المبنولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا •

سمندرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن فى ومسمى أن
أعرف هذا • ثم لماذا تصفها بأنها مبنولة ؟ ألعلمها ... واحدة من تلك
النساء ... ؟

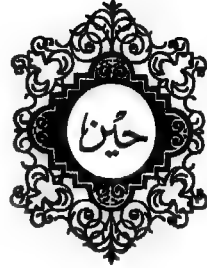
كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة • ثم أردف يقول :
- أعود فأقول لك أنتى قد ذكر لى انها قريبتك • وأنت تراها
أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب ..
فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟
وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقاً ؟

- قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها • لن أقول لك
أكثر من ذلك • أما القرابة مع جروشنكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو
الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا على أنا ...
ها نحن وصلنا الآن • الأفضل أن تمضى رأساً الى المطبخ • أه .. ولكن
ما الذى يحدث ؟ أتكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن
أن يكونوا قد فرغوا من تناول الشداء مع ذلك ! اللهم الا أن يكون
الأخوان كارامازوف قد دبوا «مقلباء» مما عهد فيهم ! أكيد ... هذا

أبوك يتعد ، ووراء ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب
كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما
بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوِّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما
يبدو ... أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟
وهذا ماكسيموف يركض في تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن
لم يتم النداء ... أترأهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون
الآخرون هم الذين ضربوهم ! ... وددت لو أرى هذا ...

لم يكن تعجب راكيتين في غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً ...
فضيحة لم تكن في الحسبان ... فضيحة لم يُسمع بمثلا من قبل ...
وقعت بمجرد « وحى والهام » ...

فضيحة



وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند
رئيس الدير (كبير الرهبان) ، تغيرت حالة
بطرس ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ،
بتأثير طبيعته المهذبة المرحفة : لقد شعر فجأة
بالخجل من حنقه • أحس في قرارة نفسه أنه
كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من
الاحتقار ، فما يفقد هدوءه في حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه
زمام سيطرته على نفسه • قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى
مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فإن الرهبان
لا يتحملون تبعه شيء مما حدث ، فما ينبغي أن أؤاخذهم • • وما داموا
هم أيضاً أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب يقول ، رئيس الدير ،
يرجع الى أصل نبيل هو أيضاً) ، فلماذا لا أكون في معاملتهم لطيفاً رقيقاً
مهذباً ؟ لن أتهجم على آرائهم ، بل سأظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ،
وسأبرهن لهم أخيراً على اننى لا شيء يجعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ ،
هذا اليزوب ، هذا المهرّج ، هذا التافه ، وأننى في هذه المغامرة كلها
ضحية مثلهم ! » •

أما حقوق قطع الأشجار في الغابة ، وحقوق الصيد في النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلاً كاملاً نهائياً ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة • سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير •

وقد تمزرت نيته الطيبة هذه فى نفسه مزيداً من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير • والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين • ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فإن الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن • حتى أن الأرض لم تكن مطلية • ولكن كل شيء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاءً ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار جميلة ثمينة • على أن الشيء الذى كان يجنب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة إنما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جداً ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليشان شراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، إبريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيراً فى المنطقة كلها • ولم يكن على المائدة كحول • وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساء سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال إنها رائحة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمئجلات ، فمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة * • كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شيء • انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات فى كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس . ان له نفساً قلقة حسودا . وكان لرضاء العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها . وكان واثقا من أنه ميسعح فى المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل فى الحياة دورا كبيرا . ولكن أليوشا الذى كان يحبه كثيرا كان يؤله أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظة أنه كذلك : ان راكيتين ، لفته بأنه لا يسرق مالا من دروج الناس ، كان يعد نفسه مثال الكمال الأخلاقى . وما كان لأليوشا ولا كان لأحد فى العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه فى هذه النقطة .

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وبائسى قد دُعيا اليها ، كما دُعى كذلك راهب كاهن آخر . وفى اللحظة التى وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون فى غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالسا كذلك فى أحد الأركان . استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الفرفة . انه شيخ فارغ القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى البيئة ، له وجه طويل صارم وقور . حيا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا فى هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده فى الوقت المناسب ، فلم يتم تقبل . . . أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبعى بل وشعبى ، وطبعاً على يده قبله كبيرة سُمع صوتها .

بدأ بطرس الكسندروفتش الكلام وهو يتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

- نمتد الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا • لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه • لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبجل زوسيم ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ••• أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ••• وهذا أمر أظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) • وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجأنا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن تعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق تدمه • وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه تاسياً ما بدر منه • صمت ميوسوف • انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للحق الذى ألم به من قبل • أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه • أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار وحرصانة ، ثم أحنى رأسه قليلاً ، وقال يجيبه :

- يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف • فلمله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة • تفضلوا فاتخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة •

ودقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخفص جميع الضيوف رموسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصغيرتين احدهما الى الأخرى مبرأ عن تقوى خاصة .

وفى تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جمبته
 آخر مكيدة • يجب أن نذكر أنه قد كان فى نيته حقاً أن ينصرف •
 كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد
 سلوكه الشائن الفاضح فى حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ،
 لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ،
 فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة
 سيكون خائلاً من الاحتشام فى هذه الظروف • ولكن ما كادت عربته
 المترجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسّ بتردد
 مفاجئ ، فتوقف فى اللحظة التى كان يهم أن ينزل فيها من العربّة •
 تذكر أقواله نفسها التى نطق بها فى حجرة الشيخ : « اتنى أشعر كلما
 دخلت على بعض الناس أتنى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدوننى
 مهرّجاً ! فأقول لنفسى عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرّج ، لأنكم
 جميعاً أكثر منى غباوة ، وأخبت سريرة • • تمنى فى تلك اللحظة لو
 يتنقم من صحبه بحقارته • وتذكر بهذا الصدد ، فى الوقت المناسب
 تماماً ، أنه سئل مرةً عن السبب الذى يجعله يكره فلاناً من الناس ،
 فأجاب فى اندفاعه من اندفاعات تهريجه الوقع قائلاً : « لماذا ؟ سأقول
 لكم • صحيح أنه لم يسئ الىّ أية إساءة • ولكننى ارتكبت أنا فى حقه
 حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة
 التى ارتكبتها فى حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش
 ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه ،
 وارتعشت شفاهه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : « لقد صبّبت البخرمة
 فوجب شربها • سوف أتم ما بدأته • • ان الشعور الخفى الذى خضع
 له فيدور بافلوفتش فى ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالى :
 « لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسى • فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الالهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل أنتى لا أخشاهم ، وأنتى لا أحفل بما عدا ذلك ! ، ، وهاهو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعود أدراجه الى الدير مستخفاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً . لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحدود القصوى من الدنائة - دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعد من ذلك ، ودون أن ينجر الى ارتكاب جريمة أو الى اقتراف أى عمل يمكن أن يؤدي به الى المتول أمام المحاكم . انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيراً ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال . ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة . وقف ساكناً جامداً على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متقطرسة خيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز . وصاح يقول بصوت دوى فى الغرفة كلها :

... ها ... لقد ظنوا أنني انصرفت ... فهأنذا أعود .

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شئ كرهه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع . ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحقن مسمر . ان التنيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقاً قويا . صاح يقول :

— لا ... هذا كثير في هذه المرة • لن أطيق ذلك ولن أحتمله •
اننى لا أستطيع الصبر على هذا بأى وجه من الوجوه وأى حال من
الأحوال •

ازدحم الدم فى رأسه ، وتشرت كلماته واختلطت أقواله ...
ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ... وها هو ذا يتناول قبعته •
قال فيدور بافلوفتش :

— ما الذى لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه بأى وجه من
الوجوه وأى حال من الأحوال ، ، أيها الأب المبجل ؟ تأمرنى بالدخول
أم تأمرنى بالانصراف ؟ أتقبلنى ضيفاً مدعواً الى مائدتك أم لا ؟
فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

— أهلا وسهلا • اننى سعيد برؤيتك •
ثم أسرع يقول للحضور :

— أيها السادة ، اننى أسمع لنفسى بأن أرجوكم من أعماق قلبى
أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلتزم شملكم حول هذه المائدة
مصلتين لله بماطفة المحبة ووافق الأخوة •

فأقول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

— لا .. لا .. هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

— اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة الى
أيضا • لن أبقى أنا ما لم يبق هو • فعلى هذه النية انما جئت • لن أترك
بطرس ألكسندروفتش بعد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطرس

ألكسندروفتشى انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا • ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس • انه لا يريد أن يكون أخى ! انه ينكر القرابة التى بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبي فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم. المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

— أنا الذى ... تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتشى :

— طبعاً أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ أملك تحسب أن الأب الرئيس هو الذى يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

— ولكننى لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

— بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة • لقد قُتل فى ماخور - أحسب أن هذا هو الاسم الذى يطلق على تلك الأماكن فى بلادنا - قُتل ... وجرّد من كل ما كان معه ؟ ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرسبرج الى موسكو بالقطار البطيء • وبينما كان الصندوق يسمّر كانت الموسسات تغنى وترقص على أنغام البسالتريون ، أعنى على أنغام البيانو • ان فون سون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم • لقد بُعث بعد موته • أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟

— ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة •

صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :

سفلنصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى
الأمام خطوة أخرى :

- لا • لا • اسمحوا لى • • تحملوا أن أنهى كلامى أولاً •
لقد ادعى أنني تصرفت تصرفاً خالياً من الاحترام والاحترام فى حجرة
الشيخ منذ قليل • لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان
بطرس الكسندروفتش ، قريبي المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام من
الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلتذهب الرفعة الى
الشیطان ! أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم !
قد أكون مهرجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرجاً ، ولكننى فارس من فرسان
الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة • نعم ، أنا فارس من فرسان
الشرف ، على حين أن بطرس الكسندروفتش هذا ليس الا حزمة من
غرور جريح ، ولا شيء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت
على نية أن ألاحظ وأن أحكم • ان ابني الكسى يحقق فى هذا الدير
خلاصه • وأنا أبوه • فمصيره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه •
لقد ظللت أمثل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتنى كلمة واحدة مما
كان يقال • لم يفتنى شيء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل
الأخير من تمثيليتى ! اننى أعرف كيف تجرى الأمور عندنا • ما سقط
فقد سقط ، أليس هذا صحيحاً ؟ ان الخطأ الذى يرتكب يستمر قروناً !
ولكن لا • • • اننى لا أقبل هذا • • • اننى لا أسلم بهذا • • • اننى أتور
وأتمرد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى أعماق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرُّ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتأثير قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس فى تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ • فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً فى الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سرّاً مقدساً • تلك قاعدة قديمة محترمة معظّمة • كيف تريدون منى مثلاً أن أروى بحضور جميع الناس أننى فعلت كيت وكيت - هل تفهمون ؟ - كيت وكيت • • • أقصد كيت • • • وكيت • • • قد لا يكون من الحشمة أحياناً أن يروى المرء أموراً بعينها • تلك فضيحة أيها الآباء المبحّلون ! من ذا الذى يضمن أن لا تصيروا من هذا شيئاً بعد شيء الى ملة الخلستيس ؟ * • • • لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسى الأعلى عند أول مناسبة • • • أما ابنى ألكسى فقد قررت أن استرده الى منزلى وأصطحبه الى منزلى • • •

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا • كان فيدور بافلوفتش قد سمع فى الماضى صدىً ضعيفاً عن الخلافات الاكليركية ، فهو اذن يعرف على أى وتر يجب أن يضرب • ان وشايات خيشة كانت قد انتشرت فى الماضى ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا فى مدينتنا وحدها بل حدث كذلك فى أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) • قيل فيما قيل ان الاحترام الذى يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعى اليه ، بل قيل أيضاً انه يسىء الى مهابة رئيس الدير ويسىء الى كرامته • وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرِّ الاعتراف ، وقيلت أيضاً حماقات كثيرة من هذا النوع • ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت فى كل مكان على كل حال • ولكن الشيطان الأحق الذى ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوى به متوتر الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذى كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سيما وأن أحدا لم يكن قد جئنا على ركبته أمام الشيخ في ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عالٍ ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئاً وإنما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكراً أقاويل قديمة • لكنه وقد أخرج هذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف • ورغم أنه كان يدرك ادراكاً كاملاً أن كل كلمة أخرى يقولها إنما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى في الطيش والحماقة مزيداً من التردى ، فإنه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر ، بل أخذ يهوى الى القاع منكس الرأس •

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

— يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

— اسمح لى • جاء في كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقد اتهمت بأشياء منكورة • فلما سمعت تلك الأقوال ، قلت لنفسى : « ان المسيح هو الذى أرسل الى هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض على هذه المحنة لأخلص نفسى من غرورها » • لذلك أشكر لك كلامك أجزل الشكر •

قال كبير الرهبان ذلك وحيثاً فيدور بافلوفتش منحياً له انتحاة كبيرة •

— ته ته ته ! • • • نفاق قديم وجمل مهترئة ! • • • معروفة هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعنى هذه التحيات ! • قبله على الشفتين وطعنة

فى القلب ، * تماماً كما ورد فى كتاب شيللى « قطاع الطرق » ! اننى أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست فى أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك • هلاًّ قلتم لى أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة فى السماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا اننى مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً فى سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أيها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضيلة فى الحياة ، ولأن تكون نافعا للمجتمع ، خيرٌ من أن تلوذ بدير لتحضى نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتتال فوق ذلك مكافأة فى الحياة الآخرة ! ولكن لعل هذا يبدو لك أصعب وأشق ••• أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس ••

قال ذلك ثم اقرب من المائدة وأضاف :

— فللتنظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام ••• خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة فى هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه ••• هيه ••• ما أروع هذه الزجاجات التى أخرجوها ! ••• ومن ذا الذى أمد المدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسى الطيب الشهم الذى يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التى جنتها يده المتشقتان ، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء المبعجلون !

قال الأب جوزيف :

— عيب ما تقول •

أما الأب بايسى فقد أصرّ على الصمت فى عناد • وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجائوف •

قال فيدور بافلوفتش :

- انتهى أترككم أيها الآباء الطيبون ، تماماً كما فعل بطرس
الكسندروفتش ! ولن أجيء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم الى جاتين
على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هذا
شهوتمكم وأسأل لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا
... ها ها ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيك بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به سورة
عنف مقصود :

- لشبابي انما أتقم الآن ... ان هذا الدير قد لعب فى حياتي
دوراً ... جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجم على زوجتي
الكليوكوشا • أتقلمونى باللعنات فى جميع معابدكم ، وأسأتم الى سمعتي
فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! اتنا نعيش فى عصر لبرالى ،
اتنا نعيش فى عصر سفن البخار وسكك الحديد • لن أعطيك لا ألف
روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيك شيئاً البتة •

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتل فى حياته مكاناً فى يوم من
الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة • ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه
فى التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم
الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه مما عاناه من
هذا الألم المزعوم • ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة أنه قد آن له أن
يتوقف •

أما كبير الرهبان فانه لم يردّ على أكاذيبه الخيثة التى نطق بها
الا بأن انحنى برأسه انحناؤة خفيفة ، وقال بصوت رصين :

- لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التى تُلحق بك على رموس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تنضب معن أهلك » • وذلك ما سنفعله •

— ته ته ته ••• سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون ! ••• أما أنا فذاهب • وسأخذ ابني من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لى عليه من سلطة الأب على ابنه • يا ايفان فيدوروفتش ، يا بنى المطيع ، هلاًّ تحملت أن آمرك بأن تبغى • وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال الى المدينة فى غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروح عن نفسه • وليست المسافة بعيدة • هى فرسخ صغير • وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسبك مطبخ الدير • سوف تغذى عندى • وسيكون على المائدة كونيكا وخمور شتى • عندى خمرة رائعة من فاكهة التوت • هيه ! فون سون ! لا تفوت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محرّكاً يديه • وفى تلك اللحظة انما لمح راكيتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا •
فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

— ألكسى ! عد الى البيت فى هذا اليوم نفسه ••• عد الى البيت نهائياً ••• خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد باتباه أخرس • كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه فى عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهبأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا • وفى تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجى عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار • ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربية • كان يلثم لهاثاً شديداً بعد أن ركض ركضاً سريعاً حتى لا يصل متأخراً • كان راكبتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً • وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربية بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربية وأخذ يبذل جهوداً كبيرة ليثب إلى داخلها •

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز إلى العربية ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدأ عليه أنه مستعد لكل شيء :

- جئت ، جئت معكم •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

- ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأى واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذى دعاك إلى العدول عن غنائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لى جبهة أنا أيضاً ، ولكن لا يسعنى أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيّا اففز ، اففز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ... سيكون هذا مضحكا ... سوف يجد مكاناً بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذى ؟ اففز إلى المقعد بجانب الحوذى يا فون سون ! ...

ولكن ايفان فيدوروفتش الذى كان قد استقر فى العربية ، لم يلبث أن أرسل إلى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فإذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزة أنه لم يسقط • وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذى بصوت غاضب :

- امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

— ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت • ولم يجب ايفان فيدوروفتش •
أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس
النظر الى ابنه :

— عجب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى
اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

— كفَّ عن قول هذه السخافات ! آوَّلى بك الآن أن نرتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخم :

— قليل من الكونياك لن يضر الآن ...

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب •

قال الأب :

— ستشرب معى قليلا من الكونياك فى المنزل •

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا •

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

— أما ألبوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد

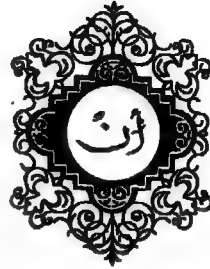
لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور •

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا • ثم
أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق • ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة
الى أن بلغا المنزل •

الباب الثالث: الشهر واليوم

١

في الحفرة



منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك في أقصى الضاحية . هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضي واحد ، رمادي اللون ، يغطيه سقف من صفيح أحمر ؟ قد أحسن بناؤه جدا ، ففي امكانه أن يصمد لأذى الزمن طويلا ؟ مريح واسع ، يضم حجرات مظلمة متعددة ، وأركانها منعزلة كثيرة ، وسلام صغيرة تباغتك هنا وهناك ؟ الفئران فيه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقه وجودها ، حتى لقد كان يقول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا في المساء ، اذا كان هنالك فئران » . ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع في الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه . صحيح أن المبنى الرئيسي كان يضم مطبخا ، غير أن فيدور بافلوفتش كان يمتك الروائح الكريهة ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن أن نقول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم

يساوى خمسة أضعاف العدد الذى يقيم فيه منهم الآن . ومع ذلك لم يكن يقطنه فى الآونة التى جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامراته العجوز مارفا ، والخدام سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا . يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة . الحق أنه ليس هناك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية . انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يعضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشت قلة المنطق فيها) . وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عفيف نزيه . لقد ألحّت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألحّت عليه الحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأتقان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئاً من مال ادخراه) . ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقينا نهائيا أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال ، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاهاما القديم ، مهما تكن عيوبه « لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن » . وسأل الرجل زوجته مارفا قائلاً :

— هل تفهمين أن هنالك واجبا لا يجوز التخلّى عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

— أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكنى لا أفهم أبدا ما هو الواجب

الذى يلزمنا بالبقاء هنا .

فقال لها :

- سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي • وعليك بعد الآن أن تسكتي !

وكذلك كان • بقي جريجورى ومارفا • ولقد حدّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعا ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر فى مواعيده بغير تأخير • وكان جريجورى يشعر من جهة أخرى أن له على مولاة نفوذا لا يُنكر • كان جريجورى يحس ذلك ، وكان على حق فى احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرّج ، الماكر ، العنيد ، الذى يعرف كيف يكون صلبا فى « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره ، كان ضعيفا الى أقصى درجات الضعف فى « شئون أخرى من شئون الحياة » • وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصرا بمخاوف شتى • كان يرى أن على المرء « فى بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه دائما بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جدا • وكان جريجورى شخصا موثوقا حقا حتى لقد اتفق ليفدور بافلوفتش مرارا (أثناء حياته) أن أوشك أن يضرب ، وأن يُضرب ضربا مبرحا يلحق به أذى شديدا ، ولكن جريجورى كان ينقذه دائما من المأزق ، مع ازجاء النصيح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات • على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفى وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته فى بعض الأحيان • ان هناك ظروفا أخطر من ذلك كثيرا ، وان هناك ضروبا من القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش يعانها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هى حاجة مفاجئة قوية صارمة عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصا قريبا منه مخلصا له • تلك لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر الماهر الى أقصى حدود الفجور والمهر ، انه وهو الرجل القاسى فى

شهوانيته قسوة حشرة رهيبة ، كان يحس في بعض لحظات من السكر
 بنوع من خوف سرى وتضعف نفسي يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ،
 حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لي في تلك اللحظات أن
 روحي تندفع خارجة من أحشائي » . ففي تلك الانلحظات انما كان
 يجب أن يوجد على مقربة منه ، في المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن
 في غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنه كل
 الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والمهر شيء ، لكنه رغم معرفته
 بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسراره ، يغفرها له من باب الاخلاص
 ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصة ، ولا يهدده بعقوبات مقبلة
 لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر ... رجل يمكن أن يحميه عند
 الحاجة ... مِمَّنْ يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر ...
 كان لا بد له حتماً في مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منه
 كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده
 صديقاً ، حتى يستطيع أن يناديه اليه في لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه
 لا لشيء الا أن يرى وجهه ، وربما يادله عندئذ بضع كلمات في أى
 موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئاً من لطف وتسامح
 ولم يؤنبه ولم يقرّعه أصبح حزنه أقل ثقلاً في قلبه ، واذا توجهّم له
 وقسا عليه ثقلت كآبته مزيداً من الثقل . حتى لقد كان يتفق لفيدور
 بافلوفتش (في النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى في
 المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به . وكان
 الخادم يجيء عندئذ الى مولاه الذي يأخذ يسجى معه حديثاً تافهاً يدور
 على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؛ ويعود الى
 سريره فينام في هذه المرة نوما هادئاً بعد أن أفرغ ما في جوفه . ولقد
 مرّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله .

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه » ويرى كل شيء ، ثم هو لا يدين شيئا من الأشياء » • وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل ، هو أن أليوشا لم يحقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر تحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديراً بها • ان موقفا كهذا الموقف خليك بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذي كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات • ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقعه • وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك في ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يستلم بها قبل ذلك •

سبق أن ذكرت في مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلايد ايفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، أم ابنه دمترى ؛ وأنه في مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا الكليكوشا ، وأنه تحيّر لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول في حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش • وقد استحالت هذه المودة التي محضها تلك المرأة ، استحالت في نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور • وكان جريجورى في مظهره رجلاً هادئاً وقوراً رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعراً بوؤن كل لفظ من ألفاظه ، لا يلقى الحديث على عواهنه ، ولا يقول قولاً خفيفاً ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا محل لها • وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطبيعة أم هو لا يحبها • ولكن الحقيقة هي أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك . ولم تكن مارفا اجناتنا هذه بالمرأة الفية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا فى شئون الحياة العملية . ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوجا ، فلم تجد سلطته عليها ، وكانت تحترم احتراماً أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي . يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلما يتبادلان الكلام ، فإذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التى لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية . لقد تعود جريجورى الوقور الرصين المهيب أن يفكر فى أموره وحده ، فكان لا يفضى الى أحد بمشاغله ولا يشرك أحدا فى همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه فى غير حاجة الى نصائحها . وكانت تحس أن زوجها يقدر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليلا على ذكائها . ولم يضربها زوجها فى حياته الا مرة واحدة - وكان ضرباً خفيفاً على كل حال . واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتس بأديلايد ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ، ولم يكن قد تحررن من القنانة فى ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم فى فناء منزل السادة يفتن ويرقصن ، فينما كانت الفلاحات تغنى أغنية « فى المروج » ، اذا بمارفا اجناتنا التى كانت ما تزال فى ميعة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذى تمودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذى تعلمته أيام كانت ما تزال تعمل خادماً فى منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذى أقامته تلك الأسرة فى أملاكها والذى استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص . رأى جريجورى زوجته تندفع فى ذلك اللهو فرحة كل الفرح ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدبها التأديب

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها • تلك هى المرة الوحيدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شيء من هذا فى حياتهما بعد ذلك • ثم ان مارفا اجناتفنا قد ثابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص وميلها اليه •

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يش طويلا • ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجل • فلما هربت آديلايد ايقانوفنا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، قرابة سنة ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها • أما ابنه هو ، فانه لم يندق الا فرحة انتظاره مدة حب أمه به • حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً • ذلك أن الصبي قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد • وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصاع أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الانغراق • كان ذلك فى الربيع • وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يمزق الأرض فى بستان الخضار • فلما حل اليوم الثالث الذى سيحتفل فيه بتعميد الصبي كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه • فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبي عرابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضل أن لا يُعمد الطفل البتة • • • لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحة » ، وقاله وهو يلقي على الكاهن نظرة قائمة عنيدة •

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

— لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

— لأنه ... تين !

— ماذا ؟ أى تين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات • ثم دمدم يقول مضطرباً أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزن ، وكان واضحاً أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

— اختلط الأمر على الطبيعة !

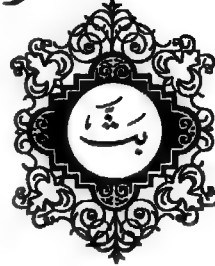
ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبى المسكين مع ذلك • صلتى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغير رأيه فى الوليد • على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على أن لا يراء ، متظاهراً بأنه يجهل وجوده ، قاضياً أكثر وقته فى خارج مسكنه • ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القلاع ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلاً بحزن شديد • وحين أهلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحياً القبر منحنيًا حتى الأرض • ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجئ جريجورى على ذكر هذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجناتقنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام • فإذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن « صغيرها » ، تكلمت هامسةً همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلقتش • وفى رأى

مارفا اجناطنا أن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تلاحظ عند جريجورى الذى انصرف منذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا فى كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة فى كل مرة نظارته الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة . كان يندر أن يقرأ جريجورى فى هذا الكتاب جهراً ، الا فى أيام الصيام الكبير . وكان يجب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصة ، كما استطاع أن يحصل من مكان ما على كتاب يضم أفكار ومواعظ « أينما حيب الله » اسحاق السورى * ، فكان لا ينسى يقرأ هذا الكتاب ويعد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئاً بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدّر هذا الكتاب مزيداً من التقدير ويحترمه مزيداً من الاحترام . وقد عنى فى الآونة الأخيرة بآراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كتب ، هذه الحركة التى التقى ببعض المضمين إليها فى القرى المجاورة ، فاهترت نفسه من ذلك اهتزازاً واضحاً ، ولكنه رأى أن الانضمام الى العقائد الجديدة ليس بالأمر المستحسن . وطبعاً أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيداً من الخطورة والرصانة والوقار .

لعل جريجورى كان ميالاً الى الصوفية . وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن فى الحسبان قط ، يحدث كأنما على عمد ، فى تلك الآونة نفسها التى شهدت ميلاد ابنه ذى الأصابع الست وشهدت موته السريع ؛ وهو حادث خلّف فى نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضى أن يعترف هو نفسه بذلك مرة ، خلف فى نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليها « طاباً لا يندثر » ، اليكم ما حدث : فى الليلة التى أعقبت دفن الصبى الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتقنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاء وليد . ذعرت مارفا اجناتقنا ، فايقت زوجها . وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التي يسمعا هي أصوات أنين . كأنه أنين امرأة . . ونهض فارتدى ملابسه . هي ليلة حلوة من ليالى شهر أيار (مايو) . خرج جريجورى الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة . فدهش واستغرب : ان الحديقة تغلق فى الليل من جهة الفناء بقفل قوى، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسياج عالٍ قوى . عاد جريجورى الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غير عابى . بذعر امرأته الهستري التي أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكى فى الحديقة وينادىها هذا النداء . وأدرك جريجورى عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات المقامة فى الحديقة على مقربة من الباب الحديدى ، وأنها أثبات امرأة ما فى ذلك ريب . فلما فتح باب الحمامات جمعد فى مكانه دهشة من المنظر الذى رآه : ان معتوه المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة - وقد أطلقوا عليها لقب الزابت سمردياسشايما * - قد تسلفت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً . وكان الصغير راقدا قرب أمه التي تحضر . لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم . يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل .

اليزابت سمرويا سستشاي



هذا الحادث في قلب جريجورى اضطرابا عميقا ،
 وذلك بسبب تفاصيل ذكره هذا الحادث بها ،
 وعزّز في نفسه شبهة أليمة مقرّرة كانت قد
 ساورته من قبل • اليزابت سمردياسستشاي بنت
 قصيرة القامة جدا • لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين • كما أصبح يحلو
 لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقولوا • وكان وجه هذه
 المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا • ولكنه
 يفصح عن العته والبلالة أفصاحا تاما : ان نظرتها جامدة • وهي نظرة
 تشتمل رغم هدوئها على شيء يؤلم النفس • وكانت تسير حافية القدمين
 منذ ولدت • في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب •
 وكان شعرها • الأسود تقريبا • الكثيف جدا • المتجدد كأنه جزائز
 شاة • يتكوم على رأسها كطافية ضخمة • وهو على كل حال ملطخ
 دائما • زاهر بالتراب وأوراق الأشجار والنصينات والأقنأ والنشارات ،
 لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل • وكان أبوها ايليا
 وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمّر مريض لا مأوى له قد أدمن
 على الشراب • وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هي وظيفة عامل • أما أم الزباث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل • وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب الزباث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هي جاءت الى الدار • على أن الزباث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة • مجنوبة • يحبها الرب • وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال " ونساء ممن يعملون في التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا الزباث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، في أوائل أيام البرد ، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قديمها حذاءين • فكانت الزباث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائفة بغير احتجاج ، ولكنها ماتلتب أن تبعد عنهم ، وتمضي الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التي ألبستها - اللقعة والتتورة والمعطف والحذاءين - فتدعها هنالك ، ثم تمضي كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص • وقد حدث مرة أن حاكم اقليمنا الجديد مرّ بمدينتنا في جولة تفتيشية ، فلما رأى الزباث هذه صدم منظرها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي «يوروديفايا» * ، وقد ذكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شيء يؤذى الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حد لهذه الفوضى • ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه بالزباث وتركتم تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش • ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يمتنعون عن مشاركتها ويعفون عن تنكيدها ، مع أن الأطفال في مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة . كانت الزباث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويعطيها قرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هذه الاعطيات الصغيرة من النقود ، ولكنها ماتلبث أن تلقيها في صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون . فاذا أعطاهما أحد في السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التي تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهها لأول طفل تلقاه في طريقها أو هي تستوقف في الشارع سيدة من أغنى سيدات مدينتنا فمعطيها الرغيف ، فقبله السيدة منها فرحة . كانت لا تريد أن تتغذى الا بخبز أسود وماء . وكانت في بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء في متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب التاجر لا يخطر بالهم أن يراقبوا لتقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نسيت . وقلما كانت ترى في الكنيسة ، ولكن كان يخلو لها أن تقضى ليلالى بأسرها مضطجة في فناء معبد من المعابد ، حين لا تسلك الى بستان من بساتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التي تقوم مقام الحواجز كثيرة في منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار - أغنى دار أسياد أبيها المتوفى - مرة في الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفي جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهي تطلو عندئذ في دهليز من الدهاليز أو تقبع في الاسطبل . والناس يستغربون كيف تستطيع الزباث أن تحمل هذا النوع من الحياة ، ولكن الزباث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم ضآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال • صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار في مدينتنا يحفظ وافر من الهناء كانوا يؤكدون أن الزباث انما تتصرف هذا التصرف من باب الكبر والزهو والخيلاء • ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه ، لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك لسانها من حين إلى حين بأصوات مبهمه لا تبين • فهل يمكن الحديث بصدها عن كبر أو زهو أو خيلاء ؟

ففي ذات ليلة من ليالى شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد جدا) ، ليلة مضية دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة مريحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار في مدينتنا عائدة من النادى بعد افراط في الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفية الدور وبساتين المنازل • كان الوقت ساعة متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت العصبة خمسة رفاق أو ستة • ان الشارع الصغير الذى يجتازونه الآن محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضار فى المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضى الى الجسور الضيقة الممدودة عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذى اعتاد الناس أن يسموه فى بعض الأحيان نهرا • وان العصبة لتسير اذا هي تلمح الزباث على حين فجأة نائمة قرب السياج بين نباتات القرّاص والأرقطيون • توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد فى قهقهة مججلة مدوية ، وأخذوا يطلقون الأمازيج البذيئة فى غير حياء • وفجأة خطرت ببال أحد أبناء الأسر فكرة عجيبة هي أن يطرح سؤالاً من طبيعة خاصة جدا فقال : « هل يمكن أىّ انسان أن يرى فى هذه البهيمه امرأة ، فى هذه اللحظه نفسها مثلا ؟ الخ » فضج الجميع يظهرهم اشمزازا متكبرا ونفورا مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد • ولكن فيدور بافلوفتش الذى كان

أحد أفراد العصابة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وإن في وسع المرء تماما أن يمد هذه المخلوقة امرأة ، بل وإن ذلك قد يكون فيه كثير من الامانة اللذيذة ، الخ الخ ... » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يغالى في إبراز دور المهرج الذى يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التى يتاح له فيها أن يلعب نجمه فى هذا المجال وأن يسلى رفاقه وأن يصحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم فى الظاهر ولكن بروح البودية الدينية لهم فى حقيقة الأمر . وقد حدث هذا فى الآونة التى كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلايد ايفانوفنا ، فكان وقد وشح قلبه بشريط أسود يسترسل فى السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشتزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة فى نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفت العصابة الفرحة تضحك طعنا لهذا التصريح الذى لم يكن فى الحسبان . وقد مضى أحد العائنين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشتزازهم بقوة متزايدة ، وإن فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه فى وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فإن أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن الزبابت التى صار واضحا أنها حبل ، وأن المدينة تتحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستنكار عميق ، وأن السؤال الذى تلقىه جميع الشفاء هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجاني ؟ » . وفى تلك اللحظة انما انتشرت فى مدينتنا شائعة رهيبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصابة

الفرحة التي كانت عائدة من النادي في تلك الليلة من ليالى شهر ايلول، لم يبق منها في مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان . ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئا ، حتى ولو كان يعرف شيئا . أما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة . ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاما ملحا غنيذا . والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر . ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة . لقد أصبح فيدور بافلوفتش في ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا أن يسليهم ويضحكهم . ولقد تحيز جريجورى لمولاء ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ، بحيث أن عددا كبيرا من الأشخاص تبددت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم . كان جريجورى يؤكد قائلا بלהجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هي وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » . (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب في تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ في مدينتنا) . لقد بدا هذا الافتراض مقبولا ، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه في تلك الليلة نفسها من ليالى شهر ايلول قد حام في شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم . على أن هذا الحادث وما أثاره من ثمرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسكينة من عطف الناس عليها . بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم • حتى أن التاجرة كوندراتيفا وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت في نهاية شهر نيسان (أبريل) أن تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها • وقد روقت اليزابت بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة استطاعت في آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش • أما كيف استطاعت وهي في حالتها تلك أن تتجاوز الحاجز العالي المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما • فبعضهم يزعم أن هناك « أناساً » قفلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز • وأغلب الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعي تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان اليزابت ، الماهرة في تسلق الأسبجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فأذت نفسها بذلك طبعاً •

هرع جريجورى الى مارفا اجتاثنا فكلفها بأن تمضي الى اليزابت لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ في قرية قريبة من المدينة • ولقد أمكن انقاذ الطفل • أما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر •

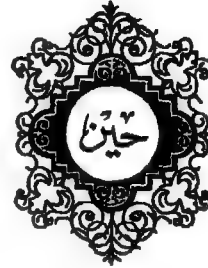
وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق على غيرنا • ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله الينا ! ان هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشیطان رجيـم ، فأطعميه ، ولا تبكى بعد الآن • • • هكذا تولت مارفا اجتاثنا تربية الصغير • رقد عمـدَ وسُميَ بافل ، أما الاسم الأبوى الذى كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام

وبغير شرح أو تحليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » ،
ولم يترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد
الأمر داعيا الى الضحك جدا ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكارا قاطعا
أنه هو الفاعل • وتخيّل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمى الصبى
باسم أسرة ، فأسماء سمردياكوف مشتقا ذلك من لقب أمه ، اليزابث
سمردياستشاييا •

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور
بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم
فيه المعجوزان جريجورى ومارفا • وقد جعل سمردياكوف طبّاخاً •

قد يكون ضروريا أن أتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من
الافاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدة
طويلة الى الحديث عن خدم مبتدلين ، فهأنذا أعود اذن الى سرد قصتى ،
آملاً أن تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن
سمردياكوف فى باقى الرواية •

اعتراف قلب حمد سعد



تلقى أليوشا الأمر الذى أصدره إليه أبوه
صاحاً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامدا
فى مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة
شديدة • على أن أليوشا لم يكن جامدا كتمثال ،
ذلك أنه لا يفقد أبدا ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة •
حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخواطر التى هزّت نفسه وبّت فيها
الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من
أعمال فى غرفة الطعام • ثم مضى فى طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى
أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التى كانت تدور فى رأسه وتعذبه
وتقلقّه • ويجب أن أذكر فوراً أن الأقوال التى صاح بها أبوه والأمر الذى
أصدره إليه بالعودة الى المنزل « مع وسادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم
يوقظ فى نفس أليوشا شيئاً من خوف • فهو يدرك حق الادراك أن هذا
الأمر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه إليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك
الطريقة الجازمة ، انما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبته
فى الاخراج التمثيلي والتزيين المسرحي ••• وقد ذكرّه هذا بما حدث
فى مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلما

أسرف في الشراب أكثر مما اعتاد أن يسرف ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه ، لأنه مُنح من أن يصب له مزيد من الفودكا ، فإذا هو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك في سيل حسن الاخراج وجمال التأثير ... فلا شك أن أباه حين ألقى إليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع . ذلك ما حدث به أليوشا نفسه . وقد تاب الرجل الذي احتفل بعيد ميلاده ، تاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طمعا على أطباقه وصحونه وأوانيّه التي تحطمت . كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له في الغداة أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه . ولقد كان واتقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوما أن يحزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد - كان أليوشا مقتنعا بذلك - ليس هناك أحد في العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد . تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا قبل نقاشا . لذلك سار قديماً لا يتردد ولا يلوى على شيء .

أما الخوف الذي كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هي كاترين ايفانوفنا تلك التي توصلت اليه بكثير من الالاحاح ، في البطاقة التي أرسلتها اليه مع السيدة هوخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجيء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التي تلح في طلبها . ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ولا محيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملاً نفسه منذ البداية بضيق غامض وهمٍ مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يعتبّه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئاً بعد شيء حتى غداً المآ واخزاً كاوياً لا يطاق ، دون أن تستطيع كبتة الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك في الدير ، والمشاهد والوقائع التي تلاحقت في حجرة الشيخ وفى مسكن كبير الرهبان • وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيحييها به • فليست المرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صعبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير • وانما هو خائف من هذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها • وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين - وربما ثلاثا - وبادلها بضع كلمات عرضاً فى مناسبة من المناسبات • ان الصورة التى بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء ، قوية السطوة • ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تعليلا ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيدا من المقاومة فى تلك الساعة • لا شك أن هذه الفتاة تسعى الى أتبل الأهداف • ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيه دمترى الذى أذنب فى حقها ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تمناه الا شهامة منها وأريحية • ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من تقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتقلب على الضيق الذى كان يغزو نفسه ويشغل على صدره كلما ازداد اقترابا من منزل الفتاة •

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه • أما دمترى فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضا ، وهو

يوجس سبب ذلك • معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى في خلوة •
 ألا ليه يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث
 المحتوم ! خطر ببال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوتية ليراه • ترى أليس
 ممكنا أن يتافس معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعاً ؟ ولكن
 دمترى يقيم في مكان بعيد ، وأغلب الظن أنه ليس في منزله الآن •
 توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيراً • رسم على نفسه اشارة
 الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه
 سير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهبة » •

كان يعرف أين تقطن • ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم
 عبور الميدان ، ثم ••• النخ ••• كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلاً •
 ان مدينتنا الصغيرة مبشرة جداً ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان *
 أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذي ألقاه اليه ،
 وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته • وقرر أليوشا ، بعد تقلب الامر على
 وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأبنية والحدائق ،
 فهو يعرف الشوارع الصغيرة والمخارج المختلفة في مدينتنا كما يعرف
 راحة كفه • كان عليه أن يقطع الشوارع قطعاً ، فيمر بأراض بور ،
 ويجتاز في أماكن شتى أسيجة تحيط بأملأك خاصة ، ويعبر أبنية منازل
 أناس غريباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره • فعلى هذا النحو
 يبلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذي يحتاج اليه لو سلك السيل
 العادى • فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه في لحظة من
 اللحظات قريباً من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل
 صغير عتيق بال ليس له من النوافذ الا أربع وكان القدم قد شقق جدرانها •
 ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة
 من سكان المدينة ، عجوز ليس لها الا ساق واحدة ، تسكن في المنزل

مع ابتها • وكانت ابتها هذه قد عملت في الآونة الأخيرة بالعاصمة ،
 خادمة رئيسية ، لدى جنرالات في الغالب • ولكنها رجعت منذ مايقرب
 من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهي الآن تظهر في مدينتا بأثواب أنيقة
 جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعوز
 كبير ، حتى لقد كاتتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من
 حيث هما جارتان ، تلتصقان شيئاً من حساء وخبز تفدقه عليهما مارفا
 اجناتنا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقنات من البر والاحسان
 لم تقبل أن تباع أى ثوب من أثوابها التي كان بينها ثوب سابغ الذيل •
 وكان ألبوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه
 راكيتين الذى كان على علم بكل شئ في المدينة حتماً ، ثم لم يلبث أن
 نسيها طبعاً ، ولكنه وقد بلغ الآن حذيفة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ
 على حين فجأة ، فإذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقاً الى الأرض طوال
 المدة التي قضها مفكراً متأملاً أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على
 ما لم يكن في حسبانته قط •

لقد لمح أخاه دمترى فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعداً على
 شئ من الأشياء مشرباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدرة ، يومئ اليه
 بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيباً به بالإشارات أن يجيء اليه ،
 متحاشياً أن يصرخ ، بل ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ ،
 مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه ألبوشا •

— من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت أن
 أصيح •

كذلك همس يقول دمترى فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه
 فرح شديد برؤيته • ثم أضاف :

- تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر ببالك
أن تجيء . لقد كنت أفكر فيك ...

سراً أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، مع تساؤله عما يجب
أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتا رفعه من كوعه بيد قوية
ليساعده على أن يقفز ، فشمس أليوشا توبه الرهباني ، ثم اذا هو يصير
فى داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبي صغير من الصبية الذين يسرون
حفاة الأقدام .

همس ميتا يقول له بحماسة :

- والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات
فيرى أنهما وحيدان فى الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :
- الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعاً ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى
تمكله العجوز وابنتها يعد خمسين خطوة على الأقل .

- نحن وحيدان ، فلماذا تكلم همساً ؟

- لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

- حقا ... فعلاً ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلوا

السخافات للطبيعة فى بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سراً ، ويجب أن
أكون كئوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لثسمورى بضرورة
الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغباوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه
البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول
كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلتك ...

المجد للخالق في الخلق *

المجد للخالق في نفسى

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت . .

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قبراية هكتار كانت خالية من الأشجار الا فى محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهى أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطى فى كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من الملف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وثمر الريباس وعنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زُرِع قرب المنزل الصغير شئ من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

فاد دمتري فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار اليلسان والغيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانه متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناء أحد المالكين السابقين الذى تعاقبوا على هذا المنزل الصغير ، رجل يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتان كولونيل محال على التقاعد . كل شئ فى هذا « الكشك » منحور مسوّم : أرضه خربة تثة ، أخشابه مترعزة مترنحة ، راحته عفنة رطبة . وفى داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، وأحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فورا حالة الحماسة التي كان عليها أخوه ،
فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلئة نصفها ،
والى جانبها قدح صغير .

قال ميتا وهو ينفجر ضاحكا :

— هو كونياك يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل
من جديد » . ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !

الكاذب يروجها اناس لا خلاق لهم *

فلا تسمع لها ابدا ، وبدد كل اوهامك .

— لا .. اننى لا أسكر .. ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك ،
ذلك الخنزير راكيتين ... الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشار
دولة ، دون أن يكفَّ عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف .
اجلس هنا . وددت لو أضمتك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت
لو أضمتك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟
ذلك أنك فى الواقع ... فى الوا ... قع ... (افهمنى جيدا ، افهمنى
جيدا) ... ذلك أنك فى الواقع ... الانسان الوحيد ... فى العالم
... الانسان الوحيد ... الذى أحبه ... فى العالم ...

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من النشوة
والوجد .

— أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة
بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ... ولكن العشق شيء آخر غير الحب .
فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره . احفظ هذا
الكلام ! اننى أنكلم الآن فى فرح ومرح . اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة • وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح. سأقول لك كل شيء • وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!... بالنسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تتكلم هنا هماً ••• ذلك أن من الجائز ••• هل تعلم ؟ ••• من الجائز أن توجد هنا آذان مخبئة ••• آذان لا تتوقع وجودها ••• سأشرح لك ••• اتفقنا على هذا • تابع كلامي ••• لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت فى مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفى هذه اللحظة بعينها (لقد أقيمت مرسائى هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذى يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذى يمكن أن أفضى اليه بما فى نفسى ، ولأن هذا ضرورى لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لى عنك . هل شعرت يوما ، فى المنام مثلا ، بأنك تتحدر من جبل فى هاوية ؟ فاعلم اننى الآن أتدحرج الى هاوية ، وليس هذا حلماء . ولكننى لست خائفا ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا • أقصد ••• أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذبا ، وانما هو شعور رائع ••• لا يدرى الا الشيطان ماذا ••• جنى قوى ، جنى ضعيف ، جنى المرأة ••• ليس هذا بذى بال على كل حال ! ••• ألا فلنمجّد الطبيعة : ما أكثر الشمس فى كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ••• نحن فى قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد • صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أيننا ، ولكننى كنت أنوى أن أمرّ أولا بكاترين

ايفانوفنا •

- اليها واليه ؟ أوه ••• يا للمصادفة العجيبة ! ••• هل تدرى لماذا كنت أنتظرك فارغ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدرى لماذا كنت ظامئا الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدرى لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روحى وجسمى ؟ هل تدري لماذا ؟ لأننى كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً منى ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا ، بغية أن أصفى الأمر معهما كليهما ، معهما ومعها كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان فى وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكننى كنت أريد ملاكاً . وهأت ذاك تذهب اليها وتذهب الى الأب .

— أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبئ عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

— اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصة ، لا تقل كلمة واحدة الآن . لا تأسف على شيء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكّر بضع لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

— هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القليل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟ أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

— هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

— وسلكتَ طرقاً مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة . . . شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كذلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبي . اسمع يا أليوشا ! اصنع الىّ يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء • لا بد لي من أن أفتح نفسي لانساني ما ،
 ليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما في نفسي الى ملائكة السماء ،
 ولكنني كنت أريد أن أبوح بسرّي الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا •
 وأنت أنت الملاك على هذه الأرض • ستصغي وتفهم عني ، وتغفر لي ••
 ان بي حاجة قوية الى ن يغفر لي انسان أعلى وأسمى • اسمع : اذا تحول
 اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على
 الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، في اللحظة التي بهم فيها أن يبلغ
 السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقي انسانا آخر فيقول له : « قدّم لي
 هذه الخدمة ، اعمل من أجلى هذا الامر الذي لا يمكن أن يطلبه أحد
 من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ••• » فهل يمكن أن يرفض
 هذا الشخص الآخر طلبه ••• اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

– سأفعل ما تطلبه مني ، ولكن ما هو الأمر ؟ أسرع في ذكره
 مزيدا من الاسراع !

– مزيدا من الاسراع ؟ هم ••• لا تتعجل هذا التعجل كله
 يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب في غير طائل • لكل شيء
 أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث
 تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا في الواقع ؟ أعليك أنت أن
 ترتقي هكذا ؟

كن نبيلًا يا أيها الانسان !

من قاتل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر • لقد أدرك أنه في هذا المكان انما سيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع • وفكّر ميتيا دقيقةً ، متكئاً بكوعه على
المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده • صمت الاتمان كلاهما •

استأنف ميتيا كلامه يقول :

— أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعى دون أن تضحك •••
أريد أن أبدأ ••• أن أبدأ ••• اعترافى ••• مرتلاً نشيد الفرح الذى
كتبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من
النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » • حذار خاصة أن يذهب بك الظن
الى اننى سكران • ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلم • الكونياك هو
الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر

قد امتطى يوما حمارا يترنج *

••• وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير • ثم اننى ان
لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) • أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد
اتخذته الى الأبد ! افقر لى هذه النكتة القائمة على الجنس اللفظى • وهناك
أمور أخرى سيكون عليك أن تفقرها لى اليوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة
قائمة على الجنس • اطمئن بالآ ••• اننى أهذر ولا أهرف ••• اننى
أتكلم جاداً ، وأمسُ قلب الموضوع • لا يخطر ببالى أبداً أن أتبه فى لف
ودوران • انتظر ••• اننى أحاول أن أتذكر •••

ورفع دمتري فيدروروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو

هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجولون *
اختبأوا شبه عراة في المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات *
كان الصيادون المسلحون بالاقواس والنبال
يبثون الذعر في قلب كل حي يتنفس *
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطئ اجنبي *
من أعلى الأولب الهادئ
هبطت سيريس الأم على الأرض
تبحث عن بروذرين *
ناصبتها الأرض العناء
لم يستقبلها أحد
لم تجد مأوى لها في مكان
بحجت الالهة عبثا عن معبد
يمجد ألوهيتها *
لا يرى أحد في المآدب
نهار الطبيعة مضيتة ساطعة *
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرايين المضحى بها *
تأملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا وأسى *
في كل مكان يدل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له !!

وفجأة أخذ صدر ميتا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب * أمسك
أليوشا يده *

— أخى ، أخى ، صديقى ! مذل هو الانسان حتى اليوم * رهيب
مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان * لا تحسبن ، لأن لى رتبة ضابطه
أنتى امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالنساء ! اتنى فى الواقع لا أفكر الا فى مصير البشر الذى يدعو الى
الشفقة والعطف والثناء ، ذلك هو اهتمامى الوحيد تقريبا ، وما أنا
بكاذب عليك البتة • ألا فلتشهد السماء أننى لا أكذب ولا أتباهى فى هذه
اللحظة ! ان المصير الفاجع الذى كتب على البشر يعذبنى تعذبا شديدا ،
لأننى أنا نفسى واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء •

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعثا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الابد •

ولكن الصعوبة هى هذه : ما عسانى أفعل من أجل أن أعاهد
الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب
أن أصبح فلاحاً أو راعيا صغيرا ؟ اننى أسير فى الليل دون أن أعرف
أنا أغوص فى الوحل والمار ، أم أنا أقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك
هو بعينه البلاء : ان كل شئ فى هذا العالم لفر • حين كان يتفق لى أن
أغوص الى القرارة من هوة الدناة والمهر (ولم أكن أفعل شيئا غير هذا
على كل حال) ، فقد كنت فى كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التى
تحدثنا عن سيريس وعن الانسان • فهل أصلحنى ذلك ؟ كلا ثم كلا !
لأننى كارامازوف • فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسى
فى الأمام ، وقسمائى فى الفضاء • حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة • من السقوط
على هذا النحو المزرى المذل المهين ؟ اننى أحس عندئذ بنوع من المتعة
الفنية • فاذا بلغت القرارة من هوة الدناة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد •
ألا فلاكن ملعونا ، ألا فلاكن منحطاً سافلا ، ولكننى أريد ، أنا أيضا ،
أن أقبل ذيل الثوب الذى يتدثر به الهى • لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فاني أظن ابنك ، لأنني أحبك ، ولأن في نفسي سبيلا الى الفرح الذي
لولا ما وُجد الكون •

روح العالم التي خلقها الله *
تغني الفرح الى الأبد •
الفرح قائم في أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة •
ينبت العشب من الأرض
يحول السديم شمسا
ينشر ضيائه الفجر
في الفضاءات التي لا نهاية لها •
كل حي يبتهج
في حضن الطبيعة •
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحدة •
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاء وأزهارا وثمرا •
هو اللذة في الحشرة ...
وهو الله في الملاك

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبارات ، دعني أبكي قليلا •
أسلم لك بأن في هذا حماقة وسخفا • وربما ضحك الآخرون منه ، أما
أنت فلا ... لقد رأيت شعلةً تومض في عينيك يا أليوتنا • كفانا الآن
شعرا • أريد أن أحدثك عن أولئك « الحشرات » ، عن أولئك الذين
وهب لهم الله اللذة •

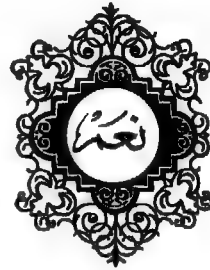
هو اللذة في الحشرة

أنا تلك الحشرة بسينها يا أخي ! هذه الآيات من الشعر انما
تستهدفني أنا خاصة • ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء
في هذه النقطة ! فبك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فبك أنت الملاك ! انها

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تثبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحبيت المجنون حتى فى العار • لقد أحبيت القسوة : ألسنت بقعة ، ألسنت حشرة خبيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكاه ركبنا سبع عربات ترويكاه • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التى كنت فيها أخذت ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقلبائى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة ••• تركت لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحت لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكثوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تفكر لى وتصنع عنى ، ولعلها ظلت تجبنى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظت أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتهمان

٤

اعتراف قلب حمار نذراً



لقد لهوت وعشت وتلذذت هناك ! ادعى أبونا
فى هذا الصباح أتى كنت أرمى ألوف الروبلات
من أجل أن أقضى على طهارة بنات فضليات !
كذب هذا الكلام ، كذب مقرّر ... لم يحدث
شئ من ذلك قط ! لم يطلب منى شئ من مال من أجل «هذه» . كان المال
أمراً ملحقا الحاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينة لا أكثر . أحب
سيدة فى ذات يوم ، فانا أنا فى الغداة أوتر عليها بتاً من بنات الشوارع .
وأنا أنفق على هذه وتلك كليتهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعياً الى تسليات .
أصحب المرأة الى المسارح ، وأخرج معها فى نزعات ، وأمضى بها الى
حفلات رقص الفجر ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخدم وغيرهم .
وكنتم أعطيهم من أيضا مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرسن على
هذه ، بل يحبينه حبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات
ممتنات . أحببته نساء من المجتمع الراقى ... لا جميع نساء المجتمع
الراقى ، بل عدد منهن ، عسدد على كل حال ... ولكن كانت تجذبني
دائما قبل كل شئ الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحياء
المرية البعيدة عن الأماكن التى يختلف إليها الناس . فهناك المغامرة ،

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تثبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحيت المجون حتى فى العار • لقد أحيت القسوة : ألسنت بقعة ، ألسنت حشرة خيثة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزوة جماعية • ركبنا عربات ترويك • ركبنا سبع عربات ترويك • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التى كنت فيها أخذت ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة ••• تركت لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحت لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تابعانى من ركن من الصالة ، فالأحظ الومض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكظوم الذى يفصح عن حلق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحببى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحح أن لى رغبات منحلة ، وأننى أجد لذة فى الاتحاد الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتهمعان

وتسلمان • طيب ••• لن أزعجك بعد الآن بسر مثل هذه الحكايات
القدرة المزرية • ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئا قليلا ••• هو زخرفات
اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في
نفسى واستولت على • واستبدت بى • ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندى
••• ان لى منها « ألبوماً » كاملا ••• ولقد كنت أحاول دائما ، حين أقطع
صلى باحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك
المفاجيء العنيف ، وأن أتقى المشاكل والمشاهد • ثم اننى ما أفشيت سراً
فى حياتى قط ، ولم أعرض سمعة احدا من لسوء • ولكن كفانى ما قلته
حتى الآن فى هذا • أرجو أن لا يدور فى خلدك أنتى جئت بك الى هنا
لأفص عليك هذه المائس ! اطمئن بالآ ! هناك أمور أشق من هذه الأمور
أحب أن أفصى بها اليك • ولا يدهشك مع ذلك أنتى لا أستحي منك ولا
أشعر بخجل أمامك ، وأنتى ربما كنت ألتذ بإيقاظ هذه الذكريات فى
حضورك •••

قاطعه أليوشا سائلاً :

- أأنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهى ؟ ان وجهى لم
يحمر بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأننى مثلك •••

- أنت ؟ أنت مثلى ؟ ألا انك لتبالغ قليلا •••

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

- لا ••• لا أبالغ (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة
طويلة) • ليس بيننا الا فرق فى المقدار • نحن لا نقف على درجة واحدة
من السلم • فأنا ما زلت فى أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى
الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ••• أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد فى الحقيقة ، واحد تماما . . . ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته .
- ففى رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

- يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .
- هل تستطيع هذا أنت ؟
- يبدو أتنى لا أستطيع .

- اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزى الطيب الشهم • وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً • ان تلك الوغدة جروشنكا خيرة فى شئون الرجال ! لقد آكدت لى ذات يوم ان فى وسعها أن تزدردك لقمة واحدة • هأنذا أسكت عن الكلام فمما أقول شيئاً بعد • دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتى الشخصية . . . التى ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهى معجونة بالخسة والدناءة أيضاً • اسمع : لئن افترى أبونا على حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفى ان ذلك بعينه هو ما حدث فى مأساتى ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة ، أو قل أخيراً انه لم يحدث قطه • وأبونا المعجوز الذى اتهمنى بفعال دينية كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة فى مقابل ذلك • اتنى لم أحدث عنها انساناً فى يوم من الأيام • ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعا • ذلك أن ايفان قد عرف كل شئ ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل • ولكن ايفان قبر •

- ايفان قبر ؟

- نعم •

كان أليوشا يصفى الى كلام أخيه باتباه شديد • وبدأ دمتري يقص
حكايته • قال :-

- رغم أننى كنت ملازما (ليوتان) فى تلك الكنية ، وهى كنية
ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعانى ، أشبه أن
أكون منفيا من المنفيين • وقد استقبلنى مجتمع المدينة الصغيرة التى فيها
المسكر استقبالا ممتازا واحتفى بى واكرم وفادتى • كنت أنفق المال
بغير حساب ، وكانوا يظنوننى غنيا ، وكنت أنا أظن نفسى غنيا كذلك •
يدو على كل حال أنهم قد استلطفونى لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا
ما يهزون رؤوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبونى كثيرا • وفجأة
أخذ الليوتان كولونيل ، وهو رجل طاعن فى السن ، أخذ يناسبنى
العداء ، ويلتمس الفرص لماكدتى ومشاكستى • غير انى لم أكن بلا
سند أعتمد عليه ، وانحازت المدينة كلها الى صفى ، وتحزبت لى • ثم
انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكرى منى والحق الأذى
بى • ولا شك فى أننى كنت مخطئا فى حقه ، لأننى تعمدت أن لا ألتزم
ما ينبى أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير والتعظيم • لقد كنت
أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذى لم يكن امرا
خيئا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ،
ولكن ماتت زوجتها كلاتهما • فأما الأولى ، وهى مخلوقة بسيطة متواضعة ،
فقد خلقت له بنتا ساذجة الطبع كأمها كانت فى ذلك الأوان تقترب من
السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احدى
خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع هى أيضا •
ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتى الليوتان كولونيل ، كانت تجمع الى
بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرنى وأنا أستحضر

ذكرها أن أطريها وأتى عليها : اننى يا صديقى لم ألق فى حياتى امرأة
تضارع تلك الفتاة جمال طبع • كان اسمها آجاتى ••••• تصور •••
آجاتى ايفانوفنا • ولم تكن خالية من الحسن فى الذوق الروسى : قامة
طويلة ممثلة قوية ، عنان رائعتان ، ولكن فى تعبيرها شيئا من عامية •
ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خطبت مرتين • لقد رفضت الخطبة الأولى
والخطبة الثانية كليهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلاها وصفاء مزاجها •
وقد اعتقدت الصلة بينى وبينها - لا على تلك الطريقة ، لأن كل شىء قد
ظل بيننا طاهرا بريئا - وانما أصبحنا صديقين لا أكثر • والواقع أنه
كثيرا ما اتفق لى أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة • وكنت
حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما
تزيد على أن تضحك • اعلم أن نساء كثيرا يحببن الصراحة •• ولكن
تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسلىنى كثيرا • يجب أن أضيف الى
ذلك أن فى وسع المرء أن يسميها آمنة • وكانت الفتاة وعمتها تحتجبان
فى منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع الروسين ، ولا
تضعان نفسيهما فى مستوى سائر أفراد المجتمع • وكان الناس جميعا
يحبون آجاتى حبا عظيما ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة :
لقد كانت تملك موهبة فذة فى الخياطة ، ولكنها لا تقاضى عن خدماتها
أجرا ، وانما هى تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر • على أنها كانت
لا ترفض أخذ شىء من المال اذا عرض عليها • أما اللبوتان كولونيل
فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف • لقد كان شخصية من أهم
شخصيات المدينة • كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف فى منزله
كثيرا ، ويقيم مأدب غداء ، وينظم أمسيات رقص • وحين وصلت الى
المدينة والتحق بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث
عن ابنة اللبوتان كولونيل الصغرى التى ستصل قريبا ، والتى يقال انها

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية
 ارسقراطية ببطرسبرج أتمت فيها دراستها . ان هذه الفتاة الاخرى ليست
 الا كاترين ايفانوفنا نفسها ، بنت الليوتنانت كولونيل من زوجته الثانية
 التي ماتت هي أيضا . كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة
 - أحسب أن أباهما كان جنرالاً معروفاً - رغم أنها لم تحمل الى زوجها ،
 هي أيضا ، مهراً ضخماً ذلك أمر عرقته من مصدر مطلع . لقد
 كان لها اذن اقرباء ، وربما كانت لها امال في أكثر تقدير ، اما المال فلم
 يكن عندها مال . . . على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد
 جاءت زائرة فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباحا
 ان صح التعبير . فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتنا « صاحبي
 سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن
 يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في اقامة المآدب لها . لقد أصبحت
 الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على
 شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن .
 لم أقل أنا شيئاً ، بل بقيت بعيداً متتجهاً ، ألهو وأقص على ما يشاء لي
 هواي . وفي تلك الآونة بعينها انما اترفت فضيحة من تلك الفضائح
 التي أثارت العياط والزياط في المدينة كلها . لقد لاحظت في ذات مساء
 أثناء حفلة استقبال أقامها كومنندان الكلية ، أنها كانت تروني بنظرها ،
 ولكنني لم أقرب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت
 لي للتعرف بها . وبعد ذلك بزمان قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن
 أتجه اليها بالكلام . فلم تكذب ترضي أن تنازل فتظنر الى ، وعبرت شفتاها
 عندئذ عن احتقار . قلت بيني وبين نفسي عندئذ : « اصبري قليلا . . .
 سأعرف كيف أثار لنفسي » . وكنت في ذلك الأوان شرس الطبع ،
 شديد التهور . . . وكنت أعرف ذلك في نفسي . . . وقد شعرت خاصة

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الآنسات المبالغات الكثرات بنات المدارس الداخلية ، وإنما هي إنسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقاً والامر الذى أشعرنى بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أننى لا ذكى ولا مثقف . لملك تظن أننى أردت أن أخطبها ؟ أبداً . كل ما كنت أتمناه هو أن أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثار منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى . وياتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصفت بغير قصد ولا اعتدال ، حتى أن الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسنى ثلاثة أيام . وفى تلك الآونة انما أرسل الى أبوك ستة آلاف روبيل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الأخرى . لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد « صفينا حساباتنا » ، وبأننى لن أطالبه فى المستقبل بشئ البتة . ولقد كنت لا أفهم شيئاً من أمر هذه الحسابات فى الماضى . ويجب أن أعترف لك ، يا أخى أليوشا ، اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئاً من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أبينا . على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن وان لى اليها عودة . المهم أننى بعد أن تلقيت المال بزمان قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الى صديق ، أمراً يمكن أن يهمنى كثيراً وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا الليوتنان كولونيل ، وانها تشبه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة . وما هو ذا أمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرع صاحبنا الليوتنان كولونيل تقرعاً شديداً ، وما هى الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمراً بتقديم استقالته . لن أقص عليك تفاصيل هذه الحكاية . فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء . وقد

تنكرت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفي تلك الآونة انما ارتكبت غلطتي الأولى • ففي ذات يوم التقيت بأجاتي ايفانوفنا التي ظلمت صديقا لها :

« - هل تعلمين أن الاموال التي في عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟
فقلت لي آجاتي :

« - كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا ...
قلت لها :

« - صحيح • كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى » •
جزعت آجاتي • وقالت :

« - لا تخفني ! من قال لك هذا الكلام ؟

فأجبتهما :

« - اطمئني ... لن أقول لأحد كلمة واحدة • أنت تعلمين أنني كالقبر صمنا حين يجب الصمت • ولكنني أحب أن تعرفي أيضا ما يلي :

إذا طوَلب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردّها فسيكون عليك - حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه في آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا - سيكون عليك أن تبغى الى ، خفيةً ، بأختك الآنسة طالبة المدرسة الداخلية • لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبيك منه عن أربعة آلاف وخمسمائة روبل • وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر في يوم من الايام •

هتفت تقول :

« - يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هى الكلمة التى استعملتها) .
يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ... ؟ » .

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لها مرة أخرى
ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، واننى سأحافظ على السر محافظة
تامة ، وأكتمه كتمانا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ،
آجأتى وخالتها ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كانتا فى
الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادةً ، وتمسّحان أمامها امحاءً ، وتمسّحان
بين يديها كخادمتين ... ومع ذلك أسرعرت آجأتى تقص الحداث على
أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها
كل شيء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع . »

« فى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستلم قيادة
الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالليوتان كولونيل المعجوز
يمرض بقتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلم أموال
الدولة . وقد أكد طبيينا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهر
بالمرض تظاهرا . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقد اطلعت على
تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخزنة
عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك
دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقد كان الليوتان كولونيل
يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرمل المعجوز
تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفونوف
يمضى بالمبلغ الى « المرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى
المدينة رد المبلغ المقرض الى الليوتان كولونيل مضيفا اليه القوائد وبعض

الهدايا • ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ
 المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القدر الذى هو
 ورثته والذى هو أقصد مخلوق فى هذا العالم) • لم يرد تريفونوف
 المبلغ اذن • فلما هرع اليه الليوتان كولونيل يطالبه برد المال قال له
 تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان فى وسعى أن أقترض
 منك شيئاً على كل حال » • فاذا بصاحبنا الليوتان كولونيل يرقد فى
 فراشه ، ويغطى رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه
 ثلجاً • وفجأة يصل الى منزله فرأى حاملاً دفر الحصابات مع أمر بردّ
 « أموال الدولة بغير ابطاء » فى غضون ساعتين على أكثر تقدير • • فيضع
 المعجوز توقيع على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت توقيعه بنفسى فيما
 بعد ، ثم ينهض قائلاً انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى
 غرفة نومه ، فيتناول بندقيّة صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من
 رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقيّة على
 صدره ، ويلمس الزناد باصبع قدمه • ولكن آجأتى التى ساورت فكرها
 شبّهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها كانت قد تسلمت
 وراءه خلسة ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه ،
 فهرعت الى الفرقة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه ، فانطلقت
 الرصاصات فى اتجاه السقف لم تجرح أحداً • وهرعت المرأتان الأخريان
 أيضاً ، فتمت السيطرة على المعجوز ، وانتزعت منه البندقيّة • • • لقد
 روى لى هذا المشهد تفصيلاً فيما بعد • • • وكنت فى تلك اللحظة فى
 مسكنى • وكان الوقت مساءً ، فأنا أستعد للخروج • لقد ارتديت ثيابى ،
 وصفت شعرى ، وعطّرت مندىلى • • • وانى لأتناول قهقهى ، اذا بالباب
 يُفتح فجأة ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى • • •

« ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة • • وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الىّ ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن في شقة أُجَرَّتْنيها أرملةتا موظفين صغيرين ، طاعتان في السن جدا ، تخدماني باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامري طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد في أمر هذه الزيارة ، فكاتتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شيء من أول نظرة طبعا . دخلت الفتاة ، ونظرت الىّ وجهاً لوجه . كان في عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئاً من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

• - قالت لي أختي انك ستعطيني أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك بنفسى . فها أنا ذا جئت هات المبلغ ! ، .

• لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئاً ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتهها وارتجفت شفتاها ، واختلج خداها . أتصنئ الىّ يا أليوشا أم تراك نم ؟

قال أليوشا مضطرباً :

- ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لي الحقيقة كلها .

- سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسي . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التي ساورتني هي فكرة جديدة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لي في الماضي يا أختي أن لدغتنى حشرة فرقدت في فراشي أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرة أخرى قد لدغتنى في تلك اللحظة في القلب من جسدى هي الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شقلت الفتاة ببصرى . هل رأيتهما ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لي جميلا عندئذ : لقد كانت في تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الىّ

أنا الشقى ، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس
الى أنا البقة الحقيرة ! وما هي ذى الآن تقع تحت سلطان هذه البقة ،
ها هي ذى الآن خاضعة خضوعا كاملا لي أنا ، أنا الشقى ، خاضعة كلها ،
جسما وروحا • انها كلها تحت رحمتي ••• سأعترف لك بالحقيقة من
غير لف ولا دوران : ان هذه الفكرة التي خطرت ببالي ، ان فرحة
الحشرة هذه التي نبتت في نفسي ، قد استولت على أول الامر استيلاء
تاماً وملأت قلبي الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر • بدا لي أنه
ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لي الا أن أتصرف تصرف بقة ،
تصرف رتيلاء مفترسة ، بغير شفقة ولا رحمة ••• وكادت تنقطع من
ذلك أنفاسي • افهمني حق الفهم ••• انه لبيديهي أنتي لو فعلت لمضيت
أخطبها منذ القد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما
يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة في أي مكان • صحيح
أن لي شهوات دنيئة ، ولكنني مع ذلك رجل شريف • غير أنني في تلك
اللحظة سمعت كأن صوتا يهمس في أذني قائلاً " دعك من هذا ••• ان
هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها في القد ، وستكتفي بأن تأمر
حوزيتها بأن يخرجك مطرودا • ستقول لك : افصح سمعتي ، وشهر
بي في المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك " • ألقيت نظرة على الفتاة ،
فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبني ، فذلك بعينه ما سيحدث • لسوف
أُطرد شر طردة : انتي أقرأ هذا في عينيها منذ الآن • استولى على حق
مسموع حين خطرت ببالي هذه الفكرة ، فاشتبهت فجأة أن أقوم بأقبح
وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظر اليها
مبتسما وأدمرها تدميراً في مكانها ، هنا ، أمامي ، قائلاً لها بلهجة لا يجيدها
الا صاحب دكان :

• - أجئت حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عائناً يا آمنة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامي
محمل الجد ! ماثا روبل ، معقول ! ... لو سألتني أن أعطيك مائتي
روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ... أما أربعة آلاف روبل يا آمنة ،
فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الالهة من أجل أمور تافهة كهذه !
لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آمنة !

« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء
طبعاً ! كانت ستتهرب ... ولكنني أكون قد تأرت لنفسى ثأراً رهيباً ،
وأكون قد أَرْضِيت كرامتي الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكى
طوال حياتي بعد ذلك ، حنقاً وحسرة وأسفاً ، ولكنني لو قلت لها ذلك
الكلام لاستطعت على الأقل أن أتصر عليها في تلك اللحظة اتصارا
ساحقاً ! صدقني اذا قلت لك انني لم يتفق لي يوماً أن نظرت الى أية
امرأة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما في تلك المرة فقد
لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ...
أحلف لك ... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لاتفصله
عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت
جيني على زجاجها البارد ... انني أتذكر الآن أن ملازمة الزجاج
المتجلد قد أحدثت لي احساساً بحرق قوى . اطمئن : لم أبقها عندي
طويلاً . التفت ، واتجهت نحو منضدتي ، ففتحت الدُرَج وأخرجت
منه الحوالة التي كنت قد أودعتها معجى الفرنسى ، وهى بمبلغ خمسة
آلاف روبل تدفع « لحامله » . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة
واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسى ،
ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحيتها منحنيًا حتى الحزام ، تحيةً فيها
أعظم الاحترام ... تستطيع أن تصدّق ذلك ! ... ارتعشت الفتاة من
أخصص قدميها الى قمة رأسها ، وحدّقت الى لحظةً ، وانكفأ لونها انكفاء

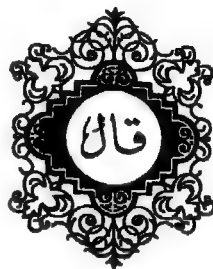
رهيباً ، ثم اذا هي ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تتحنى هي أيضاً ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحنى ساجدةً هذا السجود ، لا على طريقة آتمة تعلمت في مدرسة داخلية ، بل على الطريقة الروسية . ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة . وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أعمدته في صدري . لماذا ؟ لا أدري ! لو قد فعلت لكان هذا منى حماقة طبعاً ، ولكن أحسب أن ذلك كان نمرة الحماسة . هل تفهم أن من الممكن أن يقتل الانسان نفسه في بعض لحظات الحماسة ؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده . تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال . ويحيل الى أنني قد زخرفت دورى قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلها ، وأنني قد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسي . لا ضير لنسلم بهذا تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هي « مغامرتي » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخي ايفان ولا أحد يعرفها سواكما !

نهض دمتري فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديداً ، وأخرج منديله فجفف به جبينه . ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه .

اعتراف قلب حار والقدمان في الفضاء .

أليوشا :

- الآن عرفت الجزء الأول من القصة .
- عرفت الجزء الاول ، وهو درامة مُثَلَّت في مدينة أخرى . أما الجزء الثاني فهو تراجيدية ستجرى أحداثها هنا .



قال أليوشا :

- لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني .
- وهل تظن أنني ، أنا نفسي ، أفهم من هذا الجزء الثاني شيئاً كثيراً ؟
- لحظةً يا دمترى . هناك عنصر أساسي . قل لي : أنت خطيها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيها ؟

- لم أخطبها فوراً ، وانما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع . قلت لنفسي غداً ذلك اليوم ان كل شيء قد انتهى ، وانه لن يكون لما وقع تمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغاراً . وهي ، من جهتها ، لم تحرك ساكناً طوال الأسابيع الستة التي قضتها في المدينة بعد ذلك ،

ولا أشعرتنى بوجودها ، اللهم الامة واحدة فى الواقع : ففى اليوم الذى أعقب زيارتها جاءتنى خادماتها وأعطينى حزمة دون أن تتطو بكلمة واحدة • قرأت على الحزمة عنوانى • • وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت فى حاجة الى أربعة آلاف وخمسمائة فقط ، فباع السند بخسارة قدرها أكثر من مائتى روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الى الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن ، ولكننى لا أتذكر مقدار المبلغ تذكرأ واضحاً • لم يكن فى الحزمة الا المال • • • لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • بحث فى داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشئ • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصص مزبدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعنى تقريباً شديداً • أما الليوتان كولونيل فقد ردَّ أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكا واحداً ، فدهش جميع الناس ، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد ردَّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقداً ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغى على حين بفتة فمات بعد خمسة أيام • وقد شيعت جنازته تشييعاً عسكرياً لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التى طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفى تلك اللحظة فقط (فأننى ما رأيتهن مرةً أخرى ولا ودعتهن فى المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأبيض ذى الحافة المخرَّمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتى • • - ك » • ذلك كل شئ •

سأسرده عليك التمتة مقتضيا موجزا • فى موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المسراء له مثيلا الا فى الحكايات

الشرقية • لقد فقدت قريبتهما الجزالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها إليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجزالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألت ألماً شديداً ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتهما كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الوحشة وعزلتها الكثية • استولت الجزالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها • على أن الوصية ليست الا آمالاً • غير أن العجز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجل أن تستطيع التصرف فيه . على ما يشاء لها هواها • كانت الجزالة امرأة هستيرية ، وقد أتبع لى أن ألاحظها بعد ذلك فى موسكو • فى ذات يوم ، تلقت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلّت أكبر الدهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً • وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتني الرسالة الموعودة • ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائماً ، وسأحتفظ بها حتى الممات • هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ؟ • • • انتى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض علىّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىّ هذا بنفسها رأساً • كتبت تقول ما معناه : « انتى أشعر نحوك بحب لا حدود له • ولست أطلب منك أن تحبنى اذ كنت لا أستطيع ذلك • كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى • لا تخش شيئاً : فانتى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أنات فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها • • • انتى أريد أن أحبك الى الأبد ، انتى أتمنى لو أتهذك من نفسك • • • لا أستحق يا ألبوسا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظي القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها فى يوم من الايام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبى ، فما يزال ينزف
بتأثيرها حتى الآن • أظن أتى مرح النفس فى هذه الأيام ، وأن وضعى
لا يعذبني عذابا شديداً ؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأننى كنت لا أستطيع أن
أسافر الى موسكو فوراً) ، كاتباً لها من خلال الدموع • غير أن هناك شيئاً
سأظل أشعر منه بالحزنى والعار ماحيت • لقد ذكرت فى رسالتى التى
بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة ، وأن لها بائة ضخمة ،
أما أنا فليست الا ضابطاً فقيراً ليس له علاقات • نعم ، لقد كلمتها عن
المال ، كلمتها هى عن المال ! ••• كان ينبغي لى أن أسكت ، كان ينبغي
لى أن أقبل هذا التفاوت بينى وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت
منى رغم أنفى ••• وكتبت فى الوقت نفسه الى ايفان الذى كان يومئذ
بموسكو • عرضت عليه الموقف عرضاً دقيقاً فى حدود الامكان - ضمت
الرسالة ست صفحات - وكلفت ايفان أن يذهب اليها • لماذا تنظر الى
هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحلقه ؟ نعم ••• لقد وقع ايفان فى حبها ،
وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك ••• فى رأيكم أتم وفى رأى الناس
أننى ارتكبت بهذا حماقة كبرى ••• ولكن من الممكن أن تكون الحماقة
هى الآن سيلنا الوحيد الى الخلاص جميعاً ! ألسنت ترى مدى ما تكنه له
من تقدير ، بل وما تحمله له من اعجاب ؟ كيف يكون فى وسعها اذا
هى وازنت بينى وبينه ، أن تحب رجلاً مثلى ولا سيما بعد كل ما حدث
هنا ؟

- أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله

هو •

- هى ؟ لا ••• انها لا تحبنى أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأريحية

قلبها وشهامة روحها •••

ذلك ما أفلت من لسان دمترى فيدوروفتش مع شىء يشبه أن يكون

كرهاً • ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

- أحلف لك يا أليوشا ••• صدّق أو لا تصدّق ••• أحلف لك صادقاً صدق وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربنا ، أحلف لك أنتى ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أنتى لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسى لا تعدل جزءاً من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقينى من هذا هو بعينه مأساتى كلها ••• أى خير فى أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوب أظهر اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألسنت أستعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جداً • أما ايفان فانتى أتخيل أنه فى هذه الساعة يلعب الطبيعة ولا شك ، يلعب الطبيعة هو الرجل الذكى ذلك الذكاء كله ! من الذى تفضله المرأة ؟ ما الذى تؤثره المرأة ؟ انها تخصص بايثارها الانسان النذل الذى هو أنا ، الانسان الذى برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بعيله الى الدعارة والفجور ، رغم اثاره خطيئته ، هل تفهم ؟ نعم ••• رغم اثاره خطيئته ••• فهذا هو الرجل الذى يؤثر ، أما الآخر فيبعد ••• ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعدتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطرى هذه فى يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أى اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر • ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذى يستحقه ، وأما الآخر الذى لا يستحق ذلك المكان فيغوص فى الأزقة المظلمة ، ويختفى من حياتهما الى الأبد • ان هذا الآخر سيجد له مأوى فى الأزقة الموبوءة العفنة التى

يجبها ، والتي تستهويه وتجذبه اليها ، والتي يشعر فيها أنه في بيته ،
ليهلك هنالك في البحارة المقززة راضيا عنها متلذذا بها • اننى أسترسل
الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن
الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه • سأعطس أنا فى الحضيض ،
وستزوج هى ايفان •

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا
شديدا :

- لحظة يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن :
أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شيء ••• فكيف
يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطيبتك ،
لا تريد ذلك ؟

- أنا خطيبها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع
القواعد المقررة ، وقلنا جميع المباركات المألوفة المعبودة • تمّ ذلك فور
وصولى الى موسكو ، تمّ فى كثير من الأبهاء وسط كثير من الأيقونات
مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا
الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا - هل تصدق ذلك ؟ - هنأتها
قائلة لها : « أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفس هذا
الفتى • • • أما ايفان فقد ناصبته العداة - هل تتصور ؟ - ولم ترض أن
تهنئه ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ،
فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا
دقيقا صادقا ، فكانت تمنى الى ما أقول باتّناء شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع
وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلاماً فيه كبرياء وخيلاء • وأجبرتني على أن أقطع
على نفسي عهداً لأصلحنّ حالي • قطعت لهما على نفسي ذلك العهد •
وهأت ذا ترى •••
- ماذا ؟

- لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجيء الى هنا في هذا النهار
- تذكر التاريخ - من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء الى كاترين
ايغانوفنا ، فتبلغها •••
- أبلغها ماذا ؟

- انني لن أذهب اليها بعد اليوم قط • وانقل اليها تحيتي
• واحترامي •

- ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟
- هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسى ، فما عساني
قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟
- وما الذى ستفعله بعد ذلك ؟
- أضيّع نفسي فى الأزقة !

- هي اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟
بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احدهما الى
الأخرى • وتابع كلامه :

- أياكون ما قاله راكيتين هذا صحيحا وا أسفاه ! أعترف لك بأننى
قد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكننى كنت آمل أن
تكون قد سمعتها أخيراً •

- الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرتضى الانسياق الى منزلها ؟ أظن أن هذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كذلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء . صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر آفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الى هكذا ؟ اعلم اننى حين ذهبت اليها أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضابط الذى يكلفه أبى بقضاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً مهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطررنى بهذه الوسيلة أن أنسحب . لقد أرادوا تخويفى . لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحدث فى نفسى أثراً كبيراً لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارخته قواه ، ولكنه سترك لها مع ذلك بعد موته كنزاً كبيراً ؟ وكنت أعلم أيضاً أنها تحب المال حباً عظيماً ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض برىا فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوعدة ، هذه الحقيرة . . . فذهبت اليها لأضربها . . . فاذا أنا أؤخذ بها . . . كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمه . . . ولكننى قد أصبت وما أزال . وأنا أعلم أن لا مهرب لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئا سواها . . . وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا سحاذاً . . . فذهبتنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فاستديت هنالك غنجراً ، رجلاً ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أَسْقَى بِسَخَاءٍ ، بِوَفْرَةٍ . . . كُنْتُ لَا أَحْسِبُ مَا أَنْفَقَ مِنْ مَالٍ ، فَمُنَّاتِ
الرُّوْبِلَاتِ تَذْهَبُ بَعْضُهَا وَرَاءَ بَعْضٍ ، فَمَا هِيَ إِلَّا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ حَتَّى خَلَا
وَفَاضَى فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ شَيْءٌ . . . وَلَكِنِّي كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّنِي قَدْ غَزَوْتُ هَذِهِ
الْمَرْأَةَ وَاسْتَوْلَيْتُ عَلَيْهَا . فَهَلْ تَظُنُّ أَنَّنِي قَدْ وَصَلْتُ مَعَهَا إِلَى شَيْءٍ ، هَلْ
تَظُنُّ أَنَّنِي ظَفَرْتُ مِنْهَا بِشَيْءٍ ؟ أَبَدًا . . . لَمْ أَتْلُ مِنْهَا شَيْئًا الْبَتَّةَ . لَقَدْ
رَفَضْتُ ، بَلْ لَمْ تَتَنَاوَلَ حَتَّى أَنْ أَتَأَمَّلَ جَمَالَ جَسَدِهَا مُعْجِبًا بِهِ عَنْ بَعْدِ !
إِنْ لَهَا قَوَامًا . . . أَوْه . . . لَنْ أَقُولَ لَكَ إِلَّا هَذَا . . . قَوَامًا . . . إِنْ فِي
جَسَمِهَا نَوْعًا مِنْ تَنْزِيلٍ تَرَاهُ فِي السَّاقِ أَيْضًا ، وَتَرَاهُ حَتَّى فِي الْأَصْبَعِ
الصَّغِيرِ مِنْ قَدَمِهَا الْيَسْرَى . لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْأَصْبَعَ ، وَقَبْلَهُ . . . وَلَكِنْ
ذَلِكَ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ ، أَحْلَفُ لَكَ . كَانَتْ تَقُولُ لِي :

« - أَتَزُوجُكَ إِذَا شِئْتَ ، رَغْمَ فَقْرِكَ - عِدَّتِي بِأَنْ لَا تُضْرِبَنِي ، وَبِأَنْ
تَدْعَ لِي أَنْ أَفْعَلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا يَحُلُو لِي ، قَرِيبًا قَبْلَ عِنْدُكَ أَنْ أَصْبِحَ
زَوْجَتَكَ . »

« كَانَتْ تَقُولُ ذَلِكَ ضَاحِكَةً ، وَهِيَ مَا تَزَالُ تَضْحَكُ إِلَى الْآنِ ! »

نَهَضَ دِمْتْرِي فِيدُورُوفْتَشْ عَلَى حِينٍ فَجْأَةً وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْ
غَضَبٍ مَسْمُورٍ . أَصْبَحَ كَالسَّكْرَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً . احْتَقَنْتَ عَيْنَاهُ دَمًا .

- وَهَلْ تَرْفُضُ أَمْتُ أَنْ تَتَزَوَّجَهَا ؟

- إِذَا وَافَقْتُ تَزَوَّجْتُهَا فُورًا ؟ وَإِذَا رَفَضْتُ بَقِيتُ إِلَى جَانِبِهَا وَلَوْ
خَادِمًا . هَلْ تَعْلَمُ أَمْتُ . . . أَمْتُ . . .

تَوَقَّفَ دِمْتْرِي فِيدُورُوفْتَشْ فَجْأَةً أَمَامَ أَلْيُوشَا ، فَأَمْسَكَهُ مِنْ كَتِفَيْهِ ،
وَأَخَذَ يَهْزُهُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ . . .

- هَلْ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الطِّفْلُ الْبَرِيءُ ، هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَيْسَ إِلَّا
هَذِيانًا ، لَيْسَ إِلَّا كَلَامًا يَدُلُّ عَلَى جُنُونٍ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ فِي الْوَاقِعِ أَمْرٌ مَأْسَاةٌ ؟

اسمع يا ألبوشا : أنا رجل دنيء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضييعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيراً ، أما أن أكون لصاً صغيراً شقيماً ، فذلك ما لن يرضاه دمترى كارامازوف لنفسه في يوم من الأيام ! ألا فأعلم اذن أنتى لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففي ذلك الصباح الذى ذهبت فيه الى جروشسكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتنى الى منزلها سرا ، وكلفتنى (راجية أن أنفذ طلبها فى الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتى ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هى التى كانت فى جيبى حين ذهبت الى جروشسكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشسكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأننى ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكننى لم أسلم كاترين ايفانوفنا اىصال البريد ، وانما أكدت لها أنتى أرسلت المال ووعدتها بأن آتيا بالاىصال فى يوم آخر . ولم أعطها الاىصال طبعاً حتى هذه الساعة ، متعللاً بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فقلت اليها تحيتى واحترامى ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلا لها ؟ - أنت شقى يا ميتيا . . . هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع للباس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

- أترك تظن أنتى سأمتحر لأنتى لن أستطيع أن أجده ثلاثة آلاف روبل أردتها الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هى أنتى لن أمتحر ، لن أمتحر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكننى من الانتحار . لا أحد يدرى ما قد أفعله فى المستقبل . أما الآن فانتى لا أفكر الا فى الذهاب الى جروشسكا . . . وليكن ما يكون !

— وما الذى ستفعله عندها ؟

— أصبح زوجها • أنال هذا الشرف • فإذا جاء عشيقها يزورها
اختبأت فى الغرفة المجاورة • وسأظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء
فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة •••
قال أليوشا بصوت مهتاج :

— ان كاترين ايقانوفنا ستفهم كل شيء ، ستفهم مدى شقائك ،
وستفهم لك • ان لها ذكاء فذاً • لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ،
وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

— لن تغفر لى قط • هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضيها
أية امرأة • هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله ؟

— ماذا ؟

— أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل •

— ولكن من أين نجىء بهذا المبلغ ؟ اسمع: اننى أملك ألفى روبل،
ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف • خذ
هذه الآلاف الثلاثة ورُدّها اليها •

— ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جييك ؟ انك ما زلت الى
الآن قاصراً ، ولا بد حتماً أن تذهب اليها موفداً منى ، فى هذا اليوم
نفسه ، بالمال أو بدون المال، لأننى أعصبت لا أطيق احتمال هذا الوضع •
لقد بلغت الأمور حداً لا أملك معه أن أتنظر مزيداً من الانتظار • فى
غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات • سوف أرسلك الى أبينا •

— الى أيننا ؟

— نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل •

— ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال •
— أقدر ذلك • هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟
— أعلم •

— فاسمع اذن : اننى أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشى من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقى كاملة • ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمى ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف • فليعطنى من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطنى ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحى من هذا الجحيم ، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة فى مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا لا مين فيه أننى سأخفى متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهى بعدئذ ولا يسمع عنى • هذه آخر فرصة أتيجها له ليتصرف تصرف أب • قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة •

— أوه ... ميتيا ... انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •
— أعلم أنه سيرفض أن يعطى المبلغ • أنا من ذلك على يقين مطلق ، اليوم أكثر من أى وقت مضى ! بل اننى أعلم شيئاً آخر أيضاً : لقد بلغه منذ زمن قصير جداً ، فى الأيام الأخيرة ، ربما أمس فقط ، أن جروشكا تتكلم جادةً حين تعلن أنها تريد أن تتزوجنى • فلأول مرة ، أدرك « فعلاً » (« فعلاً » ، لاحظ كلمة « فعلاً » هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجنى حقاً • انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هى ! فهل يمكن أن يعطينى مزيداً من المال ليشجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقاً نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختومة ، وربط الحزمة بشريط أحمر متصالب في الاتجاهين . هأت ذا تلاحظ اتنى مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكى جروشكا ، اذا هي رضيت أن تجي » . كتب هذه العبارة بخط يده في كثير من العناية ، وفصل ذلك كله سرأ في الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذى يثق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجيء جروشكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ . لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها ، فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » . ولكن اذا ذهبت الى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ في هذا المكان مترقباً مترصداً ؟

— أتترصدها هي ؟

— نعم . ان هاتين العجوزتين الشمطولتين ، صاحبتى المنزل ، قد أجرتا توماس غرفة من بيتهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتى ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس فى الليل . انه فى النهار يمضى الى صيد ديوك الخلنج فيجنى من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند توماس هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السر ، أو يخطر ببالهما أننى هنا أترقب وأترصد .

— هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

— وحده . ثم انه سيلبئنى مجيئها بإشارة سريعة اذا هى جاءت .

— أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

— نعم ، فى الخفاء • وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر • لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الى تسرماشيا يوماً أو يومين • لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحَّ العجوز على ايفان قائلاً له : « اذهب الى هناك نيابةً عني • قدم لى هذه الخدمة » • وانما يهدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بقية أن لا يكون حاضراً حين تجيء جروشكا •

— أهو ينتظر اذن أن تجيء اليه جروشكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

— لا ••• لن تجيء اليه اليوم • هنالك قرائن تثبت لى ذلك • لن تجيء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) • وهذا رأى سمردياكوف أيضاً • ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان • اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة •••

— ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهالك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمتري فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا • (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جن) •

قال دمتري فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

— اطمئن • ما زلت أملك عقلى كاملاً • لا تخش شيئاً • أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا • اتنى أعتقد بحدوث معجزة •

— معجزة ؟

— معجزة الهية • ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب
وكمد ويأس • انه يرى ما يجرى هنا • فلن يرضى — أنا واثق من
هذا — لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع • انتى أو من بالمعجزة يا أليوشا !
اذهب اليه •

— سأذهب • هل ستنتظرنى هنا ؟

— سأنتظر • أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنتك لن تستطيع أن
تنجح فى مهمتك فوراً ، وأنه لن يكفى أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا
••• هات المال ! » • لا بد أنه فى هذه اللحظة سكران • سأنتظر ماوجب
الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعمائة بل اذا لزم •
واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب فى هذا اليوم نفسه ، ولو فى منتصف
الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمال أو بغير مال ، لتقول لها
اننى كلفتك ببلاغها تحيتى واحترامى • انتى أحرص حرصاً مطلقاً على
أن تقول لها هذه العبارة : « كلفنى بأن أقفل اليك احترامه » •

— ميتيا ! فماذا لو جاءت جروشكا غداً أو بعد غد ، هذا اذا لم تجيء
اليوم ؟

— جروشكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحول
دون الأمر مهما يكن الثمن •••

— فاذا حدث رغم كل شيء • أن •••

— اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال •

— من تقتل ؟

— أقتل العجوز • أما هى فلن أقتلها !

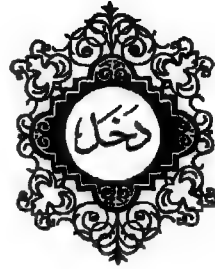
— أخى ، أخى ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

— لا أدري ، أصبحت لا أدري ... قد لا أقتل ، ولكن قد
أقتل ... أخشى أن لا أطبق رؤية وجهه القدر الكريه في تلك اللحظة !
انني أكره جوزه عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة
الوفحة الخلية . انه يوقف فيَّ استمزازاً جسيماً . ذلك ما أخشاه
خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جمالي وان أسيطر على نفسي .

— أنا ذاهب اليه يا ميتيا . انني مؤمن بان الله سيفعل كل شيء في
سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !
— وسأنتظرك أنا هنا آملاً أن تحدث معجزة . أما اذا لم تحدث
المعجزة ...

اتجه ألبوشا الى منزل أبيه مطرقةً مفكراً .

سردواكون



اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة
فعلماً • ولقد قُدِّمَ الطعام في الصالون ، كما
جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة
طعام •

الصالون أوسع حجرة في المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان
يكون أناته قديماً من باب الأبهة والعظمة • ان الأثاث كله قديم جداً ،
أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن • وعلى الجدران
بين النوافذ قد صُفِّت مرايا لها أطر مفضمة من طراز بالي ، بيضاء اللون
أيضاً ، ولكنها منمجة • والسجاد أبيض كذلك ، مهترى في مواضع كثيرة ،
والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احدهما صورة أمير من الأمراء كان
حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف
مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً • وفي الركن الذي يواجه باب المدخل ،
توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها في المساء مصابيح زيت ، لا من قيل
التقى بل لتظل الغرفة مضاءة أثناء الليل • ذلك أن فيدور بافلوفتش
لا ينام الا في ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه في الثالثة أو الرابعة
من الصباح ، ويقضي وقته قبل ذلك سائراً في الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً • لقد أصبح هذا عادة فيه •
وكان في بعض الأحيان يبقى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه
الى المبنى الملحق • ولكنه في أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف
الذى ينام فى الدهليز على دكة •

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجيء
بمررب وقهوة • ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى
بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك • وكان ايفان فيدوروفتش
بجانبه ، يحتسى القهوة معه • وكان الخادمان جريجورى وسمر دياكوف
واقفين قرب المائدة • وكان يبدو فى تصرف السידين والخادمين ، على
السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير ممهود • كان فيدور بافلوفتش يضحك
ملء خنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة
التي تتصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها فى أبيه حق المعرفة من قبل ؛
فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو
الآن مستمر فى نوبات ملاطفة ومطايبة •

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاحكاً صاحباً وقد سرّ فجأة أن يرى
أليوشا :

— ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس • قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ،
وهى ساخنة ولذيذة • لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن
تريد ••• هل تريد ؟ لا ؟ طيب ••• سأعطيك اذن خمرة ، خمرة
عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ••• الخمرة على الرف الثانى
يميناً • اليك المفاتيح • هيأ أسرع !

وكان أليوشا يتهايم منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة • قال له
أبوه مشرق الوجه متلهل الأسارير :

— لا تريد ؟ طيب ... لا بأس ... سيؤتى بها الينا نحن ، ما دمت
لا تريد أن تشربها ... بالمناسبة ، هل تغديت ؟

— تغديت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرة من
خبز واحسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان .

قال الأب :

— مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن
تسخين القهوة ؟ ولكن لا ... انها ما تزال تغلى . هى قهوة ممتازة ،
هل تعلم ؟ لقد أعدّها سمردياكوف . ان صاحبى سمردياكوف فنان
فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكولياكا* ، وكذلك فى طهى حساء
السّمك . هذا حق . يجب أن تجيء الينا ذات يوم ، فتذوق حساء
السّمك هذا ، ولكن عليك أن تبشئ بمجيتك سلفاً . آ ... صحيح ...
نسيت ! ألم أمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك
وأن تعود الى المنزل نهائياً ؟ هل أتيت بفراشك ؟ ها ها ها ...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضاً :

— لا ، لم آت به .

— لقد أخفّتك فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك ؟
يا طائرئ الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك .
ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينيّ هذه
النظرة ضاحكاً . ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ ... ذلك أننى أحبه ،
هذا الفتى . اقرب يا أليوشا ، فأننى أريد أن أمتحك بركتى الأبوية .

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

- - لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا •••
- اجلس هنا ••• سوف تسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك
- سوف تضحك يا عزيزي • تخيل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم
- هي تتكلم الآن ، تتكلم ••• وما أقصحتها !

ولم تكن حمارة بلعام التي يعيها الأب الا الخادم سمردياكوف. ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهو في الواقع جرىء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول في هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجورى فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميل » كما كان يقول جريجورى ، صيماً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء • كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة في أن يشنق قطعاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً ، فهو يتدثر في هذه المناسبات ببطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جبة القطة كمن يحمل مبخرة • وكان يسرسل في هذه اللعبة في خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى في ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة • فانزوى الصبي يومئذ في ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعاً برمه •

كان جريجورى يقول لمافرا اجناتوفنا :

• - ان هذا الصبي الشاذ لا يحبنا كلنا ، وهو لا يحب أحداً على كل

حال •

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

- أأنت كائن انساني ؟ ما أنت بانسان ... لقد وُلدت في رطوبة
الحمامات ، هذا أنت ...

لم ينفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال في يوم من الأيام ،
كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز
الصبي السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه التاريخ
المقدس . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . ففي
ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبي يضحك على حين
فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :
- ما بك ؟

- لا شيء . ان الرب قد خلق الضياء في اليوم الأول ؛ وفي اليوم
الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن في
اليوم الاول ؟
بهت جريجورى لحظة . وكان الصبي ينظر الى معلمه نظرة
ساخرة ، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره . فلم يستطع جريجورى
أن يكظم غيظه ، فاذا هو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهو
يقول له :
- من أين ؟ من هنا ...

تلقى الصبي الصفحة دون أن يقول كلمة واحدة ، ولكنه حزن
وأسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع
انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه
بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من
الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكثر
له ، رغم أنه لم يقرّعه في يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفضه كوكباً

كلما لقيه ، وكان يتفق له في حالات الكرم والطيبة التي يمر بها أن يرسل الى الصبي من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جاداً ، حتى لقد استدعى طبيباً وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، وانضح أنه لا براء منه • كانت نوبات الصرع توافي الصبي مرةً في الشهر وسطياً ، على تفاوت في طول المدة ، واختلاف في قوة النوبة ، فالنوبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظّر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل في الصبي عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعى الصبي اليه من حين الى حين ، كما عارض في تعليم الصبي أى شيء خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث في ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مراقباً في نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عبداً كبيراً من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحداً لم يره قارئاً في يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلاً له :

... اقرأ ما يحلو لك أن تقرأ ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى • • ذلك خير من التسكع في فناء المنزل • تناول كتاباً واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولاً •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدّ اليه كتاب « سهرات في المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به ، حتى أنه لم يتسم مرةً واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

- هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً :

- هلاً أجبت يا أهيل ؟

فتأثماً سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

- هذا كله أكاذيب ... أمور لم تحدث ! ...

- شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام »

من تأليف سمراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً

صادقة . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة ،
فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك
بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبي أصبح يقف
من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقم يوماً بعد يوم :
أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساء يمسك المعلقة يأخذ يقلب
بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه
طويلاً ، ثم يمسلاً معلقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان
جريجورى يسأله :

- هل وجدت فى الحساء خنقة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

- أم لطفك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى المشمّر المتقزّز لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك . انه يرفع شوكة فيأخذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يتحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فيجاء فيضعها في فمه .

فكان جريجورى ينظر اليه فيهمهم قائلاً :

— انه يعد نفسه سيداً من السادة !

فلما أبلغ فيدور بافلوفتش موقف سمردياكوف الجديد هذا ، قرر فوراً أن القى يصلح أن يصبح طامياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة . قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى فى موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت شخصته تغيراً كبيراً . لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتضن وجهه تضناً لا يتفق وسنّه . أما من الناحية النفسية فانه لم يكد يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش فى صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان . ولقد لبث فى موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شئونه ، كما عُرِف ذلك فيما بعد . ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها . وقد شهد فى ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استيائه رضى . غير أنه ، فى مقابل ذلك ، قد عاد اليها من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جداً ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين فى اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة فى ان يدهن حذاءيه الأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركما الى أن تلعبا لمعان مرآة . وبرهن سمردياكوف على أنه طامٍ عظيم .

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تقريباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يتعد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهن فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع . ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتقنا اضطرت أن تقرر اعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطامي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظرة اشتباه :

... انني أسألك لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفر وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محرّكاً يده بحركة تمبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوماً . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقد فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

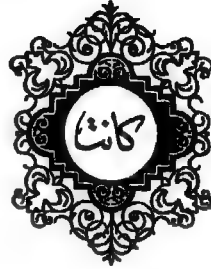
— يمينا ما لقيت في حياتي أناساً مثلك •

ثم أسرع يهدى اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدري أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيرا ما كان ينظر اليه نظرة شذراء ، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة في حضوره يوما • وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال ، فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عما لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جوابا • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء في المنزل ، أو في القاء ، أو في الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فإذا هو يبدو عليه أنه يسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى* وجعل عنوانها « التأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابة في فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذي يقطعها ، فلاح " يرتدى قفطاناً ويتعلم خفين بالين ، فهو في عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك ، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً في التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق في « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لاتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئا مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشيء • ولكنه

سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله
 ذاك في أحلامه ، وهى مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها فى نفسه
 طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به . وهو لا يدري طبعا
 لماذا يفعل ذلك . ولعل هذه المشاعر التي تراكت فى نفسه خلال سنين
 أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجر كل شئ على حين فجأة فيمضى الى
 القدس حاجاً ينشد الخلاص ؛ أو تدفعه ، لا تدري لماذا ، الى أن يشعل
 النار فى قريته فيحرقها . وقد يفعل الأمرين كليهما . ان هؤلاء الحالمين
 كُثُر فى شعبنا . ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم
 فى نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعاً الى ذلك فى حماسة وحميماً ، دون
 أن يعرف حتى الآن الهدف الذى يرمى اليه والغاية التى يسعى اليها .

محاولة



الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً • وكانت المناسبة غريبة غريبة كافية : ان جريجورى ، حين كان فى الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى الذى وقع فى أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكرامه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذوبه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فى سبيل عقيدته ، فسلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح • كانت الصحف فى ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندى ، وعن تضحيته البطولية، وكان جريجورى قد روى ماسمعه أثناء الغداء • ان فيدور بافلوفتش يجب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل فى حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجورى • ثم انه كان فى ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهيج النفس متفتح القلب • فبعد أن أوصى الى ما رواه جريجورى وهو يشرب قدح كونيائك، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندى وأن تمدد لياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، • بغية أن يجتنب الجماهير والمال • • فقطب جريجورى حاجيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فى

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر • وفى تلك اللحظة انما سُمع
سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب • كان الخادم
الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى فى السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات
الطعام ، أعنى أن يشهد المناقشات التى تعقبها • ولكنه تعود منذ وصول
ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء فى يوم
من الأيام تقريبا •

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه
يسخر من جريجورى ، سأله قائلا :
— ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن فى
الحسبان ، فيقول :

— بصدد تلك القصة • فأنا أرى أن فعل ذلك الجندى الجدير
بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شك ، ولكننى أرى أنه
ما كان ليعد خاطئا آنما لو أنكر اسم المسيح فى ذلك الظرف وتنازل
عن تعميده انقاداً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسنات تكفّر ، بعد
سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك •
تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

— ما كان ليعد خاطئا آنما ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب
الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأى الذى تراه ، أو سنشوى كما يشوى
خروف •

وفى تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله
ابتهاجا قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوهُ أن
يجلس وأن يصنى الى المناقشة :

– هذا موضوع مألوف لك • هذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها •

قال سمردياكوف مؤكداً :

– لا أوافق على موضوع الخروف المشوى • ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف •

– اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكر ركبة أليوشا •

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عيني سمردياكوف بغضب مسعور :

– هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلاً بלהجة هادئة صابرة :

– أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتتمهل قليلاً وتقضى فى الأمر بنفسك : هب أن جلاًدى الجنس المسيحى قبضوا على ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتكرر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أقبل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

– سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه • فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج •

وددم جريجورى يقول باحتقار :

- طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

- أما عن قولك بأتى طاهى حساء ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فستمهل بعض التمهّل أيضا • لا تشتمنى ، وانما فكّر قليلا : هب أنتى قلت للذين يعذبوتنى : « ليكن لكم ما تريدون ... انتى أرتد عن دينى المسيحى وأتكر لالهى الحق » • أفلا تدبّتنى المحكمة الالهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حرمت منها كائى وثى ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذة فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخاّب فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم المعجوز •

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

- ايفان ! ميل على حتى أستطيع أن أهنس فى أذنك بشيء •

ثم همس يقول له :

- من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو يتنظر تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن •

أظهر ايفان كثيراً من الاهتمام والجد في الاصغاء الى هذه الملاحظة
التي أُسِرَّ بها اليه أبوه .

وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

- اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلاً له :

- هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك .

فقال ايفان على أبيه من جديد مظهراً ذلك الجِد نفسه الذي أظهره
في المرة الأولى . فقال له الأب :

- انتي لا أحبك أقل مما أحب ألبوشا . لا يخطرنبالك أنتي
أوثرء عليك . قليلاً من الكونياك ؟

- بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه : « لقد سكر بعض السكر
منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجورى بقول فجأة :

- كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة
أيها الشقي ؟

فأجابه سمردياكوف :

- مهلاً يا جريجورى فاسيلفتش ، اصبر علىّ ولو لحظة قصيرة ،
واصنع الى كلامي حتى النهاية ، لأنني لم أتممه بعد . أعوذ فأقول انتي
متى لعنتي الله في تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأنى شأن أى وثنى ،

ويكون تعمدي قد أُلغى تبعاً لذلك ، فلا يحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحته فيدور بافلو قش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك ، استحته قائلاً :

– أوصلنا الى النتيجة التي تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بني +

فتابع سرد دياكوف حديثه :

– فاذا لم أعد مسيحياً ، فأنى لا أكذب على الذين يعذبوننى ويسألوننى : • أتمد نفسك مسيحياً أم لا ؟ ، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجنى من المسيحية بسبب نيتى وحدها قبل أن يتسع وقتى للإجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة • فاذا كنت قد أخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أحاسب فى العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب فى العالم الآخر كما يحاسب مسيحي ارتد عن دينه ، مع أننى أكون قد جرّدت من تعمدي بسبب نيتى وحدها حتى قبل أن أرتد عن دينى بالقول ؟ اننى بعد أن جرّدت من مسيحتى ، لا أكفر بالمسيح ، لأننى لا يكون قد بقى لى دين أرتد عنه • هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تريباً كافرأ على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذى يريد أن يعاقب مثل هذا الترى ، حتى فى السماء ؟ ما من أحد يسلمخ بقرّة واحدة مرتين ! وهب أن الله العلى القدير سيحاسب هذا الترى بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا الترى لم يأت حين ولد من أبوين غير مسيحين • ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحياً ، ولا يمكن أن يعده مسيحياً ، فان عدّه مسيحياً كان هذا كذباً ظاهراً واضحاً ، والله الذى هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن

يكذب ولو في مناسبة واحدة ، ولو في كلمة واحدة من كلماته •

أصيب جريجورى بالبكم من شدة ذهوله ، ونظر الى الخطيب محملاً • فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكاً غامضاً بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجل صدم الحائط بجبهته على حين فجأة • وأفرغ فيدور بافلوفتش في جوفه قدح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة •

— أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفان ؟ اذهب أيها اليسوعي العفن ؟ من ذا الذى لقنتك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجورى ، سوف نهذم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، سوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب فى موقفك من معذبيك • ان هذا لا ينفي أنك أنكرت دينك فى قرارة نفسك ، وأصبحت فى تلك اللحظة كافراً ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل • فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعي الظريف ؟

— لا أنكر أنني أكون قد ارتددت عن ديني فى قرارة نفسي ، ولكن ليس فى هذا أى اثم كبير ، واذا كان ثمة خطأ فهو خطأ عادى جداً •

— عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

— أنت تكذب • أنت ملعون • • • مل • • • هو • • • ن •

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا بالتصاره
ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً :

- اقض في الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء فى
الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة
صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : « اذهب أيها الجبل الى
البحر » ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فوراً عند أول أمر يصدر اليه*
فيا جريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب
لك حق اهاتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن
يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جداً) بل ان يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول
الصغير التين الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل
لن ينصاع لأوامرك ، وأن كل شيء سيبقى على ما كان ، مهما يكن صراخك
شديداً ومهما يكن زعيقك قوياً ! فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش
على أنك أنت أيضاً لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن
اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعرف على
كل حال أنه ليس فى زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى
الناس سلطاناً وأرفعهم منزلة أم كان أخضر فلاح من الفلاحين - أقول
ليس فى زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدرج هذا الجبل الى
البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس فى زماننا هذا أحد
يملك هذه القدرة ، ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين فى أكثر
تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مخبئين فى صحراء ما من
صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع
أن نهتدى اليهما ونشر عليهما مهما نبحت عنهما . فاذا كان الرجال
الآخرون ليسوا بالمومنين حقاً ، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعاً ،
وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو النفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو ججحت ،
أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع التدم والتوبة ...

— قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم
يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة !
تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كريحه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

— ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان
الشعب الروسى .

— أنت تشاطرنى هذا رأى . لا بد اذن أن أكون على صواب .
هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟
فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

— لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

— لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة
ذيتك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسماً :

— نعم هى سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

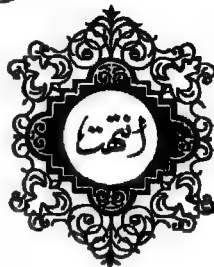
— قولك هذا يساوى دينارا ذهبيا يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار
فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ،
أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها النجى أن خفة العقل وحدها هى

التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير في الله :
فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكاراً ، والرب ثانياً قد
ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعةً فقط ، فنحن
لا نملك حتى الوقت اللازم لأن نتم نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم
للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك
لا يمكن أن يكون في ذهنك في مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير
فكرة الايمان التي كانت هي بعينها الفكرة التي يجب أن تكفل لها الغلبة
والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي ؟

- لقد جرت الأمور على هذا النحو حقاً . ولكنك تسلم أنت نفسك
يا جريجورى فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنًا وأخف
وزناً ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض انني اعتقدت ،
في ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : انني لأرتكب عندئذ اثماً
إذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني ، وإرضيت اعتناق دين محمد .
ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفي أن أقول
للجبل في تلك الدقيقة : « امش أيها الجبل فاسحق الجلاذ » ، فاذا
بالجبل يرمى على الجلاذ فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضي في
سبيلي هادئاً أغنى وأمجد الله . فاذا راودتني هذه الافكار لتحقيق هذه
الغاية منادياً : « اسحق الجلاذ أيها الجبل » ، فاذا بالجبل لا يستجيب
لندائي ، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاً قلت لي كيف يمكنني
في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك ؟ لقد
علمت سلفاً انني لن أظفر بملكوت السماوات كاملاً (لأن الجبل لم يقطع
أوامري ، وذلك دليل على أن ايماني ليس محل ثقة هناك في السماء ،
ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة) .
فأى جدوى اذن في أن أدع لهم أن يسلموا جلدي حياً بشير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى
أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبل لن يتحرك من مكانه رغم جميع
صرخاتي • وفي تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وانما
يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب زعري الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى
عن التفكير • أف يكون انمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت ، بعد أن لم
أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة
وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أف يكون انمى كبيرا اذا أنا أردت
عندئذ أن أنقذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هو السبب فى قتي الكاملة
بالرحمة الالهية ، وفى أننى آمل أن تغفر لى السماء غفرانا كاملا •

أشياء شرب الكونياك



المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور
بافلوفتش الذي كان مرحاً في أول الأمر قد عبس
واكفهر وجهه في النهاية . وها هو ذا ، وقد
بدا عليه الامتناع واضحاً ، يفرغ في جوفه
قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيراً . وصاح
يقول للخدامين :

– انصرفوا ، اخرجوا ... أيها السويعيون ! امض
يا سمردياكوف . سيصلك الدينار الذهبي الذي وعدتك به ، ولكن هيّا
انصرف ! وهوّن عليك يا جريجورى ، عدّ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك
وتضعك في سريرك .

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة
وشراسة :

– ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء .
وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجيء كل اليوم عند الغداء ،
أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

- لم أفعل شيئا البتة • وانما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدري لماذا
••• هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ••• ولكنه واحد من
أولئك الذين يندفون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة •

- الى الصف الأمامى ؟

- سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه ،
ولكن سيجيء أيضا أناس مثله • وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم
أولا ، ثم يجيء دور من هم أفضل منه •

- ومتى تحين تلك الساعة ؟

- ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت قبل أن تنطلق • ان
الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرّضين كثيرا •

- ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدرى الا الشيطان الى
ماذا يمكن أن تؤدي أفكارها •

قال ايفان ماكرا ساخرا :

- انه يجمع آراء ويراكم أفكارا •

قال الأب :

- أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك
أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكن لشخصك الاحترام • أما شعوره
نحو ألبوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره • ولكن يجب أن
نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف
يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل • وهو الى هذا
يجيد طهى أنواع الكوليياكا • أما فيما عدا ذلك ، فشیطان يأخذه ! أليس
هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلا ؟

— لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

— أما فيما يتعلق بالأفكار التى يمكن أن تقوم فى رأسه ، فأنا من جهتى أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسى يستحق أن يضرب ضرباً مبرحاً • لقد أكدت هذا الرأى دائماً • ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة • ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التى تؤخذ منها العصى دليل على قوة روسيا • فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا • أنا شخصياً أحب العقل • ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلاحين لأفراطنا فى حب العقل • ولكن الفلاحين مستمرين على جلد أنفسهم بأنفسهم * • وما أعتاهم فى هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهى بلد قدر حقير ... لبتك تعلم يا صديقى كم أكره روسيا ... أو قل اننى لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضاً ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذى أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

— لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة • فعليك أن تمسك !

— لا لن أمسك بعد • سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانياً ، ثم أمسك بعد ذلك • ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعت سلسلة أفكارى • ها • • • نعم • • • حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلاً عجوزاً فأجابنى بما يلى : « نحن نحب كثيراً أن نحكم على البنات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب • فكثيراً ما يحدث أن نرى الفتى الذى جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطباً • وهكذا تنتفع البنات أيضاً من الامر ، كما يقال ، • ما رأيك فى شبابنا أنصار المركز دى ساد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد • ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟
لا تخجل يا صغيرى ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان
لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذنى يا أليوشا على
أننى أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل • ان الخردل يصعد الى أنفى
فى بعض اللحظات ••• لا شك أننى أكون آتما ، ولا شك أننى سأعاقب ،
إذا كان الله موجودا • ولكن إذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع
هؤلاء الرهبان ؟ إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن تقطع
روسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقنى يا ايفان إذا قلت لك ان
هذا يهين أسمى عواطفى ؟ لا ••• أنت لن تصدقنى ••• اننى أرى هذا
فى عينك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أننى مهرج لا أكثر •
أليوشا ، هل تصدقنى إذا قلت لك اننى لست مهرجا فحسب ؟

- أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب •

- أصدقك • أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك
دائما • أنت تقول الحقيقة • وعيناك لا تكذبان • ولا كذلك ايفان •••
فانه ليس بمخلص ••• هو رجل مزهو بنفسه ••• مع ذلك ، لو كنت
فى مكانك لترك هذا الدير واتهيت منه ••• هذه الصوفية يجب
اجتائها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها فى
ذات يوم ، لنرد الأغبياء الى العقل ، ونرجعهم الى الرشاد • ما أكثر المال ،
ما أكثر الذهب الذى يمكن أن تسرده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

- لماذا نلغئها ؟

- لماذا ؟ لنعجل انتصار الحقيقة فى هذا العالم •

- أفلا تدري اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسأخذون يجردونك
تجريدا تاما ، ثم ... يزيلونك ؟

- هه ! ... على كل حال ، قد تكون مصيبا ...

قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لعلم جبينه بيده لكمة خفيفة على حين فجأة ،
وأضاف :

- اذن فلا نمسن ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك . أما
نحن ، معشر الأذكاء ، فلنستمر ... نعيش في رخاء ونحتسى الكونياك !
ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هو الذى لا يد أنه أراد اقامة ذلك
النظام . ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى
وأرحنى ... ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جاد لا هازل !
لماذا تضحك من جديد ؟

- أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبّرت عنها منذ برهة تعبيرا
فكها فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجود ناسكين قادرين على
تحريك الجبال .

- هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هذه
النقطة ؟

- جدا .

- معنى هذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أنصف بما يتصف به
الروسى من خصائص تميزه . ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفا بهذه
الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا . هل تريد أن أبرهن لك على ذلك
بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منذ الغد . ومع ذلك
أجبنى : أ يوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعرف
ذلك .

- لا ... لا يوجد اله •

- أليوشا ، هل الله موجود ؟

- الله موجود •

- سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة

أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

- لا شيء بعد الموت !

- لا شيء البتة ؟

- البتة •

- أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما

وجد قليل من حياة مع ذلك ! لقليل "خير" من لا شيء ...

- لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ... لا أكثر من ذلك !

- أليوشا ، هل هناك خلود ؟

- نعم هناك خلود •

- اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

- نعم ، يوجد اله والخلود موجود فى الاله •

- هم ... لا شك أن ايفان هو صاحب رأى الصحيح • ومع

ذلك ما أكثر التضحيات التى ضحّاها الانسان فى سبيل هذا الاعتقاد ،

وما أكثر القوة التى أنفقها على هذا الأمل فى غير طائل ، منذ ألوف

السنين ! ... فمن ذا الذى يضحك على الامانية هذا الضحك ، من ذا

الذى يسخر منها هذا السخر ، قل لى يا ايفان ! اتنى ألقى عليك هذا

السؤال آخر مرة ، ألقه عليك قاطما جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبنى
آخر جواب ...

– أجيبك آخر جواب : لا !

– فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر الساكنين ويضحك عليهم ؟
فقال ايفان ماكرا ساخرا :

– هو الشيطان ما فى ذلك شك •

– اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

– لا ... لا يوجد حتى شيطان •

– خسارة ... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك
الذى اخترع الله أول من اخترعه ... ان الشئ قليل عليه •

– لولا أن اخترع الله لما وجدت المدينة !

– المدينة ؟ لولا الله لما وجدت المدينة ؟

– لا ... ولما وجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك
أن تنتزع منك قارورة الكونياك هذه •

– لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيراً آخر ... لقد أسأت الى
ألبوشا • ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد على يا عزيزى الصغير
اليوشا ، يا بنى الطيب الشهم ؟

– لا ... لست غاضبا • أنا أعرف أفكارك • ان القلب فيك خير
من الرأس •

– قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب !
ايفان ، هل تحب ألبوشا ؟

- أحبه •

- يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوكتش في تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) • اسمع يا أليوشا • لقد أسأت الى شيخك في هذا الصباح ، لقد أهنته ••• ولكنني كنت مهتاجاً احتياجاً شديداً • ألا ان في قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

- صحيح •

- نعم نعم ••• ان في داخله شيئاً من بيرون * • انه يسوعى ، أقصد أنه مجادل روسي • وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحيانا في الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل في هذا العالم ••• أن يصطنع مظاهر قدس ، أن يتخذ أوضاع ولى •••
- لكنه يؤمن بالله •

- هو ؟ أبداً • ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ••• لا لجميع الناس طبعاً ••• بل للأذكاء ممن يزورونه • لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولس : أنا أوّمن ، ولكن لا أدري بماذا •

- أهذا ممكن ؟

- تماماً • وأنا أحترمه مع ذلك • انه فيه عنصراً مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتي ••• أقصد أنه رجل يحب اللذات ، رجل شهواتي • وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتي أو على ابنتي ، اذا هما ذهبتا تعترفان له ••• فتخيل ! ••• هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصص ! ••• منذ ثلاث سنين دعانا الى

احتساء الشاي عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ،
فأخذ يستحضر ذكرى مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوننا
حتى لا تتفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك
المرأة العاجزة التي شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقى مريضتان
هذا المرض ، لرقصت لك رقصة من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ،
أليس كذلك ؟ وقد اسرّ الينا يومئذ قوله : « كانت لى فى حياتى مغامرات ! »
وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

— ماذا ؟ سرقها ؟

— استودعه الرجل المبلغ أمانة لما عرف به من صلاح وفضل .
قال له : « احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيفتس فى الغد » . فاحتفظ
الآخر بالمبلغ كاملاً غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات
الكنيسة » . « فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ...
فقال لى : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة » . ولكن
لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد
خلطت بينه وبين شخص آخر .. دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر
بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة
الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت .. كان عليك أن توقفنى عن الكلام
يا ايفان ! لماذا لم تقل لى اننى أكذب ؟

— كنت أعرف أنك ستوقف من تلقاء نفسك .

— غير صحيح ! انك تركتني أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث
وحده . انك تحقرنى ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معى ، ثم
أنت تعاملنى باحتقار حتى فى منزلى !

— سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

— لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح ، أن تذهب الى تشرماشيا
• • • يوما أو يومين • • • ثم لم تفعل !

— سأذهب غدا ما دمت تطلع •

— لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبني هنا •
تلك هي غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح المجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول
الى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم فى العادة
أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون
عليه •

— مالك تنفوس فى هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقدرهما ! انك تنظر
الى " فأقرأ فى نظرتك قولك : " أيها السكير الدنيء " ! آه من هاتين
العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! • • • أنت انما جئت الى عندى
لغاية معينة فى نفسك • • • ولا كذلك أليوشا • • • انه ينظر الى " بعينين
تشرقان صراحة • أليوشا لا يحتقرنى • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •

قال أليوشا بحزم مباغت :

— لا تقضب من أخى • أكفف عن اهاتته !

— السبب هو • • • آه • • • أصبحت لا أدرى • • • أنت على حق •
اف • • • ما أشد هذا الصداح الذى ألم برأسى على حين فجأة ! ارفع
هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا
الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفتاه
بابتسامة مأكرة •

— لا تحقد يا ايفان على هذا العجوز المهوس ... لا تحقد على
يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبني كثيرا . وليس هناك ما يوجب
أن تحبني على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألقى بك حاملاً
اليك حلوى ... وسأعرفك هناك بينت من تلك المنطقة لاحظتها منذ
زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا
المزقات . لا تحقرهن قط ... فهنّ لآلىء فى كثير من الاحيان .
قال ذلك وقبّل يده قبله مدوياً ، من باب التأكيد . ثم أردف
وقد انتعش فجأة كأن اثاره موضوعه المفضل قد أوتيت القدرة على أن
تردّه الى الواقع رداً مباغتاً :

— ما أتم أيها الفتيان الا صبية ، الا خنازير صغيرة ... ها ...
أنا من جهتي لم أقبل فى حياتي أن تستطيع امرأة أن لا تحبني ...
تلكم هي مبادئي ! أأتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن
تفهموه ! ان عروفيكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد !
ان القاعدة التى التزمها فى سلوكي هي أن فى كل امرأة شيئاً خاصاً شائعاً
لا يمكن أن يوجد فى امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المرء
اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة
أمكن أن تكون فى نظري دمية أو باعثة على الاشتمزاز فى يوم من
الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هذا وحده نصف الحب .. حتى
العوانس لا بد أن يكشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يذهله
أن يتصور أن هناك اناساً أغبياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن
يلاحظوهن . وأول شئ يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات
الرائات الوسخات هو أن يدهشنهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوصل
اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد التشوه
والوجد ، حدّ الألم والعذاب ، حدّ الشعور بالخزي والعار من أن سيداً

أنيقاً أمكن أن يتوله حباً بدمامة كهذه الدمامة • ألا انه لشيء رائع يشحن
 العزيمة أن يعرف المرء أنه سيقى في هذا العالم الى الأبد سادةً وخدم ،
 ففي هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثة ما يحلو لها أن تفرح سيدها
 ومولاها • تلك هي سعادة الحياة ! انتظر ... هل تعرف يا أليوشا ؟ ان
 هذا الامر يذكرني بأنني قد بعثت الدهشة دائما في نفس المرحومة أمك ،
 ولكن بمعنى آخر • كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم
 اذا أنا في ذات يوم ، في دقيقة من تلك الدقائق التي يتفق لي أن أعرفها ،
 أسترسل فجأة في اظهار جميع أنواع العواطف ، حتى لأزحف على
 ركبتي ، وأقبل قدميها الصنيرتين ، فأقلها في كل مرة - ما زلت أتذكر
 هذا كأنه حدث بالأمس - أقلها في كل مرة الى حالة نفسية خاصة ،
 فاذا هي تأخذ تضحك ... تأخذ تضحك ضحكة فريدة في نوعها ...
 ضحكة واهنة حادة في آن واحد ، ضحكة عصية طويلة • وكان ذلك
 على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذي عرفته فيها • وكنت
 أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها ، فهي تأخذ في
 الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبر
 في الواقع عن أي فرح • ولكنني كنت أرى ذلك الضحك لذينا ، سواء
 أعبر عن فرح أم لم يعبر عن فرح • فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن
 أجد في كل شيء جانبا جذابا مجهولا ؟ وقد اتفق في ذات يوم أن
 بيليافسكي - وهو رجل متظرف غني جدا كان يسعى اليها واستطاع
 أخيرا أن يدخل بيتي - قد صفني على وجهي في بيتي بحضورها ! فماذا
 حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التي تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن
 تضربني بسبب هذه الصفة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبن وتقرعن:
 • سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ ... ارتضيت أن تتلقى صفة
 من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تيعني له ... كيف تجراً أن يصفلك

أمامي ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا ... هل تسمع ؟ لا أريد أن أراك
 بعد اليوم قط ... هيا اطلبي الى المبارزة .. اسرع .. أركض ، ..
 هكذا أخذت تقول لي . أخذتها الى الدير لأهدى روعها ، وصلى
 الراهبان من أجلها . ولكنني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق
 بها أذى في يوم من الايام ، لم ألحق أى أذى بصغيرتي العزيزة
 الكليكوша .. اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السنة الأولى من حياتنا ، ثم
 لم يحدث شيء من هذا بعد ذلك يوما . وكانت منذ ذلك الأوان تسرف
 في الصلاة في رأيي ، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فما
 تسمح لي بأن أقاربها أثناء ذلك . خطر ببالي مرة أن على أن أطرد هذه
 الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : «هل ترين هذه الأيقونة ؟ هذه الأيقونة
 المقدسة ؟ سامضي اليها الآن ، فأرفعها من مكانها ... انك تعتقدين بأن
 هذه الصورة تحقق معجزات .. طيب .. سأبصق عليها الآن أمامك ،
 فلا يحدث لي شيء ... » يا الهى ! حين نظرت اليها عندئذ فرأيت
 تعبير وجهها ، خيل لي أنها ستقتلني فورا . ولكنها لم تزدد على أن
 انتفضت ، ورفعت ذراعيها في الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت
 ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض ...
 منهارة انهيارا تاما ... أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيري ؟
 وثب العجوز عن مقعده مروعا مذعورا . كان وجه أليوشا قد بدأ
 يتغير تعبيره شيئا فشيئا منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه . لقد احمر في
 أول الامر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفاهه تمخضان ... وكان العجوز
 السكران يقذف من فمه رذاذا من لمساب أثناء كلامه دون أن يلاحظ
 شيئا ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب :
 لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن
 الكليكوша : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها

أبوه عنها ، ورفع ذراعيه فى الهواء ، ثم غطى وجهه يديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسية كتلة واحدة ، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هستيرية تصاحبها دموع صامتة . وقد دُهن العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشا وأمه . فقال يتنادى ايفان :

— ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماماً ! صبّ عليه ماءً بالمعرفة ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها . هذا بسبب أمه ،
أمه . . .

— أمه ؟ يخيل الىّ أن أمه هى أمى أيضاً ، ألا تقدّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش العجوز حين رأى نظراته الحارقة المسعورة .

عندئذ حدث شيء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان . يبدو أن العجوز قد نسي فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضاً ، فها هو ذا يقول مدمماً دون أن يفهم :

— أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أأتكون هى حقاً ؟ . . . آه . . . لمن الله الشيطان ! نعم . . . هى أمك أيضاً ! لمن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى ! معدرة يا ايفان . لقد خيّل الىّ أن . . . ها ها ها ! . . .

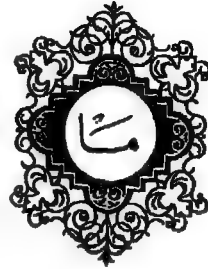
قال العجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهاء من ابتسامات السكيرين . وفى تلك اللحظة نفسها سمعت من الدهليز جلبة رهيبة ،

وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه
الاعصار ، وظهر دمترى بأفلوئتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتدى العجوز نحو ايقان وقد استولى عليه جزع هائل ، وطفق
يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايقان بكل ما أوتى من قوة :

— سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تركبى •• دافع عنى •• احمنى !

السهرانيون



ان دخل دمتري بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره • كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعا بالقوة من الدخول (تنفيذاً للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمتري فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويقضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق • فلما رآه دمتري أطلق صرخة حادة ، بل قل زار زفيراً رهيباً وارتدى على الخادم العجوز ، قائلاً :

— هى اذن هنا • خبأتوها فى الغرفة المجاورة • ابعدها عنها الشقى !

أراد دمتري أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجئن جنون دمتري حقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة ، وركله دمتري بقدمه ، واقتحم

الباب • أما سمردياكوف فقد ظل في الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش صاحب الوجه مرتعد الجسم •

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

- هي هنا حتماً • رأيتهما تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكنني لم أستطيع أن أدركها • أين هي ؟ أين هي ؟

أحدثت هذه الصرخة « هي هنا » ، أحدثت في فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه وهلمه دفعة واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :

- أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب • وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصدها • وسمعت في الغرفة الثالثة ضجة سقوط شيء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أئمن الزهرريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت •

أعول العجوز من جديد يقول :

- أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا في تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة •

- بنى فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشكا • هي هنا • رآها بنفسه تجرى نحو دارى •••

ان فيدور بافلوفتش يتشر في الكلام • كان لا يتوقع أن تجيء جروشنكا في ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله • ان جسمه كله يرتعد • وكأنه قد فقد جميع رشده •
قال له ايفان حانقاً :

– أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت •

– لعلها دخلت من الباب الآخر •

– ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه في جيبي •

وفجأة ظهر دمترى مرة أخرى في الصالون • لقد وجد الباب الثاني مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان في جيب فيدور بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة في جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أى مدخل ولا أن تغادره من أى مخرج •

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

– اقبضوا عليه • لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومي !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدي ايفان ، فهجم ثانية على دمترى • ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتي شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض في قرقرة ، واتسع وقته كذلك لأن يطرق رأس أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً • ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ؛ وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك في حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام •

صرخ ايفان يقول :

- أأنت مجنون ؟ لقد قتلته •

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

- أحسن ! لقد استحق ذلك • وإذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

- اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فوراً •

- ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها • أنت الانسان الوحيد الذى أتق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فقلت هاربة ...

- أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! ...

- ولكننى رأيته يعينى ... اذن هى ... لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ... الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزوب* كلمة واحدة فى أمر المال الآن • اذهب فوراً الى كاترين ايفانوفنا • يجب أن تذهب اليها حتماً • قل لها : « انه يبلغك احترامه ، احترامه ، يبلغك احترامه مودعاً ! ، • وصِفْ لها هذا المشهد ...

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد • كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشكا

مختبئة في مكان ما بالمنزل • وحين همّ دمتري فيدوروفتش أن ينصرف
رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

— لا يعذبني ضميري على أنني سفتحت دمتك • حذار أيها العجوز!
إذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملى أنا ! انني ألنك وأنكرك !
قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً •

— هي هنا ، هي هنا قطعاً • سمردياكوف ، سمردياكوف !
هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يوميء
بأصبعه الى الخادم •

فأجابه ايفان بصوت حائق يقول :
— بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاعد عقله ! ها • •
ها هو ذا يُغمى عليه • هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع
يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء • وخلصوا عن العجوز
نيابه أخيراً ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريره ، وأحاطوا
رأسه بخرقة مبللة • فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه
الكونيك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض
عينيه ونام • وعاد ايفان فيدوروفتش وألبسوا الى الصالون • ولم
سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة • ولبت جريجوري جامداً قرب
المائدة ، مظلم الوجه ، خافض الرأس في عناد •

قال ألبوشا لجريجوري :

— يحسن بك أنت أيضاً أن تلعن رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد
في فراشك • لقد ضربك أخى ضربة قوية كذلك •

قال جريجورى بصوت مبجوح بطيء :

— تجراً أن يضربنى •

فقال ايفان فيدوروفتش :

— تجراً ؟ لم • يتجراً • أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضاً !

— لقد ربيته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسى ... ثم هو يتجراً
على الآن فيضربنى ...

كذلك ردد جريجورى •

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

— من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم نبعده عنه بالقوة • ترى
هل ينجو أيزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

— حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

— حمانا الله من هذا ؟ ألا فلتأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو
المصير الذى تستحقه !

ارتعش أليوشا •

— طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة • ابق
هنا يا أليوشا • وسأخرج أنا الى الفناء استنشق الهواء قليلاً ، فقد بدأت
أشعر بصداع فى رأسى •

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة ساعتين ،
جالساً بين السرير والحاجز • ثم اذا بالمعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل

النظر الى ألبوشا صامتا ، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم ؟ ثم اذا
باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيقدم قائلاً بوجل وخوف :

– ألبوشا ، أين ايفان ؟

– فى القاء . ان به صداً • ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف
يحمينا •

– ناولتى المرأة • هى هناك ، هل تراها ؟ ناولتيها •

مدّ اليه ألبوشا المرأة الصغيرة المدوّرة ذات المسند المطوى التى
كانت موضوعة على المنضدة • نظر المجوز فى قسمات وجهه : كان أنفه
قد تورم تورماً شديداً ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على
أن دماً قد نزف •

– ماذا دها ايفان ؟ ألبوشا ، بنى الطيب الشهم ، أنت وحدك ابنى !
اننى أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر • أنا لا أشعر بالطمأنينة
الا معك • ولا أخاف منك •••

– ولا تخف من ايفان أيضاً • صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنه
سيدافع عنك •

– ألبوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنيكا ، أليس كذلك ؟
يا ملاكى الطيب ، قل لى الحقيقة كاملة : أجات جروشنيكا الى هنا
أم لا ؟

– لم يرها أحد هنا • تلك كذبة • انها لم تجى •

– يريد دمترى أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها •••

– لن توافق هى على هذا !

– سترفض ، سترفض حتماً أن تتزوجها ، سوف تصده وتنبذه !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره في تلك الدقيقة هذه الفكرة التي عبر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسه ، أمسك يد ابنه فوضعا بقوة على قلبه ، حتى لقد تالأت دموع في عينيه .

— خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التي تكلمت عنها منذ برهة . انتى أحب لها هذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك . وانى لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير . . . لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فانتى ما أردت الا المزاح . بى صدام يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا . . . هدى روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها .
— أفى أمر جروشنكا أيضاً ؟ أنها جاءت الى هنا ؟
كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة . فقال له أبوه :

— لا . . . لا . . . سامحنى . . . انتى أصدقت . اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، أو دبّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضع من الوقت دقيقة واحدة . . . حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أينما تفضل ، هو أم أنا ؟ هه ؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

— سأسألها عن ذلك اذا رأيتها .

— بل الأفضل أن لا تراها . انتى أعرفها . هذه امرأة مجنونة . سوف تلعب بعقلك وتجييك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبغي أن تراها . . . لا تصلح جروشنكا لذلك !

- ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !
- قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة
انصرافه « اذهب اليها » ؟
- الى كاترين ايفانوفنا •
- للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟
- لا ... ليس الأمر أمر مال •
- أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا • اسمع يا ألبوشا • سأرتاح
حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور • دعنى الآن • قد
تلقاها فى طريقك ... ولكن تعال الى غدا فى ساعة مبكرة ، تعال
حتماً • هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها • هل تجيى ؟
- أجيى •
- تظاهر بأنك تجيى من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى • لا تذكر
لأحد اننى رجوتك أن تجيى • ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة •
- سأصمت •
- الى اللقاء يا ملاكى • لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً ...
سأقول لك فى الغد شيئاً ... يجب أن أفكر فى هذا الشئ مزيداً من
التفكير ...
- ما شعورك بصحتك الآن ؟
- سأنهض منذ الغد فأخرج • سأكون فى غدٍ قد شُفيت ، سأكون
قد أبليت تماماً •
وحين قطع ألبوشا فناء المنزل وجد أخاه إيفان جالسا على دكة قرب

الياب • كان ايفان بسيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم
الرصاص • أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف
الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل •

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتعجب :
- أليوشا ، أحب كثيراً أن أراك غدا فى الصباح •
فدُهِش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألُفها فيه • وأجابه :
- سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها • ومن العجائز أيضاً
أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها •
- أنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنامع ذلك ؟ لتقل اليها
احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يتسم على حين فجأة •
اضطرب أليوشا • وأردف ايفان يقول :
- أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل ، ومن ملاحظات
أخرى سابقة • أغلب الظن أن دمترى رجلك أن تذهب اليها لتبلغها أنه
يريد ••• أنه يريد ••• أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته
بها ؟

سأله أليوشا :

- قل لى يا أخى • كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع
الرهيب بين دمترى وأبينا ؟

- يستحيل التنبؤ بذلك • قد يسوء الأمر ، وقد يهدأ الخلاف
من تلقاء نفسه • ان هذه المرأة وحش كاسر مقترس • مهما يكن من
أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه •
- اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

— ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة • أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقّ أن يتمنى ما يناسبه ؟

— أن يتمنى موت انسان آخر ؟

— حتى الموت ، اذا دعت الحاجة • ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه ••• ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجرى الأمور على غير هذا النحو ••• أأنت تلقى على هذا السؤال بسبب فكرتي تلك عن السراطين ؟ فاسمع لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أنني قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

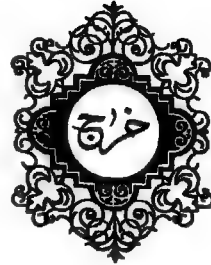
— ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شيء من هذا فى يوم من الأيام ! ••• وحتى دمترى ، ما أظنه قادرا على أن •••
قال ايفان ساخرا :

— أشكر لك هذه الثقة على الأقل • اعلم أنني سأدافع عنه فى كل ظرف • أما عن أمنيّاتى مع ذلك ، فأننى أحفظ فى هذا المجال بحريّتى • الى اللقاء • الى الغد • لا تُدِنِّى ولا تحسبْنى مجرماً •
كذلك أضاف وهو يتشم •

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط • وأحسنّ ألبوشا أن أخاء قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية فى نفسه ، وأنه يسيّ نية من النيّات حتماً •

١.

المرأتان كلتاهما



أليوشا من دار أبيه أشد حزناً مما كان حين دخلها • انه يشعر باضطراب عميق في ذهنه • أفكاره تتلاحق وتبعثر بغير تسلسل ينظمها ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض • ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر في خواطره البلبلة ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من الشاعر المتناقضة المعذبة التي عاناها في هذا النهار • ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به ويوشك أن يكون يأساً • وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل • هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلًا : ما عسى يصير إليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدراما ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر • وأحق الناس بالرناء على كل حال انما هو دمترى ، لأن شقاءه يبدو رهيباً ولأن بلاءه يبدو مستعصياً لا دواء له ولا براء منه : ان الكارثة تتربص به • وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيراً مما كان يتراعى لأليوشا حتى ذلك الحين • هذا كله يحدث في نفس أليوشا احساساً مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم • من ذلك مثلاً أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه متودداً اليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فان ملاطفات أخيه هذه قد بشت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضاً ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهباً الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فانه قد ملأته تلك الزيارة اضطراباً . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فانه ماض اليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من قلقه ! على أن المهمة التي كلّف بها تبدو له الآن أصعب وأشق: لقد عدل دمترى عدولا نهائياً عن ردّ الثلاثة آلاف روبل . هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل . فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذى جرى فى دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التى تشغل فى « الشارع الكبير » منزلاً واسعاً قحماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى هذا المنزل فى صحبة قريبتين لها . فأما أولاها فلا تمت اليها بقربى الا من جهة أختها آجاتى ايفانوفنا ، وهى بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيبة التى عُثيت مع آجاتى تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهى سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا فى كل شئ ، ولا يعيشان قربها الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترين ايفانوفنا فهى لا تطيع الا الجذالة ، المحسنة اليها ، التى لبثت فى موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتى كان على كاترين أن تكتب اليها مرتين فى الأسبوع لتطلعها على تفاصيل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كن يبدو أن أهل الدار الجالسين في الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) • فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يتبعن بسرعة ، وحفيف أثواب ، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يباحن الفرفة • استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب • ومع ذلك أدخل الصالون فوراً بدون انتظار • هي غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء • دواوين وصفوف وكتبات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة في كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب إحدى النوافذ • والفرفة مظلمة قليلاً في هذا الوقت من الفسق • ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحداً كان جالساً عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وأتية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورثيا وأتية أخرى فيها سكاكر • لاشك اذن في أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم • فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير • ولكن الستارة أزيحت في تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايفانوفنا الفرفة بخطى سريعة عجيبة ، مادة الى أليوشا يديها كلتيهما ، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبتهجة • وسرعان ما دخلت في اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعليين وضعتهما على المنضدة •

— الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طول الوقت أضرع الى الله أن تجيء • اجلس من فضلك !
ان جمال كاترين ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه

أخوه دمترى إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به لأنها أحبّت كثيراً أن تعرفه • ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً على كل حال • ذلك أن كاترين أيفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته في تلك المرة فلم تنجبه بكلامها الا الى دمترى ، وصمت أليوشا طوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء • كانت هذه السمات في طبيعتها واضحة ، وأحسن أليوشا أنه لم يضحكها ولا بالغ في تصورها • وقد أعجب أشد الإعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الذى تشبه صفرتة صفرة العاج قليلاً ، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة • ومع ذلك كان في عينيها ، كما كان في رسم شفيتها الرائع ، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامعاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقف في النفس حباً باقياً مستمراً • ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمترى عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمترى ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفى عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيته • لقد قال له أليوشا يومئذ :

— سوف تكون سعيداً معها ••• ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة •

— هذه هي الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبداً ، ولا يدعنّ للقدر • أثنت تعتقد اذن أننى لن أحبها الى الأبد ؟

— بلى ••• ربما أحبتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تسعد معها دائماً •

أفصح أليوشا عن هذا الرأي وهو يحمر استياءً في قرارة نفسه ، من رضوخه لالاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهذه الأفكار . ذلك أن رأيه قد بدا له غيباً غباءً رهيباً منذ عبّر عنه . ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه في الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؛ وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترين ايفانوفنا التي هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد خُدع عن حقيقتها في المرة الماضية وأنه قد أخطأ في الحكم عليها خطأ فاحشاً . لقد كان وجهها في تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسما ت وجهها تعبّر عن صراحة ملتبهة حارة . ولم يبق من « الكبرياء والخيلاء » اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وجسارة سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضح مضى . وأدرك أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التي نطقت بها ، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المنسحق كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شيء منذ الآن ، بكل شيء اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب في حقها ، كأنما هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد . لقد غلب أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التي قالتها ، أنها في حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفاً لها أو معهوداً فيها ، وهو اضطراب يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

- انتظرتك نافذة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها . . . أنت الانسان الوحيد الذى سيذكر لى الحقيقة كلها ! . . .

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

- أنا جئت .. أنا جئت .. موفداً منه !

- آ ... أهو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك . الآن فهمت

كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت

كلامها تقول :

- لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أحرص على أن أشرح لك

أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر . ومترى اننى ربما كنت أعلم من

الأمر أكثر مما تفترض اننى أعلم ، وأكثر كثيراً مما أنت تعلم . فلن

أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شيء آخر : اننى أريد

أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه

فى الآونة الأخيرة . اننى أحرص على أن نذكر بصراحة تامة ، دون أية

مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمته الخشونة (بأكبر خشونة

تريدها) أن تذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقائك معه اليوم .

فلعل ذلك خير من أن أمضى أفتاحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن

يرانى . هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد

إليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الى (كنت أتبساً بأنه

سيرسلك) . تكلم بلا تردد . قل كل شيء ، ولا تخش أن تسيء الى ! ..

- لقد كلفنى بأن ... أنقل إليك احترامه ... وأن أقول لك انه

لن يجرى بعد اليوم ... وأن احترامه ...

- احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

- نعم !

— لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك ،
ودون أن يلح أيضاً ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟
— بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه ،
حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها •
تخضب وجهه كاترين ايقاتونا بحمرة شديدة • وقالت :

— ساعدني الآن يا ألكسى فيدوروفتش ، أنا في حاجة الى
مساعدتك • سأفتح لك أعماق فكري ، وستقتصر أنت على أن تقول لي
هل تعد رأيي صحيحاً أم لا ؟ اصنع الىّ جيّداً • لو كان قد كلفك عرضاً
ومصادفةً بأن تبلغني « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً
خاصاً ، فإن كل شيء يكون قد قيل ••• ويكون الأمر في هذه الحالة قد
انتهى ! ••• أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحاً خاصاً ، وأنه رجاك
صراحة أن تستعمل تعبير « الاحترام » هذا ، فمعنى ذلك أنه كان في حالة
اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجاً عن طوره ! لقد اتخذ قراراً ،
ولكن قراره نفسه يبت الجزع في نفسه ! انه لم يتركني بخطي حازمة ،
وانما هو أسرع يسقط في هاوية • ان اصراره على استعمال هذه الكلمة
لا يمكن أن يُفسّر الا بأنه تبجح وتحد •••
فقال أليوشا مؤيداً :

— هو كذلك ، هو كذلك تماماً • وهذا هو شعوري الآن أيضاً •
— فإذا صح هذا فانه لم يضع يده ، وليس الأمر اذن الا أمر فعل
يدفع اليه اليأس • ولكنني أستطيع أن أقنّده رغم كل شيء • لحظة ! ألم
يكلمك في موضوع مال ، في موضوع ثلاثة الاف روبل ؟
— طبعاً ••• حدثني في هذا الموضوع ••• بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أى شىء آخر رغم أن شرفه قد تلطخ ، وقال ان جميع الأمور تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشىء •

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه فى تلك اللحظة أحسّ بالأمل يملأ قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ، ربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه • ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة :

— أنت اذن على علم ••• بما حدث لذلك المبلغ ؟

— أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل • اتنى أعرف كل شىء • لقد أرسلت بركة الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت أن عرفت الحقيقة • انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أحدثه فى الأمر • حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال • ولم يكن لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن يتجه اليه ويعتمد عليه فى مثل هذا الحالة ، هو أن يعرف اتنى خير صديق له فى هذه اللحظة ! ولكن لا ••• انه لا يؤمن بصداقتى • لم أخطر بباله فى هذا الطرف • هو لا يرى فى المرأة • ان هناك سؤالا يعذبنى منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب على أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى بالخزى والعار من أنه أتلف تلك الثلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق فهمى : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغي له أن يشعر بالخجل تجاهى ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بأموره ، والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخجل منى ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة على احتماله فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلنى هذا الجهل كله ؟ كيف يجرو أن يجهلنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اتنى أريد أن أتخذه الى الأبد • فليس اتنى خطيئته ، ليس أن لى هذه الصفة ، ولكن ماينبغى له أن يخشى

أن يفتح قلبه لى ، وأن يثق بى ، وأن يطمئن الىّ فى مسألة كمسألة الأمانة
هذه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيدوروفتش ؟
فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نطقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها
فجأة ، وانبعجت الدموع من عينيها •
قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

- علىّ أن أروى لك ما وقع فى منزل أبى منذ قليل •
وقصّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلّفه بأن يطلب له
مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة •
وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ،
بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيئ إليها ليلتها « احترامه » •

وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :
- ثم ذهب الى تلك المرأة •
- أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة فى حياته ؟
أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟
ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضحك
ضحكاً عصياً :

- ولكنه لن يتزوجها • هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن
يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً • ثم
انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه •
كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك تلك الضحكة الغريبة
نفسها •

فقال أليوشا في حزن وهو يفيض بصره :

— من الجائز جدا أن يتزوجها •

— قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت

تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماسة قوية • وتابعت

تقول :

— هي أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء في حياته ! أنا أعرف مدى

ما تتصف به من فتنة واغراء ، ولكنني أعرف أيضا طيبتها وشهامتها

وبنبلها • لماذا تنظر الى هكذا يا ألكسى فيدوروفش ؟ لعل كلماتي

تدهشك ؟ أغلب ظني أنك لا تصدقني ، أليس كذلك ؟ يا أجرافين

الكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادت كاترين ايفانوفنا وهي تنظر الى

الغرفة المجاورة) ، تعالى إلينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم

بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوى لطيف أو متلطف :

— انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التي تاديني فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من

المائدة ضاحكة وقد بدت في وجهها سعادة • أحسَّ أليوشا في اللحظة

الأولى أنه يوشك أن ينهار • حدث في الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون

أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هي اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه

هي اذن ذلك « الوحش المقرس الكاسر » على حد التعبير الذى أقلت من

أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة

عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسنات اللواتي لا يُحسبن « خارقات » ، والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا . . . لها ذلك الجمال الروسى الذى قد يوقظ فى بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً . هى طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف بتلويحاتها وانعطافاتها بنفس اللونة والركة والرخاوة التى تظهر فى تنبّات صوتها . اقربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا . انها تمشى بلا جلبة ولا ضوضاء . وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريرى الأسود الفاخر نىء من عنوية ورقة فى السمع أيضا . وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين ، شال " ثمين من صوف أسود ، يلتف التغافاً فيه كثير من رهافة الذوق . انها فى الثانية والعشرين من عمرها . وان قسّمت وجهها تدل على أنها فى هذه السن تماما . لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردان خفيفا عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسماك من الشفة العليا مرتين حتى وكأنها منتفخة قليلا . ولكن شعرها الكستناوى الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخملين ، وعينيها الزرقاوين الشهابوين الفاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب اليه أقل الرجال اكترائاً ، وأشدّهم ذهولاً ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو فى وسط جمهور مضطرب متدافع أو فى زحمة الشوارع الكبرى المكثفة بالماردة ، أن يتوقف لحظةً أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً . وقد أخذ ألبوشا خاصة بما فى هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة . ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرحة صبية صغيرة لسبب مجهول . ولقد تقدمت من المائدة فى الواقع « متهللة » الأمارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكا ، متعجلة حدوثه نافذة الصبر مطمئنة النفس كطفل • وكان في نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحس به أليوشا واضحا قويا • وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستينه خليا في تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيرا لاشعوريا ، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها وفي ليوتها ورشاقها الصامتة • ومع ذلك كانت قوة الجسم نامية الأعضاء • ان كفيها العريضين يرتسمان تحت شالها ؛ ومن ينظر إليها يدرك أن لها صدراً كاعياً ما يزال صدر فتاة مراقبة • ان جسدها يعد بأن يكتسب مع تقدمها في النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نسبه مفرطة قليلا منذ الآن • على أنها لو رآها خير في جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية في جسدها ستضمحل في نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها ستزهر عندئذ ، وأن غضونها ستظهر عند عينيها وعلى جبينها في وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها ، بياضها ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذي يلاحظ كثيرا لدى النساء الروسيات • ان أليوشا لم يسترسل في أفكار من هذا النوع طبعاً ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تسائل وهو يحس احساساً غامضاً بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجر هذه المرأة كلامها جرأً ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته طبعاً بغير تكلف ؟ ان المرء يشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية في هذه الطريقة في تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر • والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامة التي تكونت في ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية • وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطابق بين هذا النطق المتصنع والتنظيم المقتل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما يشع في نظرتها

الوديمة وداعةَ نظرةَ الطفل من سعادة هادئة عذبة • وقد قامت كاترين ايفانوفنا بتقيل جروشنكا على شقيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى لكانها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتان :

- اتنا نلتقى اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش • كنت أتمنى أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت في أن أزورها ، ولكنها جاءتني من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتي • وكنت على ثقة سلفاً بأننى سأستطيع التفاهم معها على كل شيء ، تفاهماً تاماً • قلبى أدرك ذلك وحدثني به • وقد حاولوا أن يصدوني عن القيام بهذا المسعى وأن يشنوني عن انفاذ هذه النية ، ولكننى كنت أتبأ بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطئ ظنى ولا خاب فالى • لقد شرحت لى جروشنكا كل شيء ، وأطلعتنى على جميع ما عقدت النية عليه • جاءتني الى هنا تحمل الى السلام والفرح ، كملاك طيب ...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطئ ، وهى تبسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها :

- الفضل لك يا آنستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتي ولم تحتقرها •

- كيف تستطيعين أن تقولى مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة ! أأحقر صحبتك أنت ؟ دعينى أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى • لكانها متورمة قليلا ، فلازدها تورماً ! هذه قبلة ... هات قبلةً أخرى ... وقبلةً أخرى أيضا ... انظر اليها كيف تضحك يا ألكسى فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يرى •



جروشنكا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

- أنت تدلّيتني يا آمتى اللطيفة ، مع أنتى قد لا أستحق ملاطفاتك
ومداعباتك •

- أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعى أنها لا تستحقها •
كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ،
ثم أردفت :

- اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال ، متسلطة
القلب ، ولكنها ذات كبرياء وكرامة . هى نيسة الروح يا ألكسى
فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت
شقية عائرة الحظ • لقد تمجّلت فأرادت أن تضحى بكل شيء فى سبيل
رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقل • كان ضابطا هو أيضا •
أحبته ووهبت له كل شيء • حدث ذلك منذ زمن طويل ، منذ خمس
سنين • ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج • وقد توفيت امرأته فهو الآن
أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها • اعلم يا ألكسى فيدوروفتش
أن هذا هو الرجل الوحيد الذى أحبته فعلا وما تزال تحبه • وسيجيء
وستعود الى جروشنيكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعب منذ
خمس سنين • من ذا الذى يجرو أن يلومها ، من ذا الذى يستطيع أن
يتباهى بأنه حظى منها بشيء ؟ هو ذلك المعجوز وحده - التاجر - ولكنه
كان لها أباً ، كان لها صديقا ، كان لها حارساً • وجدها فريسة اليأس ،
قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله •••
وقد فكرت فى أن ترمى بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأخذها ذلك
المعجوز ، أهدأها •

عادت جروشنيكا تقول بصوتها المتباطئ :

- أنت تدافعين عني بحرارة فيها غلو يا آمتى العزيزة ، ولعلك
فى هذا تسرفين فى التعجل •

— أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك في حقيقة الأمر ؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر اليها ! لقد حملت الى السعادة ، لقد ردتى الى الحياة • سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا • • • هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! • • •

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً • • • قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرقة فى السمنة • وكانت جروشكا قد مدت اليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الأنسة اللطيفة » ، متنبطة اغتباطا واضحا بتقبلها على هذا النحو • قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلها تصرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه • ان نوعاً من القلق كان يتلجج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت •

قالت جروشكا :

— لا تخجلنى يا آنستى اللطيفة بتقبل يدى هذا الثقيل أمام ألكسى فيدوروفتش •

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

— أأنا خطر ببالي أن أخجلك ؟ آه • • • يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

— وأنت أيضاً تسيئين فهمى فيما يخيّل الى يا آنستى اللطيفة • أنا قد أكون أخبت كثيراً مما تقددين • ان لى قلباً شريفاً ذا نزوات • لقد اجتذبت دمتري فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزئ به •

— ما قيمة هذا ما دمت ستقذيه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً
 ... ستردينه الى الصواب ... ستقولين له انك تحبين رجلاً آخر ، منذ
 زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن .
 — آه .. كلا ... أنا لم أقطع لك على نفسي هذا العهد . أنت قلت
 لى هذا الكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشيء .

قالت كاترين ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة
 خفيفة :

— أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت ...
 — كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشيء البتة .
 كذلك قالت جروشكا بصوت متساوٍ هادئ ، وما تزال تبدو عليها
 هيئة السعادة والبراعة تلك . ثم أضافت تقول :

— فهأت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه
 سلوكى معك من خبث ونزوة . أنا أفعل ما يخطر ببالي ، أنا أفعل
 ما يبرق فى رأسى . قد أكون وعدتك بشيء منذ قليل ، ولكننى فى هذه
 اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبني من جديد ميتا هذا ؟ » ؛ ذلك
 أنه قد أعجبني مرة فى الماضى ، بل لقد أعجبني طوال ساعة بكاملها !
 وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى
 منزلى نهائياً منذ الآن ... هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال ...

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

— كنت منذ لحظات متكلمين ... بطريقة أخرى مختلفة كل
 الاختلاف ...

— منذ لحظات ؟ ربما ... ولكن لى قلباً حنوناً غيباً ... فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي .. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟
- لم أكن أتوقع أن ...

- أوه .. آتستى العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الى ؟
لا شك أنك ستكفين عن حبي الآن ، أنا الحمقاء الغيبة ، بسبب سوء طبيعى . هاتى يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة).
لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب على أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك على . ولندع الأمور على ما هى عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من يدرى ؟ قد انتهى الى الخضوع لارادتك خضوعا أعمى ، فأقبل كل ما تأمرينى به . لندع الأمور تجرى على مشيئة الله ! فلا تقطع على أنفسنا عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمل يدك ! أوه ما أجملها يداً فاتنة أخاذة ! آتستى اللطيفة ، انك جميلة جداً لا يتصوره الخيال ..

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايفانوفنا الى شفيتها ، على تلك النية الغريبة حقاً ، وهى أن « ترد اليها دينها عليها » . لم تعارض كاترين ايفانوفنا . كانت قد أصغت الى الوعد الذى وعدتها به جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضوعاً أعمى ، أقول كانت قد أصغت الى ذلك الوعد مؤمنة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو خاص . وهى تصدق الآن الى عينيها اللتين مازالان تعبران عن تلك البراءة نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها ...
وحدثت كاترين ايفانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة فى السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق فى قلب كاترين ايفانوفنا . وفى أثناء ذلك الوقت كانت جروشنكا التى تبدو تنوى أمام « اليد الصغيرة اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء . ولكنها بعد أن

وضعتها على شفتيها ، لبث بضعة لحظات لا تقبلها ، وكأنها تفكر في شيء ما ، ثم قالت فجأة وهي تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق التشنجات وأطرى الترجحات العذبة :

— هل تعلمين يا ملاكى ؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبل يدك الصغيرة •

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة •

قالت لها كاترين ايفانوفنا وهي ترتعش :

— كما تشائين ... ولكن ماذا بك ؟

— لا شيء • عيشى بعد اليوم مع ذكرى ثقيلك يدى ورفضى ثقيل يدك !

— واحة !

بهذا قذفها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً فى هذه اللحظة فقط •

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع •

— بعد لحظة سأذكر لميتا أنك قبلت يدى أما أنا فرفضت أن أفعل •

— شقية ! اخرجى من هنا !

— يا آمنة ؟ ألا تستحين أن تتكلمى على هذا النحو ؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملى مثل هذه الألفاظ يا آمنى العزيزة ؟

زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

— اخرجى من هنا أيتها المخلوقة التى تبيع نفسها بالمال •

- ها ها ! تبع نفسها بالمال ؟ أتسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء ،
كنت تذهبين فى الظلام الى منازل شباب لتحصلى على مال ؟ أما ذهبت تبيعين
جمالك ؟ تقى انتى على علم بهذا الأمر ! ...

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخة قوية ، وانقضت عليها ، ولكن
ألكسى فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتى من قوة قاتلا لها :

- اياك أن تقولى كلمة واحدة ! لا تجيبها بشيء ، لا تنطقى بحرف ،
سوف تنصرف ، سوف تمضى فورا •

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما
الخدام ، وأحطن بها جميعا •

قالت جروشكا وهى ترفع شالها عن الديوان :

- أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! ألبوشا ، حبيبى ، رافقنى !

فقال لها ألبوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احداهما الى الأخرى:

- اذهبى ، اذهبى ، ناشدتك الله ...

- صغيرى العزيز ألبوشكا ، رافقنى ! سأقول لك أثناء الطريق شيئاً

يسرك ، يسرك كثيراً ... من أجلك أنت يا ملاكى انما مثلت هذه

المهزلة • رافقنى ، يا طائرئ الصغير ، ولن تدم على أنك فعلت ...

تحول عنها ألبوشا وهو يعقف يديه • وخرجت جروشكا راکضة

وهى تضحك ملء حلقها •

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشكا بنوبة عصبية

عنيفة ، فأخذت تبكى متتجة ، وأخذت تخفقها تشنجات قوية • ومن حولها

كان الجميع يتحركون ويضطربون •

قالت لها كبرى قريبتها :

- لقد حذرتك .. أردت أن أمتك من الاحترام على هذه الخطوة
... أنت مسرفة في الاندفاع ... كيف أمكنت أن تقرى القيام بهذا
المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ،
وهذه أخبهن طراً ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد الناس ! ... انت
مسرفة في التثبت برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك ..
زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

- انها نمرة ! لماذا صددتني عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت
أن أضربها ، أن أضربها ...

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا ،
ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها .

- انها لا تستحق الا الجلد بالسياط . يجب أن يجلدوها جلاد على
رموس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب .

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

- آه ... يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً
الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصص على هذه المخلوقة ما جرى
في ذلك اليوم المشؤم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد . « أما ذهبت
تبعين جمالك يا آنستى العزيزة ! » « هي تعلم اذن . ان أخاك وغد دنى .
يا ألكسى فيدوروفتش !

ودأ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه . كان قلبه ينهصر
ألى .

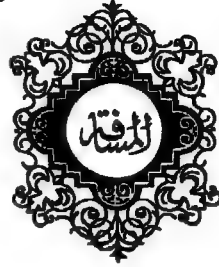
— اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أشعر بالعار ، أشعر بالعار شعورا رهيبا ! عُدْ غدا ... أضرع اليك جائية أن تحيى غدا • لا تؤاخذنى ، لا تحقد علىّ ، سامحنى ، اغفر لى • أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج ألبوشا الى الشارع يمشى كالترنح ترنحاً • كان يود لو يبكى مثلها • وأدركته الخادم راکضةً بضع خطوات فقالت له :

— نسيت الآمنة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا • لقد احتفظت بها الآمنة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها •

تناول ألبوشا الظرف الوردى الصغير ، ودمسه فى جيبه دون أن يوليه انتباها •

أخرى تعرض نفسها للضياع



بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ واحد • كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالى فى تلك الساعة • لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين مترا • وفى منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب • فما هو ذا شبح يظهر تحت شجرة مزهرة عند ذلك التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما عليه قائلا له بصوت صارخ مروّع :

— مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

— كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال مترى فيدوروفتش وهو يضحك :

— هاأهاأ ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلت أين عساي أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؛ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك . ففرت أخيراً أن أربط هنا قاتلاً لنفسى انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، اذ ليس هناك طريق آخر يؤدي الى الدير . طيب ... قل لي الحقيقة الآن ، اسحقني كما تسحق حشرة خيشة . . ولكن ماذا بك ؟

— لا شيء يا أخى .. هو الخوف وحده . آه يا دمترى ، يادمترى ! دم أبينا الذى سَفَح منذ قليل .. (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي . كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شيء ينفجر فى نفسه فى تلك اللحظة) ... لقد أوشكت أن تقتله .. وقد لعنته .. ثم هانت ذا الآن تمزح .. وتفكه .. قاتلاً : مالك أو حياتك ! .

— آ .. هذا هو الأمر اذن ؟ لعل فعلتى لم تكن لائقة ؟ يخيل الى أن موقفى لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

— لا .. ليس هذا ما أردت أن أقوله .

— لحظةً يا أخى . انظر من حولك . الظلام داس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء ، والرياح قد هبت ، وهى ربيع متأوهة حزينة . لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك ... فإذا أنا أقول لنفسى فجأة (هيه .. نعم ..) : « فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة .. ومعك مندبل وعلبك قميص .. فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما جبلاً ببلّ القميص قليلاً » ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! ، ، وفى تلك اللحظة بعينها ، فى تلك اللحظة التى خطرت لى فيها هذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت فى رأسى عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسى : « هناك اذن انسان أحبه أنا أيضاً . وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذى أحبه ، هذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبدته أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقاً ! .. وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أتتى وددت لو أرتدى عليك معاقاً . غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ . قلت لنفسى : « سأخيفه قليلاً لأسلّيه وأضحكه » . لذلك صرخت أقول كئيبى : « مالك أو حياتك ! » فاعفر لى هذه المزاحة الحماقة البلهاء ، لقد فعلتها دون تفكير ... أما عن حالتى النفسية فهى على ما يرام ... تستطيع أن تصدقنى ! بثت هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأخرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيباً اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبت ؟ هل طاشت صوابها ؟

.. لا ... ليس هذا هو الأمر .. كان هناك شىء آخر يا ميتيا ... كان هناك .. لقد وجدتهما كلتيهما هناك ...

.. كلتيهما ؟ من هما ؟

.. كانت جروشكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولاً . ثم صرخ يقول :

.. مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشكا عندها ؟

قصّ ألبوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيلاً . دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحاً وضوحاً تاماً ، ومتسقاً اتساقاً كاملاً . لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائع الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادر الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التي وصفها وصفا حياً ، مركزاً في بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظراته جموداً مربعا .
وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التي قالها ، أن أخاه قد فهم كل شيء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكاً صحيحاً . كان تعبير وجهه ، كلما أوغل أليوشا في سرد القصة ، يزداد تعجباً وعبوساً ، حتى ليفصح عن معاني التهديد . . فحاجباه يقطبان ، وأسمانه تكثر ، وجمود نظراته يتفاقم مزيداً من التفاف ، ويصبح مخيفاً مروّعاً . . ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذي كان حتى ذلك الحين متوحشاً مفترساً مهدداً ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجيباً محيراً . فقد انفرجت شفاته بفتة ، وانفجر يضحك مقهقهةً قهقهة عريضة لا تقالب ولا تقاوم ، حتى أصبح جسمه يتلوى تلويّاً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة . ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التي كان يمكن أن تكون وقحة خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها :

— اذن لم تقبل يدها . . هاها . . رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة . . هاها . . والأخرى زارت تقول عنها انها نمره ؟ حقاً انها لنمره ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رموس الأشهاد ؟ طبعاً . . أنا أيضاً أرى هذا الرأي . . انها تستحق ذلك . . تستحقه منذ زمن طويل . . هاها . . أنا لا أعارض أيها الأخ أن تنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفي أولاً . انتي أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرُها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبر عن حقيقتها ، انه هي بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التي يمكن أن تخرج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن
لقد هربت وعادت الى منزلها .. هأها .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب
أن أراها ! لا تُدنى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل
عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

- وكأترين ايفانوفنا ؟

- انتى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤىة كاملة ، أنفذ الى نفسها
كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات
الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى
جروشكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم
تهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزم قصير ، لم تتهيب
لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى ،
معرضة نفسها لأسوأ الأذى وأشنع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء
التي تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا
الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان
عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبهاً بالرأى
وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جترالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ
أوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جترالة
موسكو من أبهة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من
منصبه ، وفقد كل شيء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن
خففت جناحها ، وغيّرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء
جروشكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أتغلب على كل
عقبة ، لا شيء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشكا ، . ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وأمنت به منذ نبتت
الفكرة فى ذهنها ! فمن المذنب فى هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت
البادئة فى تقيل يد جروشكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير !
أبداً . . . لقد كانت صادقة كل الصدق فى توليها بجهها ، لا بحب
جروشكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هى بها ، بحب الوهم الذى قام فى
ذهنها هى عنها . . . قل لى يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت
من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن
الذى ترتديه ، هه ؟ هاهاهاً . . .

- أخى ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة
الضخمة التى ألحقها بكاترين ايفانوفنا حين حكيت لجروشكا قصة
زيارتها لك فى ذلك اليوم المشؤم ! لقد صرخت هذه المرأة فى وجهها
قائلة فى غلظة وفظاظة : « ذهبت سرّاً تبين جمالك لشباب ! » . ليس
هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المسبة
يا أخى !

لقد كان يعذب أليوشا تعذيباً خاصاً تصوره أن أخاه يبدو مقتبلاً
لمذلة كاترين ايفانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئاً فى أغلب
الظن !

- آه . . .

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش فى تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه
اكفهراراً غريباً ، ولطم جبهته بيده .

لقد أدرك دمترى فيدوروفتش ، فى تلك اللحظة فقط ، هذا
الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفقه أن ينقل اليه أنباء
سرده لوقائع المشهد الذى حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التى

وجهتها جروشكا الى كاترين ايفانوفنا ، والبرخة التي أطلقتهما كاترين
ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقير ... »
قال دمترى :

... من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشكا عن ذلك « اليوم
المشئوم » ، على حد تعبير كاتيا ... صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ...
تذكرت الآن .. وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت نملأ
... وكانت الفجريات تغنى ... ولكنتى زويت القصة ضارعا أمام
صورة كاتيا ، وفهمتى جروشكا حق الفهم .. فهمت كل شيء ...
أتذكر الآن هذا ... وأخذت تبكى هي نفسها .. شيطان يأخذ النساء !
كان ينبغي لى أن أتنبأ بهذا ... لقد بكيت فى ذلك الحين ، ثم ها هي ذى
الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ... هكذا هنَّ النساء ! ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر .
وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

... أنا وغد حقير .. هذا صحيح ... سيات أن أكون قد بكيت وأن
لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينبغي بكائى أننى وغد
حقير ! ... قل لهنَّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك
تعزية لهن . وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثروة ؟
وليس هذا بالأمر السخيف .. ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى
طريقى .. لك سبيلك ولى سبيلى .. ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن ،
اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه
ينتزع نفسه فجأة من شيء ما ، مضى يسير غاضبا بصره ، دون أن يرفع
رأسه . واتجه نحو المدينة بخطى سريعة . أتبعه اليوشا ظفرة دون أن
يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائيا .

— لحظة يا ألكسى ! هناك اعتراف آخر ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، وقف راجعا على حين فجأة • وتابع يقول :

— هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخى ! أنعم النظر الى !
ان رجسا كريهاً يتهاى هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمترى كلمة «هنا» وهو يلمطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذى يشير اليه انما يوجد مدفونا في هذا المكان بعيد ، مختبئاً في جيب السترة أو في كيس معلق بالحق) • انك تعرفنى الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضي ومما قد أن أفعله في الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل في حقارته اندنيّة الوعدة ما أحمله في نفسى ، في هذه اللحظة ، هنا ، في هذا الموضع ، على صدرى ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكننى أن أكبته •• ذلك أننى حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا ••• ولكن ألا فلتعلم اننى سأحققه ، واننى لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شيء الا هذا الامر وحده ، لأننى استحييت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحييت أن أعترف به ! ما يزال في وقتى متسع لأن أراجع ، واذا أنا توقفت عن الانحدار فى الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترده نصف سعادتى الضائعة ، على الأقل ••• ولكننى لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضى فى انفاذ خطتى السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قرارى الذى اتخذه وأنا فى كمال حريرى وتمام وعي ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شيء قريبا • زقاق عفن وامرأة جهنمية ! وداعا • لا تصل من أجلى ، لا تدع لى ••• فانا لا أستحق ذلك •• ثم

ان صلاتك من أجلى ودعاءك لى أمران نافلان لا حاجة بى اليهما ، أؤكد لك هذا • والآن ، انصرف ! •••

قال دمتري فيدوروفتش ذلك ، ومضى فى هذه المرة نهائيا • واستأنف أليوشا سيره فى الطريق الى الدير • « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة • « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا • كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟ » •

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى الصومعة راسا • فتتح له الباب ، رغم أن القاعدة هى أن لا يسمح لأحد بالدخول فى هذه الساعة المتأخرة • وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة • سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلنى الى العالم ؟ هنا مكان صمت وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيم الظلمات ، هناك يتيه الانسان ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر ••• » •

وجد فى الحجرة الراهب المبتدى بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجيئ ساعة بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيم • كانت حالة الأب زوسيم تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مروءعاً منزعوراً • حتى لقد ارتضى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيم أن يجريه فى المساء بنهر انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير • لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بعد القداس ، وقبل راحة الليل ، فى حجرة الشيخ ، فكان كل واحد منهم يتعرف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالأخاطر الآتية التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالأغراءات المباحثة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شيء من

ذلك • وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلموا أخطاهم • وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصدر أوامره فيهم ، ويعرض عليهم كفارات ، ثم يبارحهم جميعا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه • وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؛ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر • حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والغواية أيضا • وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك ، فهم يخشون أن يتهموا بالتكبر والاستعلاء والتنمر اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم • بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحيانا قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتثبتته » ، حتى يكون هنالك ما نقوله فنتخلص من هذه المهمة وننتهى من هذه السخرة • وكان ألبوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان • وكان لا يجهل أيضا أن هناك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا ويمتنعون امتعاضا قويا من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انما يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها • الحق أن الأصل فى هذا الأسلوب أنه يتبع برضى الرهبان أنفسهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهداف السلامة ، وغايات الخلاص • ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل . على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهينة كان لا يسوؤهم هذا الأمر كثيراً ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشتكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقاً ، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذي خلقوا له إنما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا في العالم ولا في الدير على السواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأن هذا الاعتراف اليومي يمكن أن يحضّر على الخطيئة .

أسرّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرّ اليه قائلاً بصوت خافت :

- انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب إيقاظه ؛ والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلّوا في الليل من أجله . وفي نيته أن يتناول القديسان المقدس غدا مرة أخرى . وقد تذكر يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة ، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضي الى المدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا ، ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذي تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

فى العالم زمناً • أترأه تنبأ بشئ عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسى أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تصرف فيه بروح الخضوع للمقاعدة التى ألزمت بها شيخك ، متحاشيا الأفكار الطائشة والمباهج المتبذلة ...

وخرج الأب بائسى • فأما أن الشيخ بسيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوما آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلاية وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير فى الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلا كوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذته هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وانما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مرأ على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم • ودخل أليوشا غرفة توم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجيا بلا حركة ، وكان نفسه الضعيف جدا يجرى مطردا منتظما ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكنا هادئا •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى - وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحا - اضطلعج ، دون أن ينضو عنه ملايسه ، ويعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطلعج على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجّد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبت يصلى زمناً طويلاً . لم يدعُ الله في صلاته الحارة أن يخلصه من قلقه وأن ينقذه من مخاوفه ، لأن ظمأ الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائماً بعد تلاوة الآيات التى تمجد الله فذلك هى صلاة الليل كلها ان الفرح الذى يغمر قلبه فى تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحاً .

وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه فى الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فاض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوف ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السخر كله فى الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفية » ، على غير علم أمى ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل على أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج فى قلبى ، ودون أن أطلعك على العاطفة التى وُلدت فيه والتى يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين . ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلاً وحياء ولكنى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمر الآن أمامى مثلما أحمرُ أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك ، أحبك منذ طفولتى ، منذ سنى موسكو التى كنت فيها مختلفا عنك الآن اختلافاً كبيراً . لقد أحبيتك منذ ذلك الحين مدى العمر . اختارك قلبى لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشبخوخة شريطة أن تترك الدير طبعاً أما عن السن ، فان

فى وسعنا أن تنتظر المدة التى يقتضيها القساون • والى أن يحين ذلك
الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملاً ، فأستطيع أن أمشى وأن
أرقص كما كنت أمشى وأرقص ... ذلك أمر لا ريب فيه •

• هأت ذا ترى أتنى فكرت فى كل شيء • ومع ذلك هناك نقطة
عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكرى : ما عسى أن يكون حكمك
علىّ ورأيك فىّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية « شيطانة » ، أكر
من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك فى هذا الصباح • ولكنى أحلف
لك أتنى صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة
إليك ؟ وائنى لأصلّى حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكى !

• هذا سرّى وضعته بين يديك • وائى لأسأله كيف سأستطيع
أن أنظر إليك غدا حين تجيء ؟ أوه ! ألكسى فيدوروفتش ! ما عسى
يحدث اذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسى فاذا أنا الحماة أنفجر
ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لى هذا من قبل ! لسوف تظننى
عندئذ فتاة خبيثة ساخرة ، ولن تصدق عندئذ ما عبّرت لك عنه فى
رسالتى • لذلك أضرع إليك ، يا صديقى العزيز ، اذا كنت ترحمنى
بعض الرحمة وتشفق علىّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينيّ كثيراً
حين تجيء الينا غداً ؟ ذلك أتنى قد يملكنى ضحك لا سبيل الى مغالبته
متى التقى نظرى بنظرك ، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل الذى
ترتيديه ! ... حتى فى هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسرى فى جسمى
حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شيء من ذلك • أستحلفك أن
لا تنظر الىّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجيء الينا غداً ، وانما
تلتفت بنظرك نحو أمى أو نحو النافذة •

• هأنذا كتبت إليك رسالة حب • ربا ، ما هذا الذى فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحتقرنى ! اذا كان ما أفعله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لى ! واعلم على كل حال أن سرى الذى قد يضيّع سمعتى - ربما الى الأبد - هو الآن بين يديك .

« سأبكي فى هذا اليوم حتماً » والى اللقاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» فى الغد .

« ليزا »

حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتى قطعاً ، قطعاً !

« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكّر قليلاً ، فإذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون انمأ . ولكنه عاد يضحك ضحكاً هادئاً بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناء الهادئة نفسها ، وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الطرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، وردد : « زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر » . اللهم اشملمهم برحمتك ، اشملم برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم فى هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم فى نفوسهم . اللهم احرسهم وسدّد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة . . .

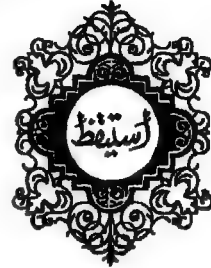
بهذا تمت أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً .

الجزء الثاني

الباب السابع: التقدمات

١.

الباب الثامن



ألبوشا في ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح •
وكان الشيخ قد صفا فلا يستطيع النوم ، وكان
يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرَّ
مع ذلك على أن يمارح سريره وأن يجلس على
مقعد • انه كامل الوعي ، وان وجهه يبدو مضياً حتى لكانه فرح ، رغم
آثار التعب الشديد الظاهرة فيه • وان نظرتة مرحة باشة هاشة مشجعة •

قال الشيخ لألبوشا :

— قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم •

ثم أعرب عن رغبته في أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس •
وكان الأب بائس هو الذي يقوم له بدور الكاهن في اعترافه • فبعد أن
أتم الشيخ تناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » • فاجتمع
الرهبان الكهنة في حجراته التي أخذت تمتلئ بالنساك شيئاً بعد شيء •
وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون في الدير يتوافدون
هم أيضا • وبعد القداس أظهر الشيخ نيته في توديع الجميع ، فأخذ
يقبل كل واحد • واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول
يجلون المكان للواصلين بعدهم • ولبت ألبوشا الى جانب الشيخ زوسيم

الذى كان قد جلس على مقعده • فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم النبرة •

— انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين • انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عال ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أننى أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل على من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفى (كذلك قال مازحاً ، وهو يُحيل على الرهبان والزوار الذين يزدهمون حوله نظرة ودوداً حنوناً) •

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التى عبر عنها الشيخ فى ذلك اليوم • ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاماً واضحاً متميزاً ، ورغم أن صوته ظل صلباً صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير • لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعماق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلاً كاملاً • وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعاً اليه بظلم حار الى اشراك الجميع فى الفرحة والحفاصة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخيرة •••

كان الشيخ يعلم قائلًا :

— أحبوا بعضكم بعضاً • أحبوا جميع أبناء الرب • لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانہ • بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه في الدير ، بأنه كان
 شراً من الانسان العادى وأسوأ من جميع أولئك الذين يقوا في الجهة
 الأخرى من الحاجز ... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها
 تشرباً ما ينفك يزداد عمقا كلما طال حياته في الدير . فلو أن الامر
 كان كذلك ، لما كان نعمة أى سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام
 به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ،
 بل أنه كذلك مذنب في حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل
 الشر الذى يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فهذا
 الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا في الدير . اعلموا أيها
 الاخوة الأعزّة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هذا العالم لا بسبب
 الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية
 بل هى مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع
 أخطاء أفراد . ان السمو بهذه الحقيقة هو الذى يتوج الحياة الرهبانية ،
 كما يتوَج من جهة أخرى حياة كل انسان أياً كان . ذلك أن الرهبان
 لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا
 الى ما ينبغي لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذا تحقق هذا الهدف انفتحت
 قلوبنا أخيراً للمحب اللانهائى ، الشامل ، الذى لا يصرف الحدود ولا
 يرتوى ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم في نفسه القدرة على
 غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض ...
 ألا فلتصنوا جميعاً الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعاً بأخطائكم
 لأنفسكم في غير مهادنة . لا تخشوا خطاياكم وان تكن واضحة
 لأبصاركم ، شريطة أن تدموا على ارتكابها وأن توبوا عنها ! ولكن اياكم
 و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطاً ! و اياكم
 والمحب والزهو والصلف ، قبل كل شيء وفوق كل شيء ! لا تعالوا على

الصفار ، ولا تعاملوا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين يبنونكم
ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويتأبونكم • ولا تكرهوا الملحدين ،
الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى اسوا هؤلاء واخبثهم ، ناهيك
عن اخيارهم ، لان بينهم أخيارا ، فى عصرنا هذا خاصة • اذكروهم فى
صلواتكم على النحو التالى : « اتخذ جميع الناس يا رب ! اتخذ جميع الذين
لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! » • ولكن
عليكم ان تبادروا فضيفوا الى ذلك فوراً : « اللهم انى لا أسألك هذا
زهوا بنفسى ، فاننى شبر الناس طرا واشقاهم قاطبة • احبوا أبناء الرب ،
احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغريب أن يسلبوكم القطيع • فاذا استسلمتم
للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب
الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأتكى) ، فان رجلا من جميع
البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم • بشروا بالانجيل فى صفوف
الشعب بغير كلال ولا ملال ••• اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب
او الفضة ••• ازهدوا فى امتلاك الذهب والفضة ••• آمنوا بالله ،
وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية •••

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهر
منهما هنا فيما دونه بعد ذلك أليوشا • كان يتوقف عن الكلام من حين
الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهائناً واضحا ، ولكنه كان
يشعر بنوع من الحماسة • وكان الحشد يصفى اليه فى حميا وخشوع ،
رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضة لبعضهم الآخر ••• وقد
تذكر المستمعون هذه المعاني التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد •

وقد تغيب أليوشا عن الحجرة لمحظات ، فما كان أشد دهشته حين
عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا فى الحجرة
ومن كانوا يحشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان فى

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطحب
بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون
حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا . قد تدل هذه الحالة النفسية
على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى
أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة . وكان وجه الكاهن الراهب بائيسى
يعبر عن خطورة خاصة .

لقد غاب اليوشا عن الحجيرة لحظة لان راكيتين الذى عاد من
المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوكا رساله غريبه بعض الغرابه ،
قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفيه . ان هذه الرساله تبلغ اليوشا
حادثا غريبا جاء وقوعه الان فى أنسب وقت . يتذكر القارئ أن بين
نساء الشعب المؤمنات اللواتي جئن امس الى الشيخ ليحنيه ولتلقين بركة
كانت هنالك امرأة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخورفنا وهى أرملة
صف ضابط . ان هذه المرأة قد سالت الشيخ هل فى وسعها ان تطلب
اقامة صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذى سافر بمهمة الى منطقة
ناثية من سيرييا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أنباء منذ سنة
سالت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد
مات ؟ ويتذكر القارئ أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهيا قاسيا ، ووصف
اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر . ولكنه غفر لها بعد
ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلا لها « كأنه قد
وُهب له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل » (هذه هى العبارة التى
استعملتها السيدة هوخلاكوكا فى رسالتها) ، قائلا لها ان ابنها فاسيا ما يزال
على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل
حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته . « فما الذى
حدث ؟ » (هذا ما جاء فى رسالة السيدة هوخلاكوكا) « حدث أن النبوة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! » . فان المرأة المعجوز ما ان رجعت
أمس الى مسكنها حتى أعطيت رسالة وصلت من سيريا أثناء غيبتها ،
وفى هذه الرسالة التى كتبها اليها فاسيا فى طريق عودته ، من
ايكاتيرنبورج* ، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ،
وأنه « يأمل أن يستطيع تقيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع فى أكثر تقدير .

ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير
الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات
النبوة » ، وتقول له هاتفة فى ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم
هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما ٠٠٠ » . وكان واضحا أنها قد
كتبت هذه الاسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة
من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتاج
الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين
كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاء فى هذه المناسبة نفسها
أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه
حالا ليكلمه فى أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه فى غير
إبطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، آملا
فى كثير من المذلة والتواضع أن تُغتفر له هذه الجرأة » . ولما كان الراهب
قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم
يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يظهر
عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل
الصارم الريتاب يقرأ الرسالة مقطباً حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين
اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى
هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطح ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يتسم

إبتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

— سنرى معجزات أخرى كثيرة •

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، ردّاً يقولون :

— سنرى معجزات أخرى كثيرة •

ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهاراً ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

— يحسن أن تنتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد إقناعاً، لأن العلمانيين كثيراً ما يظهرون خفة وطيشاً في هذه الأمور •

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدي ضميره :

— ثم ان الحوادث ، في هذه الحالة التي أمامنا ، قد يمكن أن تُفسّر كذلك تفسيراً لا شأن له بما هو فوق الطبيعة ...

قال الأب بائيسى ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسه شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكاً قوياً واضحاً •

وسرعان ما انتقل بآ « المعجزة » من فم الى فم ، فما هي الا برهه قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عسرفه كذلك كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس • وكان أشد الناس إنبهاراً في الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصير الذي وصل أسس من دير أويديورسك بشمال سيري • كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوفا ، فبعد أن حيّا الشيخ سألّه ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هي القوة التي تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » •

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن • ذلك انه فى مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، فى الحجرة الخاصة التى يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذى جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع • والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوى الذى اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذى كان يعدّ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيمّا ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة • وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التى كان يجب أن يلزم بها نفسه • وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناسا كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل • ولكن بساطة العقل هذه هى بعينها عنصر الجاذبية فيه • كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيمّا قط • ورغم أنه عاش فى المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا فى أمر مراعاة القسواعد المتبعة فى الدير لأن تصرفه فى هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل • انه فى الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، فى حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالا متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضى فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام :• ذلك هو الأب جوناس الذى عمّر مائة سنة

وعُرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقة المجاورة يذكرّون عنها تفاصيل شائعة . وقد استطاع الأب تيرابونت أن يظفر أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المتزوية التي تكاد تكون خربة بسيطة والتي فيها شبّه غامض بعمد، لكثرة عدد أيقونات النذور التي تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التي تشتعل فيها أمام الصور المقدسة بغير انقطاع . وقد كُلف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشغالها . وكان طعامه ، كما يقال (وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز في أكبر تقدير يحمله إليه كل ثلاثة أيام ، الراهب الذي يتعهد خلایا التحل ويسكن غير بعيد عن ذلك المكان أيضا . فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هذا الراهب الذي يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا . وهو لا يأكل طوال الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافة الى لقم القربان المقدس التي كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية . وكانت جرة الماء التي يشرب منها تملأ له كل يوم . وكان الأب تيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبدا . وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضى أياما بكاملها في الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لا ينظر بحوله يمنة ولا يسرة . فاذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم ، كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظا غليظا في جميع الأحيان . صحيح أنه كان يحدث ، في القليل النادر ، أن يندفع في مناقشات أطول ، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفى باطلاق جملة عجيبة يكون وقعها في نفس زائر وقع لغز محير ، ثم يرفض أن يعقب عليها بأي شرح رغم جميع التوسلات . ولم يكن الأب تيرابونت في رتبة كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا . وقد راجت عنه في بعض الأوساط ، وهي الأوساط الباهلة التي تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنه

شائمة غريبة مقادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين •

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خلايا النحل ، وهو راهب صموت متجههم أيضا ، فأتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة الناسك • وقد قال له الراهب الذى يتعهد خلايا النحل :

- ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تتزعم منه كلمة واحدة •

اقرب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد ، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد • وكان ذلك فى ساعة متأخرة • ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أتمشته طراوة المساء •

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه • فقال له الأب تيرابونت :

- أترك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟
هيا انهض •

نهض الراهب الصغير •

- ألا فلتحل عليك البركة • اجلس بجانبى • من أين أنت ؟
دُهنس راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن في السن ، ورغم الصيام القاسي الذي يفرضه على نفسه ، ما يزال مسحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارغ الطول منتصب القامة ، له وجل نحيل لكنه نضر سليم . ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة . ولقد كانت بنته بنية رجل رياضي على كل حال . ثم انه على تقدمه في العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه وليحيته ، الذي كان في الماضي فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا . وعيناه الشهبوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمة تخطف البصر رأساً . وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا . أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذي كان يسمى في الماضي « جوخ السجاء » ، مع حبل طويل يتخذه حزاما . والعنق والصدر عاريان . وتحت الثوب يرى قميص من نسيج مبتذل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور . وكان يقال انه يتقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً . وقدماه بلا جوربين ، وانما هو يتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه .

— أنا آت من دير سان سيلفستر الصغير في أوبدورسك .
كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينه الصغيرتين الحادثتين الفريبتين اللتين ما تزالان مروعتين قليلا .
— أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر . لقد عشت عنده زمنا . كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

اضطرب الراهب الصغير .
— يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟
— طعنا تمحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففي أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئا في أيام الاثنين والأربعاء والجمعة . وفي أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلًا ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء . وفي أيام السبت نأكل كرنباً أبيض وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت . ويضاف الى الكرنب شيء من سمك مقدّد وبرغل عادى فى أيام الأحد . أما فى الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أى خلال ستة أيام ، الا خبزاً وماء وخضاراً نيئة - وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال . ذلك أنه اذا كان مباحاً لنا أن نأكل فى ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم . وفى يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملاً ، وفى يوم السبت من هذا الاسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نخشى قدحاً واحداً من النبيذ ؛ وفى يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم لنا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المأكّل الناشفة . ذلك أن مجمع الأساقفة الذى انعقد فى لاوديسه قد أقر النظام التالى فى أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام فى خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله ، . ذلك هو صيامنا . وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى القاعدة التى فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذى بدا أنه استرد شيئاً من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى فى يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذى نأكله فى يومين يكفيك أمت أسبوعاً كاملاً . فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقاً بمثل هذا التقشف العظيم .

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة فى نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الاب تيرا بونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكستندرا كورساكوفا

— وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

— فطر الغابات ؟

— طبعاً ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة
قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتنذى فيها بالفطر والثمار • ولا
كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم
مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به • ان فى زماننا هذا كفره كريهين
يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له • فتفكيرهم مشبع بالزهو
والصلف والكبر قد تسلت اليه روح الشيطان وسكنته •

قال الراهب الصغير متنهدا :

— ما أصدق هذا الكلام !

— هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

— عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء •

قال الاب تيرابونت :

— زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكننى
لم أعد اليه منذ ذلك الحين • لقد رأيت عندهم جنأ ! رأيت جنأ يتسلقون
صدور الرهبان ، ورأيت جنأ يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا
قرونها • حتى لقد رأيت واحدا من هؤلاء الجن يقبع فى جيب من
الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين •
كان خائفا منى فيما يبدو • وبمض الرهبان يؤوون جنأ فى بطونهم بين

أحشائهم التجسبة • وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

— وهل ... وُهبِت لك القدرة على رؤيتهم ؟

— قلت لك اننى أراهم • ان نظرتنى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحدا منهم حاول أن يختبئ وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله مترا • وكان له ذيل ضخّم أشقر ، طويل جدا ، قد انحسر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غيباً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فينما كان يتخبط رسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فأذا هو يفتطس . كما يفتطس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هناك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يسمعون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • اننى أسرُّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

— رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

— وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجل ، هل صحيحة تلك الشائعة الجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

— الروح القدس يأتى فيقف هنا أحيانا • ذلك يحدث •

- يقف هنا ؟ فى أية صورة ؟
- فى صورة طائر •
- الروح القدس يظهر لك فى صورة حمامة ؟
- يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة • فأما روح القداسة فيمكن أن تجلى فى صور شتى ، فتارة تظهر فى صورة سنونو ، وتارة تظهر فى صورة حسون أو فى صورة قرقب أيضا •
- فكيف تميزها عن قرقب عادى ؟
- أعرفها لأنها تتكلم •
- كيف هذا ؟ بأى لغة ؟
- بلغة الانسان •
- ماذا تقول لك ؟
- يختلف ما تقوله لى باختلاف الأحوال • ففى هذا الصباح مثلاً أبلغتسى أن زائراً غيباً سيزورنى وسيزعجنى بأسئلة حمقاء • هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف فى الاستطلاع ؟
- أيها الاب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان هذا الذى تعلمنى اياه يطيش اللب ويذهب بالصواب !
- كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه • على أن شيئاً يسيرا من عدم التصديق قد ظهر فى عينيه اللتين عاد اليهما الروع والخوف •
- سأله الاب تيرابونت بعد صمت قاتلا :
- هل ترى هذه الشجرة ؟
- أراها يا أبى المحترم •

— لا شك أنك تظنها شجرة دردار • أما أنا فأرى فيها شيئا آخر •

واتنظر الراهب الصغير يضع لحظسات يرتقب أن يقول له الاب تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قرر أن يسأله ، فقال :

— فماذا ترى فيها ؟

— يحدث لى هذا فى الظلام • هل ترى هذين النصين ؟ ان المسيح يظهر لى فى هذا الموضع حين يخيم الليل ، فيمد الى ذراعيه ويبحث عنى • اننى أراه رؤية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفا • ذلك شئ بيت النعر فى النفس ، هل تعلم ؟

— لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

— قد يقبض على ويرفعنى الى السماء •

— حيا ؟

— ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المسيح بذراعيه ويأخذنى •••

رغم أن راهب أويديورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجرة التى عيَّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى فِراة قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ زوسيم • ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتى موهبة « رؤية المجزة » • صحيح أن الأقوال التى قالها الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذون بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة ، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعد على الدهشة . أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصدقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعمده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعة ضارة ضررا صريحا . وكان قد أُنصح له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدعات الاستنكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام . واذ كان بطبيعته امرأ طلمعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيمّا قد هزّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجر ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شئ ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وإنما تذكره فيما بعد وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيمّا الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المبتدئ بروفير • فتح الشيخ عينيه
المتعبتين بكثير من العناء ، وحدث الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

— هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا •

وعاد الشيخ يسأله :

— أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه

اليوم ؟

— وعدت أبى ••• وأخوى ••• وآخرين أيضا •

— ذلك ما قدّرته • فاذهب اليهم حتماً • ولا تحزن • اعلم اننى

لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك • اليك

سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ••• اليك أنت

يا بنى لأنك تحببى • امض الآن الى من ينتظرونك •

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن

ينصرف فى هذه اللحظة • ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن

يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه

سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته

الروحانية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً • لذلك أغدّ خطاه حتى

يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير

بأقصى سرعة • وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؟

وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى

نفسه أثراً عميقاً لم يكن فى الحسبان • لقد قال له الأب بائيسى :

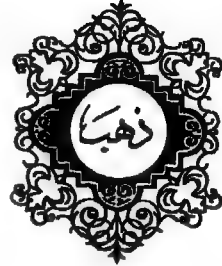
— تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التي نمت نمواً كبيراً وأصبح لها سلطان عظيم ، قد هجمت ، فى خلال هذا القرن خاصة ، على كل ما تركه لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية • فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حاد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشئ ، لم يحتفظوا بشئ البتة مما كان يُعدُّ مقدساً فى القرون الماضية • لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الدينى على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا • ذلك أن «الحقيقة» انما هى فى «المجموع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقدر أبواب الجحيم أن تنقبأ شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها • ألم تنش هذه الحقيقة تسعة عشر قرناً ؟ ألا تزال تعيش اليوم فى أشواق جماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلب أولئك الملعدين الذين أرادوا أن يدمروها • ذلك أن هؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظون بصورته حية فى أنفسهم ، كما كانت فى الماضى ، شاءوا أم أبوا • ذلك أنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلمهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلاً أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذى قدمه لنا المسيح فى الزمان القديم • ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدَّ الى غير الحطة والنلطة • فاحفظ هذا جيداً أيها الفتى ما دام شيخك المحضر قد أرسلك الى العالم • فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضاً فى هذه الكلمات التى قلتها لك صادرة من أعماق قلبى لتضى لك طريقك • ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكفيك قواك وحدها للتغلب على هذه المغريات دائماً • والآن امض إليها
اليتم •

وبعد أن قال الأب بائسي هذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك أليوشا فجأة ، وهو يتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان إلى ذلك الحين صارماً تلك الصرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها في معاملته ، سيكون له بعد اليوم صديقاً جديداً وموجهاً روحياً يحمل له أعمق المودة والعطف - كأن الأب زوسيم هو الذي عهد إليه بهذه المهمة وهو يحتضر • قال أليوشا يحدث نفسه : « من يدري ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل هذه الشروح العلمية النقية التي سمعها من فم الأب بائسي ، وهي شروح أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أي حديث آخر ، على أن الأب بائسي يضمّر له عاطفة صادقة حارة ؟ لقد أسرع الأب بائسي يزوّد عقله بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم ، وأراد بغير إبطاء أن يحصّن نفسه الفتيّة المراهقة التي عهد إليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

في منزل الدير



أليوشا أولا الى منزل أبيه • فتذكر وهو يقترب
من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن
يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان •
فتساءل فجأة : ولماذا ؟ اذا كان أبى يريد أن
يروح لى شىء من الأشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل
دون أن يعلم أخى بذلك ؟ أحسب أن أبى قد أساء التعبير من شدة
اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التى يفصح بها عن مراده • •
هذا ما قاله لنفسه • ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين
فتحت له مارفا اجناتنا الباب الحديدى (كان جريجورى قد مرض فلزم
سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن
ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين •

— وباتوشكا ؟

— نهض من فراشه ، وهو يحسب الآن قهوته •

هكذا أجابته مارفا اجناتنا شىء من الجفاف والخشونة •

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، متعللاً خفيئ ، مرتديا
مبذلاً عتيقا • كان الأب بسبيل التدقيق فى بعض الحسابات تزجية

لوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذى يقوم به . ولم يكن فى المنزل أحد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) . كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منحرف الى غير ذلك . وكان يبدو عليه التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صحا فى ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه . وقد عقد على جيئنه الذى ظهرت فيه بقع أرجوانية كثيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً أحمر . وكانت على أنفه الذى تورم كثيرا منذ البارحة ، كانت على أنفه بقع مائلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهي تضيف على وجهه تعبيراً عن غضب حائق خيئ . وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة . وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

– القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً . وأنا نفسى أترم اليوم حمية قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسلك ولا أدعو الى مائدنى أحدا . لماذا رأيت أن عليك أن تجيئ ؟

قال أليوشا :

– أردت أن أسأل عن صحتك .

– أعرف . ثم اننى أمرتك أنا نفسى بالأمس أن تزورنى . تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل . على أننى تبأت بأنك ستسارع الى المجيئ

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منقّرة كريهة ، ونهض فى الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والتقلق (لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؟ وفى هذه المناسبة

عدل المنديل الأحمر الذى يلف جبينه وجهه أن يعقده على آتق طريقه •
وقال بلهجة متكلفة :

– لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى •
هيه ! ماذا ورايك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟
فأجابه ألبوشا قائلاً :

– حاله سيئة جدا ، وقد يموت فى هذا النهار •
ولكن الأب لم يصنع الى جواب ابنه ، وكان قد نسى السؤال الذى
ألقاه عليه •

قال المجوز بدون تمهيد :

– خرج ايفان • انه يهيم • جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيته •
ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشّرة :
– وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا •
فسأله ألبوشا :

– هل باح لك بهذا فعلاً ؟

– طبعا • قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟
اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع • ما أحسب أنه جاء الى هنا ليدبحنى
خفية هو أيضا • فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه
المدينة •

سأله ألبوشا مضطربا اضطرابا رهيبا :

– ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

- صحيح ! نه لم يطلب منى مالا ، ولن أعطيه قرشاً واحداً على كل حال . اننى أريد ، يا ألكسى فيدوروفتش المحترم جداً ، أن أعيش فى هذا العالم أطول عمر ممكن ... ضع هذا فى ذهنك ! ... لذلك سأكون فى حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك .

ثم أضاف وهو يسير فى الفرقة طولاً وعرضاً ، واضعاً يديه فى جيبي مبدله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفى خفيف أصفر اللون :

- وكلما طعنت فى السن وتقدمت فى الشيخوخة ازدادت حاجتى الى المال . أنا الآن ما أزال رجلاً ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً ، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتأزل عن رجولتى . واذ أننى سأصبح طبياً ، فسأصبح منفراً ، فلا يأتين الى من تلقاء أنفسهم راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها ولا تغنى عنها . لذلك ترائى الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسى وحدها يا بنى العزيز ألكسى فيدوروفتش ... ضع هذا فى بالك ... ذلك أننى أعزم عزماً قاطعاً جازماً - اعلم هذا أيضاً - على أن أسترسل فى خلاعتى الى آخر أيام عمري . ان الخلاعة تلتطف الحياة : جميع الناس يسيون الخلاعة ، ولكنهم جميعاً يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سراً على حين اننى أتعاطاها علانية . ان صراحتى وسداجتى هما اللتان تعرضانى لهجوم ونقد تلك المصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق . أما جنتك يا ألكسى فيدوروفتش فأنى لا أريدها لنفسى ... اعلم هذا ... ان الانسان اللائق ليس له فى الجنة ما يعمل ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة . وفى رأيى أنا أن المرء يموت فيتنهى بموته كل شيء . ينال ثم لا يستيقظ ، ولا شيء بعد الموت أبداً . صلوا من أجلى بعد موتى اذا شئتم ، وان لم

تشاموا فلا تصلوا ••• شيطان يأخذكم ••• تلك هي فلسفتي كلها •
لقد تكلم ايفان بالأس فاحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى • ان
ايفان انسان متبجح • ليس هو بالعالم قط • بل انه ليس على شيء من
ثقافة حقيقية • انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس
صامتا • ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا •

كان أليوشا يصنى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة •
وتابع الأب كلامه قائلاً :

— لماذا لا يكلمنى أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمنى كان يمثل
تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فسأزوجها متى
حلا لي أن أتزوجها • ما دمت أملك المال ، فيكفى أن أريد حتى أبلغ
كل شيء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه
يعيش هنا ويراقبني حتى لا أتزوج ، ويحضر ميتا في سبيل تحقيق هذا
الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يعيدني عن هذه المرأة
بهذه الوسيلة (كأنه يظن أنني سأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج
جروشكا !) • ومن جهة أخرى سيسلب ميتا خطيبته اذا تسنى لميتا أن
يتزوج جروشكا • ذلك هو الحساب الذي يجريه • انه وغد ، صاحبك
ايفان هذا !

قال أليوشا :

— ما أشد احتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأس •
فالأفضل أن ترقد في السرير •
أجاب الأب المعجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في
هذه اللحظة وحدها :

— قد تكون على حق فيما تقول • انك الآن تنصحنى فما أغضب •
ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى •
مك وحدك انما أتبع لى أن أقضى لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيباً ،
لأننى شرير فى العادة •

قال أليوشا مبتسماً :

— ما أنت بشرير •

— اسمع يا أليوشا • لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص
مينكا ، ولا أدري حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيراً . أنا لا أجهل
أن « الموضة » الرائجة الآن هى أن يُعدَّ احترام الأبناء آباءهم وهماً
باطلاً وعادة سخيفة • ولكن القانون لا يجوز ، حتى فى عصرنا هذا ،
أن يجزَّ ابن أباه المعجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكعب حذائه ،
فى منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه
فيما بعد • فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس •

— وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

— ثانى ايفان عن عزمى • على أتنى لا أحفل برأى ايفان ، وانما
خطر ببالى شىء آخر •••

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو
يكاد يهمس همساً :

— لو اعتقل هذا الوغد، لعلمتُ هى بأتنى أودعته السجن ، فهرولت
تسمى اليه فوراً • أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن
يقتلنى أنا الشيخ المعجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودنى ••• ذلك هو
طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُستظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! اننى أعرفها حق معرفتها ! بالناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها •

- لا ••• شكرا ••• لا أريد ••• ولكننى فى مقابل ذلك سأخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك •

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبكات ، ودسّه فى جيب ثوبه • ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

- أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا •
قال الأب :

- أنت على حق • ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى • لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ••• كأسا واحدا ••• الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة •••

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملأ كأساً ، وأفرغه فى جوفه ، ثم أفلت الخزانة من جديد ، وردّ المفتاح الى جيبه •
- يكفينى هذا • كأس واحدة لن تقتلنى •

قال أليوشا وهو يتسم :
- ها قد عدت طيباً •

- طيب ؟ هم ••• اعلم اننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئا من الكونياك ••• أما الأوغاد فاننى أعرف كيف يجب أن يعاملوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس على :

انه يجب أن يعرف هل سأعطى جروشنكا مالا كثيرا اذا هي جاءت •
 انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فأتى لا أعترف به ابناً لى •
 من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا !
 أيلظن أنني سأورثه شيئاً من مال ؟ ألا اتى لن أكتب حتى وصية •••
 اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلاسحقته كما تسحق خنفساء قذرة • انه
 يتفق لى أن أسحق خنفساوات فى الليل ، فتلق طيقاً جافاً حين تفتطس ،
 فهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت « صاحبك »
 فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تملكك به لا يقلقنى ••• على
 حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لاتبانى خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسى •
 غير أن ايفان لا يحب أحدا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا
 بشراً مثلنا ، هم تراب أثارتهم الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط
 التراب ••• لقد خطرت ببالى فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء
 اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل
 أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقى ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ
 على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون
 جروشنكا طبعاً ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟
 تتم أليوشا يقول :

– سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة
 آلاف ، فمن الجائز أن •••

– خطأ ! لا تكلمه فى هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل
 تسمع ؟ لقد غيرت رأيى منذ أمس • هي فكرة غبية خطرت ببالى •
 لن أعطيه شيئاً ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأننى فى حاجة الى هذا المال
 أنا نفسى (كذلك صرخ الأب الجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف
 أعرف كيف أسحقه كما تسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تخلص عليه

شيئاً ، والا فقد تراوده آمال • ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندي • فإذهب
الآن ، امض الى ديرك • ولكن قل لى : هل تريد خطيبته ، هل تريد
كاترين ايفانوفنا تلك التى حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنى ،
هل تريد أن تزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ،
أليس كذلك ؟

— انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

— هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته !
انهن يحبين شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! نق أن هذه الأنسة الشاحبة الراقية
لا تساوى شيئاً • ما أكبر الفرق بينها وبين ... الخلاصة ! آه لو كان
لى عمره ووجهى أيام شبابى (لقد كنت أجمل منه فى صباى) • اذن
لكانت لى غزوات أنا أيضا • ألا انه لشقى ! أما جروشنكا فلن ينالها ،
لن يحظى بها • • • لأمرغته فى الوحل ! • • •

استمر حنق المعجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات • ثم قال
بلهجة جافة خشنة :

— اذهب الآن • لا عمل لك اليوم هنا •

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبله فى كتفه • فسأله الأب
دهشاً :

— لماذا هذه القبلة ؟ سوف نلتقى بعد الآن • أم تُراك تقدر أننا لن
نلتقى قط !

— لم يخطر ببالى هذا • لقد قبلتك بنيرة ، وعلى غير قصد •
— ولا خطر ببالى أنا أيضا • وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً
وغفلة •

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى ألبوشا قلقاً • وفيما كان ألبوشا
يبتعد صرخ الأب يناديه :

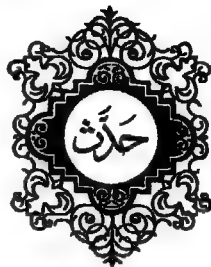
- لحظة • انتظر لحظة ! تعال الىّ في أقرب فرصة • سأذيقك
ما أعده من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعال
حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

وحين أغلق الباب وراء ألبوشا ، اقترب العجوز من الخزانة
الصغيرة مرة أخرى فأفرغ في جوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة • ثم
دمدم يقول وهو يتخنع :

- سأتوقف عن الشراب الآن •

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعد ذلك الى
غرفة نومه ، واضطجع على سريريه وهو يشعر بأنه منهك مرهق • وسرعان
ما نام •

لقاء مع ثلاثة



أليوشا نفسه قائلاً حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة هو خلا كوكفا : « الحمد لله على أنه لم يُلْقَ على أسئلة عن جروشنكا ، فلو فعل لاضطرت أن أحدثه عن مقابلة الأمس » .

وقد قدّر أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعاراً أثناء الليل ، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمواجهة بقوى غضة جديدة ، وأن الصباح قد طلع عليهم وهم أفسى قلباً وأعتى نفساً .

قال يحدث نفسه : « الأب حائق سيء المزاج خبيث النية وقد نبتت في رأسه فكرة لن يتخلى عنها ... ودمتري ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخاً واصراراً منذ أمس ، وأن قلبه هو أيضاً قد امتلأ حقداً ومقتاً وغباً . ولا شك أنه أخذ يبيت أمراً ... أوه ! يجب على حتماً أن أستطيع رؤيته في هذا اليوم ، يجب أن أراه اليوم مهما كلف الأمر » .

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلاً . فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها شيء من خطورة الشأن طبعاً ، ولكنها أحدثت في نفسه أثراً قوياً جداً . كان قد اجتاز الميدان إلى شارع ميشيل الذي يوازي « الشارع الكبير » ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها في جميع الاتجاهات حفر وقنوات صغيرة) ؟ وانه ليسير في هذا

الزقاق اذا هو يلعب تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبة من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة في أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذي يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً لينة من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدى دراعة ، وبعضهم يرتدى معطفا قصيرا ، وبعضهم يتحمل جزمة عالية على ساقيها أخاديد ، من تلك العزيمات التي يجب اتمالها الاطفال الذين يدلهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شيء . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا في موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم في العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيرا أيضا . لذلك أحب فجأة ، رغم الهموم التي كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم في حديث . فلما اقترب منهم متفرساً في وجوههم الملونة المتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصة ، حتى أن بعضهم يحمل حصانين اثنين . ورأى في البجعة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلاً آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه في العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبي يراقب عصبة التلاميذ السنة الذين يقابلونه ، وكان واضحاً أنه يعدم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسلمان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبياً أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدى دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

— أيامَ كنتَ أحملُ أنا كيساً مثلَ كيسك ، كانت العادة أن نضعه
فى الجنب الأيسر ، حتى تتاله اليد اليمنى بسهولة أكبر • أما أنتم
فالكيس يتدلى عندكم على الجهة اليمنى ، فلا تستطيعون امساكه على وجه
مريح •

وقد أبدى ألبوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية* ،
دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتودد بها الى الطفل ويكسب ثقته •
ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفال ،
ولكسب ثقة عصبية من الاطفال خاصة ، هى أن تدخل فى الحديث معهم
على الوجه الذى عمد اليه ألبوشا، أى أن تخاطبهم جادا فى أمور محسوسة
ملموسة جاعلا نفسك نداءً لهم ، واقفاً على قدم المساواة معهم • وكان
ألبوشا يدرك ذلك بغريزته •

— ولكنه أسرع !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جرىء الهيئة قوى الجسم
ظاهر الصحة يبدو فى نحو الحادية عشرة من عمره •
وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدثون الى ألبوشا •
وقال تلميذ ثالث :

— وهو يستعمل يده اليسرى أيضا فى قذف الحجارة •

وفى تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبية الأطفال ، فلامس
الأعسر الصغير لكنه أخطأ رغم أنه قد قذف بمهارة واحكام وقوة • ان
ذلك الصبى المربط فى الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر •

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

— هيا يا سموروف •• سدّد اليه •• ارمه بحجر ! ••

ولكن سموروف (الصبي الأعسر) لم ينتظر أن يشجبه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الرد فوراً ، فرمى الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض . وسرعان ما ردَّ الصبي على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثانٍ ، ولكنه رمى في هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه في كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً . وكانت جيوب الصبي ملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف .

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

— انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً .
ألسنت من آل كارامازوف ؟ ألسنت من آل كارامازوف ؟ أصحيح أم لا ؟
هياً بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً في هذه المرة !

وطارت حجارة ست في آن واحد معاً . فأصابت احداها الصبي في رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حائفاً مسعوراً ، وأخذ يقصف عصبة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف في الاتجاهين . وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هي أيضاً بقذائف .

صاح أليوشا يقول لهم :

— ما هذا الذي تفعلونه ؟ ألا تستحون ؟ أسته على واحد ؟ سوف تقتلونه .

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف في مسار القذائف ليحمي بجسمه الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة . فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات .

وصرخ صبي يرتدى دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حائق :
— هو الذي بدأ . انه قاطع طرق . . . لقد جرح كراسوتكين في

المدرسة بطعنة موسى • وتدفق دم كراسوتكين غزيراً • ولم يشأ
كراسوتكين أن يشكوه • ولكنه يستحق عقاباً •••

— ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكتموه فى البداية ، أليس
كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

— ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر • لقد عرفك • انه
يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن • هياً بنا ! عليه يا أولاد !
لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتالى من الجهتين ، أشدَّ هولاً فى هذه المرة •
فأصيب صدر الصبي الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة
ألم ، وأخذ يبكي ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الراية فى اتجاه شارع
ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

— آه •• خاف •• هرب •• جبان •• خرقة مبللة ••

وعاد الصبي الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد
اشتعلت عيناه بحمى :

— أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبي يا كارامازوف •
ان قتله قليل عليه •

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً •

— ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشى مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية •

وتابع الصبي نفسه كلامه فقال :

- أأنت ذاهب في اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...
وردّد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

- هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك •

- أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! اسأله هذا
السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين • فنظر اليهم
أليوشا ونظروا اليه صامتين •
وصرخ سموروف يقول له محذراً :
- اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...
قال أليوشا :

- لن أكلّمه عن ليفة الحمام ، لأننى أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه
بهذه الكلمة • ولكنى سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره •

فأجابه الصبية ضاحكين :

- فسأله اذن ، اسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الراية ، ماراً قرب
سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبي المعتزل •
قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يتعد عنهم :

- انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطنك من
خلف ، كما فعل بكراسوتكين •

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه • فلما اقترب أليوشا
كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً فى التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيراً له وجه مستطيل نحيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان
ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة * انه يرتدى معطفاً عتيقاً جسدأ أصبح
صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاها العاريتان تخرجان من
الكمين المسرفين فى القصر * وعلى السروال تُرى رقعة عند الركبة
اليمنى * ومن ثقب فاغر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالخبر
من قبيل الاخفاء * وجيا الرداء متفتختان بما فيهما من حجارة *

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظرة سائلة ،
فأدرك الصبى من نظرته فوراً أنه لا ينوى أن يضربه * فبدأ عليه شىء من
التأس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

— أنا واحد وهم ستة ... ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة *

قال ذلك واشتعلت عيناه *

قال أليوشا :

— لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجتتك كثيراً *

فهتف الصبى يقول :

— ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه *

سأله أليوشا :

— هم يزعمون أنك تعرفنى ، وأنتك رميتنى بالحجر عامدا *

فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على أليوشا نظرة قاتمة *

قال أليوشا ملحاً :

— أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفني أنت ؟

فصرخ الصبي فجأة يقول بصوت حائق ولكن دون أن يتحرك
فكأنه ينتظر شيئاً ما :

— دعني وشأني • انك تزعجني وتضايقني !

قال أليوشا :

— طيب • سأصرف • ولكن لاحظ أنني لا أعرفك ولم أشاكسك
أبداً • وقد ذكرنا لى كيف يمكننى أن أغضبك ، ولكنى لا أنوى أن
أفعل ذلك • استوعك الله !
ومضى أليوشا •

— راهب منافق ! انك ترتدى تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبي أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان
ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن •

ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبي
صامتاً ، ثم ابتعد ... ومع ذلك فانه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر
بألم شديد فى ظهره • لقد أصابه الصبي بحصاة ضخمة جدا هى أثقل
حصاة كان يحملها فى جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال
للصبي :

— آ ... آ ... تهاجم من خلف ؟ لقد صاقت الصيئة اذن حين ذكرنا
أنك تضرب بفتة كما يفعل جبان !

غير أن الصبي وقد استبد به غيظ شديد قد رماه فى هذه المرة
بحجر على وجهه ، فلولاً أن أليوشا سارع يحمى وجهه بذراعه ، اذن
لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه •

هتف أليوشا يقول له :

- ألا تستحي ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبي جامداً في مكانه وقد لاح في وجهه الشر والعدوان . كان مقتنعاً بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكتلتا يديه ، وعض خنصره عضّةً قاسيةً رهية ، غارساً أسنانه في لحم الاصبع بكل ما أوتى من قوة مدة ثانيتين . صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبي . فلما أرخى الصبي أسنانه أخيراً ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها . كانت العضّة قوية ، قريبة من الطفر ، قد وصلت إلى العظم . انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، ففضى في هذا التضميد دقيقة كاملة . وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفاً في مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

- هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في اصبعي ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فقل لي الآن : بماذا أسأت إليك ؟ أي أذى ألحقته بك ؟

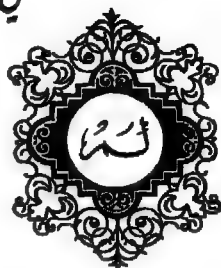
فنظر إليه الصبي مشدوهاً . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

- أنا لا أعرفك .. صدقتي .. وهذه أول مرة أراك فيها .. ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصور أنني لم أسيء إليك أية اساءة ، فلولا أنني
أسأت إليك لما عذبتني هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذي
اقترفته في حقك ، وما هو الشر الذي أنزلته عليك ، قل لي ! ...

ولكن الصبي ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكي بكاء قويا جدا على
حين فجأة ، ثم ولَّى هارباً ... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو
شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف
سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكي . وعزم أليوشا عزمًا قاطعاً
على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتحت له لحظة من حرية ، ليجلو
هذا السر الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع
لهذا .

في منزل السيدة هوخلاكوفا



يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة
هوخلاكوفا وهو مبنى أتيق من حجر ، مؤلف
من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوفا . انه من
أجمل مباني مدينتنا . ورغم أن السيدة
هوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها أرضا ،
وعاشت كذلك في موسكو حيث تملك قصراً خاصاً ، فقد احتفظت بالمنزل
الذي تملكه في مدينتنا والذي ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن
نذكر مع ذلك أن أرضها في مدينتنا هي أوسع الاراضي الثلاث التي
تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا
نادرا حتى الآن .
هرعت السيدة هوخلاكوفا تستقبل أليوشا في الدهليز ، وسألته
بسرعة عصبية :

— هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة ؟

— تلقيتها .

— هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردَّ الشيخ

الى هذه المرأة ابنها .

قال ألبوشا :

— سيموت الشيخ فى هذا اليوم !

— أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هذا • آه ••• ما أشد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر •• بل اليك •• اليك أنت ! خسارة أنتى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ••• ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟

هتف ألبوشا قائلاً :

— صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم ! لقد أصرّت أمس أن أزورها اليوم •

— أعرف هذا • أنا على علم بكل شىء • لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً ••• عرفت كل قطاعات تلك ••• المخلوقة ! هذه فاجعة ! ••• لو كنت فى مكانها ••• حقا انتى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ••• يارب ! ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ••• لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل ما فعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معاه ان حديثاً فحماً يدور بينهما ! ••• ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيع ، شىء فظيع ، أؤكد لك ••• تمزق حقيقى ! قصة لا يصدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة • أوه ! لقد انتظرت وصولك ••• كنت فى حاجة الى أن أراك • يستحيل على ، يستحيل

على إطلاقاً أن أشهد هذه الدراما مكتوفة الأيدي عاجزة كل العجز !
 سأقص عليك هذا فيما بعد . ولكن يجب على الآن أن أقول الشيء
 الأساسي . . آه . . كدت أنسى الشيء الأساسي . هل تستطيع أن تشرح
 لي لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم نبأ وصولك
 حتى ألت بها نوبة هستريا !

— ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا .

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، في الغرفة
 المجاورة .

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود
 التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحسن المرء برغبة في
 الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكه ويكبحها بكل ما أوتي
 من قوة . ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه
 من خلاله ، جالسة على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها .

— أنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان في
 هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! . . . ان نزواتك المستمرة
 الدائمة خليقة بأن تجعلني مجنونة . ليتك تعلم يا ألكسي فيدوروفتش
 الى أي حد هي مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد
 على أن تن . . . ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح
 لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه . وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من
 الأمر شيئاً ، وأن علينا أن نصبر ، فنرى كيف ستتطور حالتها . ان
 هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئاً غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ في
 كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى
 أطلقت صرخة وألت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة
 هنا .

– ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا • فأتانا لم أهرب الى هذه الفرقة بسببه هو •

– غير صحيح يا ليزا ! لقد أسرعتُ جوليا ببلغتك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنت قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله •

– ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعيه بالدعاية الفكهة •
فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغنى ألكسى فيدوروفتش المحترم جداً الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأ الذكاء حين قرر أن يجيء بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه •

– ليزا ، انك تسرفين ! تقى أنتى سأأخذ فى حقك اجراءات قاسية آخر الأمر • من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ انتى من جهتى سعيدة جداً برؤيته • أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه • آه يا ألكسى فيدوروفتش ! لبتك تعرف مدى شقاىى وتعاستى ! ...

– ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

– هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هذا الطيب الفظيع الأبدى هرتسنشتوبه ، هذا الطيب الأبدى خاصة ، هذا الطيب الأبدى الذى لا مفر منه ولا معدى عنه ! ثم كل شيء ، نعم كل شيء ، كل شيء اطلاقاً ... وحتى هذه المعجزة ! ... لا تستطيع أن تتصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجسرى الآن فى الصالون والتى يستحيل على احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ... أؤكد لك ذلك منذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ... ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيميا حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ...
يا رب ! ... أصبحت لا أدرى ماذا يقع لى . فى كل لحظة أغمض عيني ،
فأرى أن كل شيء باطل لا معنى له ...

قاطعها أليوشا سائلا :

— هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقه نظيفة أعصب بها
اصبعى ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاًماً شديداً .
نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من
الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت
حاجبيها .

— يا رب ! يا لهذا من جرح ! فطبع ! ...
ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت
الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمر صارم :

— ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة!
آه ... يا رب ! كيف أمكنك أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان
يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماء قبل كل
شيء ، هاتوا ماء ... يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم نغسل اصبعك
فى الماء البارد تهدئةً للألم . لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة
طويلة فى الماء ... اسرعى يا ماما ، هاتوا ماء على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول فى عصبية :

— هلاً أسرعتم !

كانت ليزا مروعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها
أنراً رهيباً .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

— ألا يستحسن أن نستدعى الدكتور هرتسشتوبه ؟

— سوف تقتليني يا ماما ! ان صاحبك هرتسشتوبه سيجيء فيقول
انه لم يفهم من الأمر شيئاً • هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك
يا أماء ، ناشدتك الله ، أو قولى لجوليا أن تسرع • ان جوليا بطيئة دائماً
ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به فى حينه • أسرعى يا ماما ، انك
تميتينى •••

تدخل أليوشا يقول وقد أفلقه جزعهما :

— ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشئ •

وهرعت جوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء • فتطس
فيه أليوشا اصبعه •

— ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا شائناً ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك
السائل العكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح ••• لقد
نسيت اسمه ••• عندنا منه •• نعم عندنا منه •• أنت تعرفينها يا ماما ••
تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين •• ويوجد
هنالك شاش أيضاً •••

— سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا ليزا ،
أرجوك ، أتوسل اليك ••• انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش
الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا بسرعة • وذلك بعينه ما كانت ترغب
فيه ليزا وتسماء •

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

- أجب عن سؤالى أولاً : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تكلم بعد ذلك فى أمر آخر • هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستقضى الى حين وصول الأم ثمينه جداً فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة • فبعد أن أوصت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احدهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حائرة ، كأن من حقها أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

- فيم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تدخل فى أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى عر أنت أيضاً ••• ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سرأ • شئ آخر الآن • قل لى أولاً يا ألكسى فيدوروفتش : هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهلك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً • - أنا قادر على ذلك كل القدرة • ثم اننى أصبحت لا أشعر بالألم فى اصبعى •

- لأنك غطستها فى الماء • يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يدفأ بسرعة • جوليا ! أسرعى الى القبو فائتينى بقطعة من نلج ، واثنين كذلك بطست آخر فيه ماء بارد • ها هى ذى قد مضت الآن فلتتحدث جاداً : هل لك أن ترد الى فوراً ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيأ ردها الى بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن •••

- ليست الرسالة معى !

- كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ... ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المرحه • رد الى الرسالة فوراً ! اعطينها !

- تركتها فى الدير •

- لا بد انك أصبحت تحسبى طفلة صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ... انها مهزلة خبيثة سيئة ! ... أرجوك أن تغفر لى هذا الشنوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتيني بها فى هذا اليوم نفسه ، قطعاً ... انتى أطلب ذلك ، وأصرُ عليه !

- أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك انتى عائد الى الدير ، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيم • • أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل مسخرت منى كثيراً ؟

- لم أسخر البتة •

- لماذا ؟

- لأننى صدقت كل ما كنيته تصديقاً قاطعاً •

- أنت تهيننى !

- أبداً • انتى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فوراً : لتجربين الأمور على هذا التحو فمتى مات الأب زوسيم ، سأضطر الى مصادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك ،
وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج ...

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة
شديدة :

– ولكننى ديممة ، مقعدة ، كسيحة •

– سأجر الكرسي المتقل بنفسى اذا لزم الأمر • ثم اننى على يقين
من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة •

قالت ليزا بعصية :

– ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا
المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ... هذه ماما قد رجعت • أحسب
أنها عادت فى الوقت المناسب • ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت
دائما تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

– أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجوك ، أستحلفك
بالله ! ... ان هذا الصراخ يطيش عقلى ... ليس ذنبى أنك قد دسست
هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ... لقد بحثت عنه فى كل
مكان فلم أظفر به ... انى لأسأل ألم تفعل هذا عامدة •

– تماما ... عامدة ! لم يكن فى وسعى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل
بجرح فى اصبه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعلاً ! ماما ،
ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقاً !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين
على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من نبي
على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أفاسى



ليزا هوخلاكوفا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني ، ليس هذا الطيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني ... بل جملة الأمر ... جملة الأمر ... ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله .

قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسنشتوبه يا ماما ! ناوليني الشاش والسائل *
هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى فيدوروفتش ... تذكرت الآن ... ولكنه نافع جدا * اعلمى يا ماما أنه أقتل فى الشارع مع ضيية صفار ، وأن طفلا قد عضه فى اصبعه ! أليس هو نفسه صبيًا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما ... تخيلي هذا ... هل تتصورينه متزوجا ؟ شيء يُميت من الضحك ! ... أليس هذا فظيلا ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبى بلا توقف ، وهي تلقى على ألبوشا نظرة مأكرة .

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هذا الامر لا يعينك ... أما ذلك العصبى الذى عضه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكلب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا ؟ لكأننى قلت أذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون العصبى قد عضه كلب مصاب بداء الكلب ، فاذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميذا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضמיד هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

- قليلا جدا •

وسألته ليزا :

- ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

- لا تصرفي يا ليزا • لقد تعجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب
بصدد ذلك الصبي ، فأخذت تستعجلين استنتاجات ! يا ألكسى فيدوروفتش
ان كاترين ايفانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُّ على أن تراك
حالا ... انها في أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

- اذهبي اليها وحدي يا ماما ! أما هو فانه لا يستطيع أن يمضي اليها ،
لأن اصبعه توجه كثيرا ...
فقاطعها أليوشا قائلا :

- كلا ! ... انني لا أشعر الآن بوجع • في امكاني أن أذهب
اليها •

- ها ! • تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب ...

- ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا
أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم • انني أحرص في الواقع حرصا شديدا
على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأنني أريد أن أرجع الى
الدير في أقرب وقت •

- خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وقّر على نفسك
عناء العودة الى بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا • ارجع الى الدير رأساً ،

فهناك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر • أما
أنا فأحب أن أنام ، لأتنى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !

هتفت السيدة هوخلاكونا تقول :

- أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت
استطعت أن تلمى قليلا •

وتمتم أليوشا يقول :

- لا أدري ماذا فعلت حتى ... وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث
دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .

- وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! • خذيه يا ماما • ماذا تنتظرين ؟
هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

- ليزا ! أنت مجنونة ! هيّا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليوم
شديدة النزوات ، وأخشى أن تثير أعصابها ... ما أشقى التعامل مع نساء
عصيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة
الى النوم أثناء حديثكما • ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس
بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع ...

- مرحى يا ماما ! هأت ذى الآن قولين كلاما لطيفا ! أحب أن
أقبلك •

- وأنا أيضا يا ليزا !

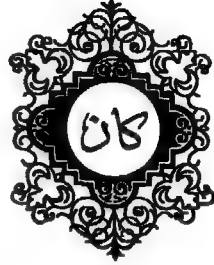
كذلك قالت السيدة هوخلاكونا لابنتها ثم أضافت مخاطبة أليوشا
وهما يخرجان من الغرفة :

- اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ...

وراحت تكلمه متعجلةً بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام
والجد والتعجب ، قالت :

.. لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبيل الأوان ،
ولكنك ستري بعينك ما يجري الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك . شيء
رهيب . تمثيلية عجيبة ! ... انها تحب أخاك إيفان فيدوروفتش ، ثم
هى تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى
فيدوروفتش . شيء مروّع ! سأدخل معك ، فإذا لم أطرده بقيت لأرى
خاتمة هذا كله .

التمزق في الصالون



الحديث في الصالون يشارف نهايته • ان
 كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ،
 رغم أن في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم • وحين
 دخل أليوشا والسيدة هوخلاكوفا كان ايفان
 فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف • انه صاحب الوجه • لاحظته
 أليوشا في قلق • ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، في تلك اللحظة ، شبهة
 كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق
 الذي كان يشغل باله • ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ،
 منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصة
 ينوى أن • يتزعاها من ميتا ، فعلا • ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام
 الاخيرة أن يصدق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ،
 غير أن تلك المزاعم كانت تعلقه مع ذلك • انه يحب أخويه كليهما ويخشى
 أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تنشب بينهما خصومة كهذه
 الخصومة • على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس
 ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يسعده وبهجه ، لأنه سهل وضعه
 ويسر أموره • وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ ألا أنه يتيح له أن يتزوج

جروشنكا ؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى
 أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً
 عارماً . ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع في نفسه الليلة البارحة .
 يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين
 ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع ايفان ، وأنها انما تحب
 دمترى كما هو ، على علاقته ، رغم ما في هذا الحب من أمور عجيبة
 مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قد
 أثبت في نفسه على حين فجأة شعوراً معارضا لهذا الشعور تماما ، لم يتضح
 له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا
 منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليوم نفسه ،
 أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة « حب
 التمزق » هذه عدة مرات ، جواباً على أحلام لم تكد تتبدد . وكانت جميع
 أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل
 كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين
 ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لعباً ، من
 قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعه شكران
 غامضة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطراباً
 شديداً ، وتساءل : « ألا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة رغم كل
 شيء ؟ » . ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا
 يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى
 السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا
 التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو هى على الأقل لا تستطيع أن
 تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك
 ان دمترى وحده قادر على الازعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى . ولا كذلك ايفان . فان ايفان لن يقبل الرضوخ في يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؟ أو هذا على الأقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس معرفته بطبع ايفان ، وعلى أساس الفكرة التي قامت في ذهنه عن ايفان .

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت في فكر أليوشا لحظة دخل الصالون . ثم هاجمته فكرة أخرى ، فإذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟ » . ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتي أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجزئ لنفسى أن أرى آراء من هذا القيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل في تأملات أو تخمينات وتقديرات في هذا المجال . ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر في هذه المسائل . كان يدرك بفرزته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلًا على مصيريهما ، وأنه يحمل في طياته عواقب ضخمة . « فلتأكل السراطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث خائفاً عن أبيه وعن أخيه دمترى . معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل . أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا في اللحظة التي عرف فيها كاترين ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان على غير ارادة منه ، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كسفاً عن الحقيقة . فكيف يمكن والحالة هذه أن تأمل أن يحل السلام والوثام بينهما ؟ أليس في هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره في داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما في هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والراء له ؟ وما

الذى ينبغي أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما • ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المقعد المتشابك المشوش • وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال • انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة • فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما • ولكن كل شيء فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وإيهاما ، واأسفاه ! فأين يمكن الاهتمام الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » • فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللفز كانت تنفوت فكر أليوشا •

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرع تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرع تقول له فرحة فرحا واضحا :

– لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا • أحب أن أعرف رأى هذا

الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة •

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

– ابقى أنت أيضا يا كاترين أوسيبوفنا •

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها

أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش •

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهم أن

تسيل من عينيها ، تهدج صوتها بانفعال صادق أليم :

أتم جميعاً أصدقائي ، أتم أصدقائي الوحيدون في هذا العالم ••
يا أصدقائي الأخير ، الأوفياء •••

أحسّ أليوشا في تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد •

وتابعت كلامها تقول :

— لقد شهدتَ بالأمس ذلك المشهد يا ألكسي فيدوروفتش •••
شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا ••• أنت لم ترني
في تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآني • لا أدري
ما الذي رآه في من رأي في تلك الظروف • ولكنني في مقابل ذلك
أعلم علم اليقين أنني لو وجدت اليوم في موقف مماثل لكان ردّي هو
الرد الذي بدر مني أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال
نفسها ، وتلك الحركات نفسها • انك تتذكر يا ألكسي فيدوروفتش
الحركات التي بدرت مني أمس ، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تتبنى
••• (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) • فاعلم
يا ألكسي فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أنني عاجزة
عن الاذعان لأي شيء ، عاجزة عن الرضوخ لأي شيء • واعلم أيضاً
أنني أصبحت لا أدري في هذه الساعة أنا أجه « هو » أم لا • انني
الآن أشعر نحوه « بسفقة » ، والشفقة علامة حب تافهة مسكينة حقيرة •
وإذا ظلمت أجه ، إذا ظلمت أجه رغم كل شيء ، فلن أرني لحاله ، وانما
سأكرهه من غير شك •••

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة في أطراف أهدابها •
واضطرب أليوشا • قال لنفسه : « هذه الفتاة انسان مخلص صادق ،
و ••• قد أصبحت لا تحب دمترى ! » •

هتفت السيدة هوخلاكوفنا تقول :

— هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

— انتظري يا كاترين أوسيوفنا ! أنا لما أقل بعد الشيء الأساسي ،
لم أذكر القرار الذي اتخذته الليلة ولن أراجع عنه • اتنى أوجس أن
قرارى هذا سيعود على بعواقب رهية ، ولكننى أعلم أننى لن أنكص على
عقبى ، لن أتهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحوال •
لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها • وان صديقى المخلص الوفى ،
ان ناصحى النبيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفان
فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصدقاته فى هذا العالم ، يؤيد
رأى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراءً كاملا ، ويشجبنى على المضي
فيما عقدت النية عليه ••• وقد عرف قرارى •••

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رقيق لكنه حازم :

— أنا أؤيد قرارك ••• هذا صحيح !

— أحب مع ذلك أن يقول لى ألبوشا (أوه ••• اغفر لى يا ألكسى
فيدوروفتش اتنى سميتك ألبوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش
هو أيضا ، بحضور صديقى ، أنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يد ألبوشا الباردة :

— أنا على يقين غريزى ، يا ألبوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز
الغالى) ••• أنا على يقين ••• أنا أحس أن جوابك وتأيدك سيعيدان
السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، واتنى سأقبل
مصيرى وأرضى قدرى بعد أن أسمع لكلامك ••• نعم ، أنا أحس
ذلك !

قال ألبوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

– لا أعرف ما هو الامر ! ولكننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على

سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى ...

ثم أسرع يضيف ، لا يدري أحد لماذا :

– على أتنى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً .

– فى هذه الامور ، يا ألكسى فيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة

شرف وكرامة وواجب ، وربما شيء آخر أيضاً ، شعور لا أستطيع أن

أعرفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة

لا تقاوم تهيب بى أن ألييه . وأجمل فأقول اتنى قد اتخذت قرارى ،

واليك هذا القرار : هبّه تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها

مهيباً) ... هبه تزوج هذه المخلوقة التى لن أغير لها أبداً ، أبداً ...

فأتنى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ،

وسأظل دائماً الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) .

لن ألتحق بكمتّه طبعاً ، لن أحاصره بوجودى دائماً ، لن أعذبه بحبى

أبداً ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ،

نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ،

وأسهر عليه طوال حياتى لا أكل ولا أمل . فاذا شقى مع الأخرى

– وذلك أمر لن يتأخر كثيراً – فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد

فى صديقة مخلصه ، أختاً حنوناً ... أختاً لا أكثر ... طبعاً ... ذلك

أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود فى المستقبل . يجب أن يعلم

يومئذ اتنى أخت له حقاً ، أخت مخلصه ضحّت فى سبيله بحياتها كلها .

سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيراً ، سوف أجبره على أن

يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىّ بلا خجل . سأكون الاله

الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيائته وعمّا فاسيته

أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى فى جميع أيام حياته أتنى وفيه له

الى الأبد ، وأنتى أحفظ العهد رغم أنه خائنى وهجرنى • سأكون •••
 سأصبح ••• سأجعل نفسى أداةً لسعادته (أحسب أنتى لا أجد التعبير
 عما بنفسى) ، سأجعل نفسى آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتى ،
 طوال حياتى ••• ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قرارى ! ان ايفان
 فيدوروفتش يؤيدنى تأييدا كاملا •

كانت تلهث • لا شك أنها كانت تمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا
 أرسن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة ، مترجمة
 عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف • ان المرء يحس ،
 فى جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجتها الى تأكيد
 عزتها وكبريائها من جديد • وقد أدركت هى ذلك على حين فجأة ،
 فأظلم وجهها والتمع فى عينيها تعبير شريـر • ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته
 بها شفقة • وتدخل ايفان فى تلك اللحظة يقول :

— أنا لم أعبرَ الا عن رأى الشخصى • ان عواطف من هذا النوع
 كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطفَ مصطنعةٍ
 مقتلة هي ثمرة جهد ارادى شاق أليم معذب ، أما عندك أنت فلا •••
 لو تصرف امرأة أخرى هذا التصرف لكنت على خطأ ، أما أنت فلا ••
 لست أدري كيف أعبرَ عن شعورى ، ولكنى ألاحظ أنك صادقة الى
 أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب •

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

— هى صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع
 تتخذه وهى تحت وطأة اهانة الأمس ؟ ذلك هو السبب فى قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة .

فقال ايفسان بعنف مكثوم ، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطته :

— صحيح ... غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعاً مؤقتاً مردّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايفانوفنا . ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمراً قد قد يكون قاسياً أليماً حزيناً ، ولكنه لا مفر منه ولا عدول عنه . ان كاترين ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها . ان حياتك ، يا كاترين ايفانوفنا ، ستقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقاك . على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء ... نعم فيه كبرياء بمعنى من المعاني ، ولكن فيه يأْس فى الدرجة الأولى ... وستتصرين آخر الأمر ... وسيملوك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك ...

تكلم ايفان بلهجة نافذة فيها غضب مكبوح . وكان واضحاً أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرّك سيخريته .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

— هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقال عندئذ كاترين ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

- ألكسى فيدوروفتش ! هلاً قلت رأيك أخيراً ! اننى أشعر بحاجة
شديدة قاهرة الى معرفة رأيك •

نهض أليوشا عن الديوان •

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

- ليس هذا بشئ • ليس هذا بشئ البتة • اننى مرهقة الأعصاب
بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقّة مسهّدة • ولكننى ، بحضور صديقين
مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ... ذلك لأننى أعلم أنكما لن
تركانى أبدا •

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

- آسف • قد اضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن
أترك فترة طويلة •

- الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها • ثم أردفت تهتف
قائلة بصوت تغير فجأة ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت
أثارها لا تُرى :

- ولكن ... ولكن هذا يقع فى حينه ... يجرى فى وقته !
يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى
نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى
فى حالة توتر ممزّق ، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل
السيطرة ، وتبدو راضية ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً •

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبسم ابتسامة مهذبة :

- أوه ... لا يذهبن بك الظن الى أنتى ابتهجت لتركك ...
 طبعاً لا ... ان صديقاً مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ،
 وأن ينسب لى مثل هذه العواطف ... بالعكس : انتى لأحزن أشدَّ
 الحزن حين أتصور أنتى سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان
 فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) • ولكنه حظ
 سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجاتى ، فى
 موسكو ، الظرف الذى أنا فيه • حدثهما عن فطاعة الأيام التى عشتها
 هنا ، فأما مع آجاتى فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشئ من المداواة
 وانى لواقعة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما
 على حقيقة الأمور • لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من
 عذاب وأنا أتساءل كيف أتدير أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة
 ... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابةً ...
 أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شئ !
 آه ... ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى •
 صدقنى ! ... وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شئ
 يمكن أن يحل عندى محل صداقتك ...

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب
 الغرفة :

- سأكتب الرسالة حالا •

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لازعة حائقة :

- وألبوسا ؟ ألبوسا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على
 أن تعرفى رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

— ما نسيته •

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

— ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين
أوسيوفنا ؟

وقابت تقول :

— ما زلت مصرّة على ما قلته • اتنى لا غنى لى عن معرفة رأييه •
بل اتنى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا • وسأبغ
ما ينصحنى به • فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظلماً
الى سماع كلامك ••• ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

— ما كان لى أن أصدق هذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن
أتحيل هذا فى يوم من الايام !
— ماذا ؟

— يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا
عامدة ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تتبطين
لسفره ، وأنت على عكس ذلك يحزنك فقدته • وهذا أيضاً قلته عامدة
••• كما فى المسرح ••• كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! •••

— كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلغت أوج الدهشة •
لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها •
واستأنف أليوشا كلامه :

- وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمائك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •
- الى ماذا تريد أن تصل ؟ ما الذى تريد أن تستتبعه ؟ انتى لا أفهم •

- أنا نفسى لا أعرف تماما ••• لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنما فى ضوء برق •••
وتابع أليوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر :

- أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحيين أخى دمترى •• ولعلك ما أحبيته فى يوم من الأيام ••• ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ••• فيما أظن ••• لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى •• وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ••• انتى أتساءل : ما الذى يجيز لى أن أكلّمك هكذا ••• ولكن لابد أن يعزم أحد أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً ••• ما دام لا يريد أحد هنا أن يتعرف بها •••

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستيريا :

- أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

- عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى - وأنا أعرف كيف يمكن الشور عليه عند الضرورة - استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تزيدين على أن تعذبى

ايفان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحينه - وأنت انما تعذيبه لشغفك
بالتمزق ... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمري ... حباً لا تشعرين به
البتة ... وتحاولين أن تقنعى نفسك به •

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت •

- ما أنت ... ما أنت الا أبله صغير ... ما أنت الا يوروديفوى
... ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحبت
وجهها شحوباً شديداً وظهر على شفتيها انهما تعققان غضباً مسعوراً •

وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك فى تلك اللحظة ، ونهض عن
مكانه حاملاً قبعته بيده • وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر فى وجهه تعبير
لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوماً ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ،
ويفيض صراحة مطلقة على سجيته :

- أنت مخطيء يا أليوشا • فان كاترين ايفانوفنا ما أحببتى فى يوم
من الأيام • وكانت تعلم منذ البداية أننى أحبها ، رغم أننى لم أحدثها فى
حبى قط • كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحينى • لا ولا كنت صديقتها
فى ظرف من الظروف • ان هذه المرأة التكبرة لم تكن فى حاجة الى
صداقتى • وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى
الانتقام ، الا لتسأرنى ، نعم منى أنا ، لجميع الإذلالات والاهانات التى
أنزلها فيها لدمترى منذ أول لقاء بينهما ... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء
الأول قد بقى فى نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغا • هذه هى كاترين
ايفانوفنا ! وأنا لم أجىء الى هنا الا لأصنى اليها متحدثاً عما تحمله من
حب لدمترى • وسأنصرف الآن • ولكن اعلمى يا كاترين ايفانوفنا أنك
لا تحين حقاً الا لدمترى • وستحينه مزيداً من الحب على قدر ماسيدلك

مزيديا من الازلال • ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحينه كما هو ؟
 أنت انما تحين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من
 الأيام ، اذن لكفت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً •
 ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطعي أن تتألمى منظر وفاتك البطولى ،
 وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ••• وذلك كله زهواً وصلفاً
 وتكبراً ! ان ههنا جحيماً من مذلة تريدنيها وتحملينيها ، والكبرياء هى
 التى تدفعك دفعا الى السعى وراء هذا الجحيم ••• اننى ما زلت فى ريعان
 الشباب ، ولقد أحيتك فأسرفت • والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ
 لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جبروحك أنت • ولكننى سأسافر الى
 مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبداً • لقد سئمت من أن أكون شاهداً أبدياً
 على تمزقاتك النفسية ! ••• أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج
 فى قلبى ويدور فى خلدى • ولقد انتهى الأمر على كل حال ••• لقد
 قيل كل شئ ••• فوداعاً يا كاترين ايفانوفنا • وليس من حقك أن
 تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيراً من
 العقاب الذى تالينه أنت • حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً •
 وداعاً ! لا تمدى الى يدك • لقد آلتنى ايلاماً فيه من الوعى والعمد
 ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هذه اللحظة • قد أساك فى
 المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصفح يدك •

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا احفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يتسم ابتسامة يجبر نفسه
 عليها اجباراً ، مبرهنناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ،
 أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ الشاعر شيلر فى هوى وشغف ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن
ينخيله من قبل • ثم خرج من الغرفة حتى دوز أن يودع ربة البيت •
صاح أليوشا يناديه بصوت بائه ، ضاماً يديه احدهما الى الأخرى:
- ايفان ، ايفان ! ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مباغت :

- لا ... لا ... انه لن يعود ... لن يعود مهما يكن الثمن ...
أنا أعرف ذلك • هي غلطتى ، هي غلطتى أنا ... انتى بما قلته سبب
هذا كله ! لقد قال ايفان أشياء شريرة ظالمة ... ما كان ينبغى له أن ..
هذا ظلم ! ...

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون !
وفى تلك اللحظة مضت كاترين ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة •
وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا فى أسف ولوعة :

- ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه • بالعكس : لقد تكلمت
كملاك • سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان •

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً ،
رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد • ولكن كاترين ايفانوفنا رجعت
فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملة ورقتين قديتين كل منهما بمائة
روبل •

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بלהجة هادئة طبيعية الى أقصى حد ،
كأن شيئاً لم يحدث :

- لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش • منذ أسبوع ...

نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ٠٠٠ نار دمتري ثورة عنيفة ظلمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة • ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كبايريه » ، التقى فيه دمتري ، فى ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذى يستعين به أبوك فى بعض شئونه • وقد غضب دمتري من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدري لماذا ، فأسكه من لحيته وجره الى الشارع جرأ سفيها على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا خلال مدة طويلة • وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط ، وهو صبي يختلف الى مدرسة المدينة ، صبي صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكيا ناشجا منتحيا ، متوسلا الى أخيك أن لا يؤذى أباه ، متضرعا الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصغ اليه ، وانما كانوا جميعا يضحكون . معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذى سلكه أخوك فى ذلك الظرف ، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد فى هذا العالم غير دمتري فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتى • • • لذا ترانى أبيه فى سردها واضطرب • • • وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الالهة ، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب • ان اسمه هو سنجيريف • لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش ، فسُرح • • • لا أدري تماما • وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامراته المجنونة فيما أظن ، صاروا أخيرا الى حالة رهية من العسوز والفاقة • انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة • عندئذ خطرت أمت يبالي ••• أو قل اتنى قدّرت أن •••
 لا أدري ماذا دهاني حتى صرت لا أعرف ماذا أقول ••• ان كلامي
 مضطرب • أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزي الطيب
 الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل
 متذرعاً بحجة مناسبة ، متغلاً بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هذا
 الضابط ••• أوه ••• رياه ! اتنى أخلط كل شيء ••• فتعطي هذه
 المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ••• كما لا يستطيع أحد أن
 يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه
 الكلمات) ، أن تعطي هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم
 محاذر • انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ••• أقصد أن عليك أن تلح في
 سبيل أن يقبلها ••• هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن ••• ولكن لا •••
 يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى
 القضاء (بدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء في لحظة من اللحظات) ،
 وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة في مد يد المساعدة اليه ••• ولعلم أيضاً
 أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطية دمترى فيدوروفتش ،
 لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ••• الخلاصة : ستعرف كيف
 تنصرف ••• كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر
 الأمر خيراً منى ••• انه يسكن في « شارع البحيرة » عند امرأة من سكان
 المدينة اسمها كالميكوفا ••• قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ،
 أرجوك ، أتوسل اليك ••• أشعر الآن بأنى متعب ••• أشعر شيء من
 الاعياء ••• الى اللقاء •••

قالت ذلك واستدارت على عقيها وبلشت من الاسراع الى الاختفاء
 وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة ••• وكان
 أليوشا مع ذلك يشعر بحاجة قوية الى أن يكلمها ••• كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر إليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض
فى تلك اللحظة حياً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة . ولكن السيدة
هو خلا كوكفا أمسكتة من يده وقادته الى خارج الحجرة ، ثم توقفت فى
الدھليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة هو خلا كوكفا بصوت خافت :

— انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائحة ، كريمة ، الى
أقصى الحدود . ليك تعلم كم أحبها ، ولا سيما فى بعض اللحظات ،
وكم يعاودنى الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الى السعادة بكل
شئ ! يجب علىّ يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشئ كنت تجهله
حتى الآن . اعلم انا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أى جميعا ،
وحتى ليزا ، كنا تمنى وتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعزم
أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمترى فيدوروفتش الذى تؤثّر أنت ،
وذلك لأنه لا يريدنا ولا يحبنا ، وأن تزوج ايفان فيدوروفتش الذى
هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذى يحبها أكثر
مما يجب أى شئ فى هذا العالم . حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هذا
المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هو السبب فى أننى لم
أسافر بعد ...

صاح أليوشا يقول :

— ولكنها عادت تبكى من شعورها بالمذلة .

— لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا فى هذه
الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

— ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !

وردّد أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو
يشعر بخزى شديد من غضبه ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء
واضطراباً :

— نىء رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغتفر !
فقلت له السيدة هو خلا كوفاً :

— بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن
أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

— كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

— لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها
تحب ايفسان ، فأقلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث
الآن ؟ ...

— عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميتيننى يا ماما ! ألقى
عليك أسئلة ولا تجيبين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

— كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الأنسة تبكى ... تتخبط
كانها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصيح قائلة فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

— هلاًّ قلت لى يا ماما أخيراً ما هى القضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب
الآن بنوبة هستيرية ، لا هى ! ...

— هدئى نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتلينى بهذا الصراخ !
ان عمرك لا يسمح لك بعدُ أن تعرفى كل شىء كما يعرفه الكبار .
سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه . آوه !
رباه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ... نوبة عصبية ... ولكن
هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تتابها نوبة من
هذا النوع ... ذلك ما يجب أن يحدث ... أنا أفقد دائماً ضدّ النساء
فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا جوليا ، امضى اليها فقولى
لها انتى آتية اليها حالاً . سأدركها فوراً . على كل حال ليس عليها الا
أن تحمّل نفسها تبعة خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه
لن يسافر . ليزا ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك
لا تصرخين . فأنا التى صرخت . سامحى أمك يا ليزا ، ولكننى سعيدة ،
سعيدة جداً ، سعيدة سعادة رهية ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم
كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟
انه يُشعر بأنه مثقف جداً ، عالم جداً ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه
شاب حقاً ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل
التجربة ، قليل التجربة جداً . آه ... ما أروع هذا ، ما أجمله ،
ما أعظم أثره فى الفؤاد ! هو مثلك تماماً ! .. وهذا البيت من الشعر
الذى رواه ، هذا أنت أيضاً ... أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها ..
أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمة التى عهدت بها اليك ، ثم
ارجع الى هنا بأقصى سرعة . ليزا ! ألسنت فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك
بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضعة لحظات ..

• وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيراً بسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن الباب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

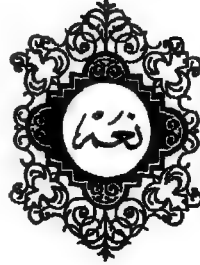
- أبداً ••• مستحيل ••• لن أطيع الآن أن تجيء الى ••• تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •
- هو قولى كلاماً سخيفاً غيباً يا ليزا !

صاحت ليزا تقول :

- لا أسمع لك أن تمضى هكذا !

- ليزا ! ان بى حزناً كبيراً • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير •
كبير جداً ، صدقنى •
وخرج مسرعاً •

التمزق في الرتبة



كان حزنه كبيراً جداً قلما شعر بمثله من قبل •
 لماذا تمجّل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكبت
 « حماقة » ! وفي أى موضوع ؟ فى موضوع
 حب • • • « أنا أعلم حق العلم أنتى لا أفهم فى
 هذا الأمر شيئاً ، فكيف أمكن أن أدعى ادراك شأن من هذه الشؤون
 ادراكاً واضحاً ؟ » • كذلك ردّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر
 خجلاً وحسرة • « ليس العار الذى أشعر به شيئاً يُذكر » فهو المقاب
 الذى أستحقّه وانما الشقاء الحق هو أنتى سأكون سبب كوارث جديدة • •
 لقد أرسلنى شيخى العالم لأوحد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ،
 أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! • • وتذكر أليوشا فى تلك اللحظة اليدين
 اللتين أراد أن يضع احدهما فى الأخرى ، فازداد اضطرابه الى أقصى
 حد • وأخيراً قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرّى
 عنه : « لئن كان تصرفى مخلصاً فى تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن فى
 المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » •

ان المهمة التى كلفته كاترين ايفانوفنا أن يقوم بها ، تضطّره أن
 يذهب الى « شارع البحيرة » • وأخوه دمترى يسكن غير بعيد عن هناك ،
 فى زقاق جانبى • فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضى

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده فى منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يشر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضى فى أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهى تلاحقه حينما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأنارت اتباعه اثاره قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذى كان يركض الى جانب أبيه باكياً متجنباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه فى تلك اللحظة : لابد أن هذا الولد هو الصبى الذى عضه فى أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبى نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظةً عن همومه الثقيلة ، واذا استرد شجاعته ورباطة جأشهُ قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التى بدرت منه وتلك « المصيبة » التى سببها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عقيمة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور • وقد سرى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل فى الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيص الخبز الصغير الذى أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته •

لم يكن دمترى فى المنزل • فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل - وهم تجار عجوز وامراته وابنهما - أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متعطرة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذى ألح فى السؤال عن أخيه :

- انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فقلعه سافر •

فبدا أليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمتري •
قال أليوشا يسأل العجوز مرة أخرى ، متعمداً أن يذكر هذه
المعلومات السرية :

– أترأه عند جروشكا ؟ أم تراه مختبئاً عند توماس مثلاً ؟
ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة • فقال
أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه • • »
فقل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل
ساكنة المدينة الصغيرة كالكوفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لها الا
ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قدر جدا رأى فيه أليوشا بقرة •
ان الدخول الى الفناء يتم عبر حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى
بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيرا هي الأخرى •
والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله
عن الضابط عدة مرات • وفهمت احدهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل
عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهة
الآخري من حجرة الدخول ، مشيرة الى الغرفة التي هي أفضل غرفة
في الدار • ان الضابط المتقاعد يحتل في الواقع غرفة واحدة •

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمّ أن يفتحه ، ولكنه لم يلبث
أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذي
يخيم في الجو • لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط
المتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه : « انهم نائمون ، أو انهم
أحسوا بمقدمي فهم ينتظرون دخولي عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب • »
وقرّع الباب فعلاً ، فأجيب ، ولكن الجواب لم يجيء رأساً ، وانما تأخر
نحو عشر ثوانٍ •

قال صوت خشن حانق :

- من ؟

ففتح ألبوشا الباب واجتاز العتبة ، فإذا هو يجد نفسه فى غرفة واسعة سعة كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفاة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها جبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد علقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندى قد نُصِّد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بجبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكملها كرسى ، والسريـر لا يرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى ترى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشعر فيها المرء باحتناق . وعلى المائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة ، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأيسر تجلس امرأة لها شئ من مظهر سيدة . انها ترتدى ثوباً من قماش هندى ، وهى ناعلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبشان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجئ ألبوشا خاصة بتعبير نظرتها الذى ينم عن تساؤل وتعالٍ فى آن واحد . وفيما كان ألبوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هى فى الحديث ، لم تكف عن تقيل نظرتها

بين الرجلين معبّرة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه . والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دمية الوجه ، ترتدى ثياباً فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة ؛ وكانت تنفّس في ألبوشا باحتقار وازدراء . وعلى اليمين ، قرب السرير أيضاً ، تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة ، فتاة في نحو العشرين من عمرها ، حذاء الظهر مقعده متبيسة الساقين ، كما سُرح ذلك لألبوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازاتها في الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينيّن رائعتين تشعان طيبة ، وهي تلقى على ألبوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهي من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجب يضرب لونه الى حمرة هو أيضاً ، تذكر لحية الحمراء المتناثر شعرها بليفة من الليف الذي يستعمل في الحمام . (ان هذا التشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر ألبوشا رأساً ، فسرعان ما برق في ذهنه تعبير « ليفة الحمام » الذي استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر ألبوشا ذلك فيما بعده . واضح أن هذا الرجل هو الذي صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل سواه . فلما رأى ألبوشا نهض عن المائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة منقّبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقعة في الزاوية اليسرى :

- هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى أين
يجي

ولكن الرجل الذي اقترب من ألبوشا التفت اليها بسرعة عسكرية
وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

ـ فى هذه المرة أخطأت يابراراً نيكولايفاً ! ليس الأمر ماصورت.

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

ـ هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ...

فى هذا المكان الحقيقى ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة . ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحق . لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً . وفى وجهه تئرى وقاحة قصوى ، ولكن يئرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما ... ان هيئته هيئته انسان اضطر زمناً طويلاً الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؛ أو قل يتمير أدق ان هيئته هيئته رجل يشعر برغبة قوية فى أن يضرب ، ولكنه يخاف خوفاً قوياً من أن يضرب هو نفسه . ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هي تارة شريرة خبيثة ، وهي تارة أخرى خائفة وجلية ، فهو لا يستطيع أن يجريها على نمط واحد ، حتى لتتأخر وتتخطم فى بعض اللحظات . لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقيقى » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملاً عينيه ، بالغا من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوة الى وراء بغيريته . كان الرجل يرتدى معطفاً حقيراً مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقماً فى مواضع كثيرة ، متسخاً ببقع كبيرة . أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يئرى فى أى مكان . والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أدناه وانتشر ، فكان لابسه صبي طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيراً قصيراً عليه .

قال أليوشا يجب عن سؤال الضابط المتقاعد :

— أنا ... أنا ألكسى كارامازوف *

— لى شرف معرفة ذلك من قبل *

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر * ثم
أضاف يقول :

— فاسمح لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد
سينيجيريف — س* * ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه
من ...

— لم أجب له هدف معين * كل ما أردته هو أن أقول لك بضع
كلمات باسمى ... اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً ...

— فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسي ! تفضل فاجلس ... أليس
هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسيّاً بحركة مباغتة عنيفة (هو
كرسي بسيط غير منجد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط
الغرفة تقريباً ؛ ثم تناول كرسيّاً آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه
أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسي أليوشا أن ركب الرجلين
يحتك بعضهما ببعض *

— اسمى نيكولا ايلتش سينيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح
المدفعية بالجيش الروسى * واننى لأظن ضابطاً رغم عيوبى وردائى التى
هوت بى الى الحضيض * ولقد كان ينبئ أقول الرائد — س ، لا الرائد
سينيجيريف ، ذلك أتنى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل
«س» * تلك عادة ناشئة عن الاصططاط *



منيجيريف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

قال أليوشا وهو يتسّم ابتسامة متحرّجة :

- نعم • ولكن هل يعود المرء هذه العادة عامداً أم هو يعودها على غير ارادة منه ؟

- بل على غير ارادة منه ، شهد الله ! يمينا ما كنت أتكلّم بهذه الطريقة فى الماضى ! ولكن حرف «س» قد هبط على لسانى أثناء سقوطى ، كهبوط الذباب على القاذورات • ذلك يحدث بتأثير قوة عليا • ولكنى أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لى أن أعرف السبب الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ؟ اننى أعيش هنا فى ظروف لا تؤهلنى للقيام بواجبات الضيافة •

قال أليوشا :

- أنا انما جئت ••• من أجل ذلك الامر الذى •••

فقاطعه الرجل سائلا :

- أى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

- أمر لقائك ذاك بأخى دمترى فيدوروفتش •••

- أى لقاء تعنى ؟ ها ••• ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم فى هذه المرة ركبته •

ودقّت شفتاه فى تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل •

تمتم أليوشا يسأله :

- أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت " عرف أليوشا فوراً أنه صوت الصبي
الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبي يقول :

ـ بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات
مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبي مغطى
بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحا أنه مريض ؛ واذا صدق
ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحرق الى أليوشا
بغير خوف ولا وجل ، واتقاثة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد
أن يقول : « أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى
شيئا . » .

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

ـ عضك فى اصبعك ؟ أأنت من عضه فى اصبعه ؟

ـ نعم أنا . كان يقتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق
الحجارة . وكان واحدا وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرماني بحجر ،
ثم رماني بحجر آخر مستهدفا رأسى ، فلما سأله ماذا فعلت له ، انفض
على فجأة فعضنى فى يدي ، لا أدري لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يشب عن كرسيه :

ـ لأجلدنه ، لأجلدنه !

ـ ولكننى لم أجىء لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه . انتى
لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو .
ـ أفصدقت حقا أنتى سأجلده ؟ أفصدقت أنتى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايلوشا * ، هكذا ، فوراً ، لأسرك وأبهجتك ؟ أنت نحرص على هذا اذن حرصاً شديداً ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتقاً نحو أليوشا وقد لاح في وجهه التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه . ثم أضاف :

— يؤسفني ، يا سيدى العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكنى أوتر على ضرب ايلينوشا ، اذا شئت ، أن أتر الآن أمامك أربعاً من أصابعى بهذه السكين ، ارضاءً لك . . . أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعى كافياً لارواء ظمئك الى الانتقام ، وأن تسمح لى بالابقاء على الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة . كأنه احتق ، وكانت عضلات وجهه جميعاً ترتش ، وكانت نظراته تفيض تحدياً واستغزاً . لقد أصبح عاجزاً عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :

— أحسب أنتى فهمت كل شيء . ان لاينك قلباً طيباً ، فهو يحب أباه ، وقد هجم علىّ لأنتى أخو الرجل الذى أساء اليك . . . فهمت الآن . . . (كذلك استأنف كلامه يقول مطرقاً مفكراً) . . . ولكن أخى دمترى نادم على فعلته . . . أنا أعرف ذلك . . . فإذا أذنت له أن يبيحك الى هنا ، أو حتى أن يلقاك فى ذلك « الكاباريه » نفسه مرةً أخرى ، فسيكون مستعداً لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس . . . متى رغبت فى ذلك . . .

— أهكذا اذن ؟ تستغ لية الانسان ، ثم يعتذر اليه ، فينتهى كل شيء ويسوى كل شيء ، أليس كذلك ؟



نيوتشكا ابنة سنيچيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

— كلا ... كلا ! ... انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك •

— معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكاباريه » نفسه — كاباريه « العاصمة الكبرى » — أو حتى فى الميدان العام ، فإذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول •
— نعم ، يجثو على ركبتيه !

— كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عيني ! انتى أقدر هذا الكلام حق قدره ... فاسمع لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى • هذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ... هذه ذريتى المحترمة • فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويدارهم ، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمكن أن يحبنى ما دمت حياً ، من ذا الذى يمكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاعت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء • ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هذا العالم ...

— صحيح ، هذه حقيقة كبرى •

كذلك هتف يقول ألبوشا •

فصاحت الفتاة الواقعة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها مبهرة بهيئتها عن ازدياد واشمئزاز ، صاحت مستاءة تقول :

— ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر متوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

— مهلاً يا بربارا نيكولايفنا *** تذرعى بشيء من الصبر ***
دعنى أكمل ما أريد أن أقوله ***

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى أليوشا :

— ان لها طبعاً صعباً *** يصدق عليها قول الشاعر :

ليس في الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لى أن أقدم اليك زوجتى : ايرين بتروفنا ، سيدة
مقدمة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً ، فقدت استعمال ساقها تقريباً ؛ هى
من أصل وضعى جداً • يا ايرين بتروفنا ، هلاًّ بسطت أنارير وجهك
قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف • وأنت يا ألكسى
فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة
لا يُتَوَقَّع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) *** اننى
أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض *** اسمحى يا عزيزتى ، هذا ليس
ليس نفس كارامازوف الذى *** الذى *** هم *** هذا أخوه ***
شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسألة ووداعة • اسمحى لى
يا ايرين بتروفنا ، اسمحى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمحى لى
أن أقبل يدك أولاً •

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبجنان • رفعت
الفتاة الواقعة قرب النافذة كفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك
شيئاً • غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبر عن تساؤل واستعلاء ، هش
وبش على حين فجأة •

قالت :

— تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

– بل كارامازوف ... اسمه كارامازوف •

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

– هي من أصل وضع ، وضع جدا •

قالت المرأة :

– طيب ... كارامازوف ... فليكن اسمه كارامازوف ما دمت
تحرص على ذلك • كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاسمان عندي
واحد • تفضل فأجلس يا سيدى • أما لماذا أنهضك ؟ فلأنتى مقعدة ، كما
قال لك ذلك • صحيح أن لى ساقين ، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين ،
أما باقى جسمى فهو يصوّح • كنت فى الماضى سميئة جدا ، وهأنذا الآن
نجيلة مثل ابرة ...

ردّد الضابط قوله :

– هي من أصل وضع ، من أصل وضع جدا •

فصاحت الفتاة الحدياء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامتة على
كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

– بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها •

وقالت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، قالت بلهجة احتقار شديد
عنيف :

– جبان !

وقالت الأم وهى تمد ذراعها مشيرة الى ابنتيها :

.. أنظر ما يحدث لنا • سحائب ثم تنقش • وستنشق • وستعود
الموسيقى • فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من
الأحيان زيارات كزيارتك • لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه •
يجب على الانسان أن يحب جميع الناس • وفى ذات يوم جاءت امرأة
الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا
بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لها : « لكل امرئ أذواقه
الخاصة • وما أنت الا كرة صغيرة ، ولكنك كرة عفنة تته • قالت :
« سنعرف كيف تؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء !
من أباح لك حق المجيء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا
أجيئكم بهواء نقى ، على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد
الجو » ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كسريه الرائحة ، فاذهبى واسألى
أولئك السادة الضباط » • ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لا يبارحه •
وهكذا حدث لى منذ قليل ، أن رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال
الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح » ، فقلت له : « يا صاحب السعادة ، ان
من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا
صحيح ، ليس الهواء هنا نقياً • يجب فتح الباب أو النافذة • • هم
جميعاً سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة
أكثر من رائحتى • قلت : « لن أقصد الهواء الذى تستشقه ؛ سأشتري
لنفسى حذاءين ، ثم أمضى ، مادام الأمر كذلك • • يا أولادى ،
يا صغارى ، لا تدينوا أباكم • يا نيكولا ايلتش ، يا زوجى الطيب ،
أأصبحت ' لا أرضيك ولا أعجيبك ؟ لم يبق لى الا ايليوشا • • • فهو الذى
ما يزال يحبني • يعود من المدرسة ، فيمترنى بملاطقاته • وقد جاءنى
أمس بتفاحة • ارحمونى يا صغارى ، يا أولادى الذين أعبدكم ، اشفقوا

على أممكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذي تستشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكي متعجة على حين فجأة ، فتسكب سيولا من دموع • اسرع اليها الضابط •

— عزيزتي ، عزيزتي ، حمامتي ، هدئي روعك ، أرجوك ، أتوسل اليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نحبك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل ، ثم دغدغ خديها في رفق ولطف • ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذي أغرقه الدموع • وتراوات لأليوشا في تلك اللحظة دموع في عيني الضابط السابق أيضا • والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى امرأته ، وقد استبد به يأس شديد :

— هل رأيت وهل سمعت ؟

فقدم أليوشا يقول :

— رأيت وسمعت •

وصرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدث الى أبيه بعينه الملتهتين ، صرخ يقول :

— بابا ! بابا ! أترك ستعقد الآن صلة بهذا ال • • • قل له أن ينصرف !

وهتفت بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بها في هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

— دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزلية البلهاء التي لا تؤدي الى شيء ! كفى كفى ! • • •

فقال الأب :

- حقاً ان لحقك ما يسوِّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسألبى
أمرك على الفور • يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسأخذ أنا
قبعتى ، فنخرج • أريد أن أكلّمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا.
ان هذه القاعة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسيت أن أقدمها
إليك • انها ملاك تجسّد وهبط على الأرض ••• ملاك حق نزل من
السماء ••• هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

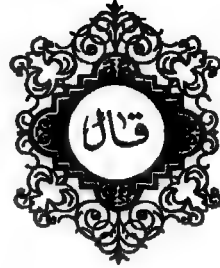
- ها هو ذا يرتجف ويفضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً
قوياً ! •••

- أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتى بأننى مهرج منذ
هنيهة ، فهى أيضاً ملاك من السماء ، وهى على حق اذ تعاملنى هذه
المعاملة • لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا
الأمر •••

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع ألبوشا ، وجرّه الى الشارع •

٧

وفى الهواء الطلق



الضابط المتقاعد :

– هنا يتنفس المرء ، أما فى مسكنى فيختنق ،
 بجميع معانى هذه الكلمة • ستمشى الهوينى •
 أرجو أن لا تبعت أحاديثى السأم والضجر فى

نفسك !

قال ألبوشا :

– هناك أمر أريد أنأ أن أحدثك فيه ... ولكننى لا أعرف من
 أين أبدأ •

– لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لى • ولولا ذلك لما
 جئت الى مسكنى بغير سبب ... اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من
 مجيئك هو أن تشكو الى الصبى ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! • وعلى
 ذكر هذا الصبى ... اننى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شىء
 بحضوره • فسأشرح لك الأمر الآن • لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف
 مما هى الآن ... أعنى بالليفة لحتى ... وأولئك التلامذة هم الذين
 سموا لحتى ليفة ... فعمد أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش
 لحتى هذه ، فى ذلك « الكاباريه » ، وجرنى الى الميدان • وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة فى تلك اللحظة نفسها ، وكان ايليوشا بينهم ، فما ان رانى على هذه الحال حتى ارتمنى على صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكنى بدراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتثبت بى ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : « دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له ! » ، نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضة على لحيتى . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أليوشا يقول منفصلاً :

— أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه فى ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخى .

— آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فوراً . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أصف لك روح الفروسية التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد أن جرّنى من هذه الليفة ، تركنى وقال لى : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن تشر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً ، فأرسله الى : انتى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنيء . » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايليوشا ، ولكن هذا المشهد العائلى الجميل النيل قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس شرفاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكنا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات ، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدياء ، أما الثالثة فليست ساقها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن ايلوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحبه . فاذا مت أنا ، فما الذى سيحدث لهم جميعاً ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المباراة فقتلنى ، فما هو الوضع الذى سيصرون اليه ؟ من الذى سيفنى بهم وسيهتهم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلنى ، وانما يصيبنى بعاهة تقعدنى : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه ، أصبح عالةً عليهم . من ذا الذى سيطعمنى وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد اضطر أن أخرج ايلوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه على "مبارزة" من عواقب . هى كلمة سخيفة ، لا أكثر

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهت نظرتة نارا :

- ليستغفرك ، ليرتمين على قدميك فى وسط ذلك الميدان .
- خطر ببالي أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفى أن نرجع الى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تشأر لى من الاهانة التى ألحقها بى . زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتى وقالت لى غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكشفن اختلاسائك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أمت الملاحق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتى ، أم أننى أمرت بها فكنت أداة لا أكثر ! اننى لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلم عدا هذا أنتى سأطردك من خدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجبى منى بعد ذلك قرشاً واحداً . وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضاً ، » فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ما عسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبونان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر ... حتى أن أباك يفكر فى جرئى الى المحاكم مستنداً الى الايصالات التى وقتها بامضائى . فلهذه الأسباب مجتمعة ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شئ . »
لقد رأيت بنفسك الظروف التى نعيش فيها . ولكن قل لى الآن : هل أوجعتك كثيرا غضة صغيرى ايلوشا ؟ اننى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه .

- نعم . أوجعتى كثيرا . فقد كان غاضباً غضباً شديداً . لقد ثار منى أنا للاساءة التى أُلحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف . لقد اتضحت المسألة الآن . ولكنك لم تبر كيف اقتسل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة . ذلك خطر جدا . ان من الممكن أن يقتلوه . هؤلاء أطفال ، لا يفكرون . رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته .

- أصيب اليوم بخجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصدر . أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرعاً باكية ، ين أنبنا شديداً ، وها هو ذا الآن مريض ...

- يظهر أنه هو الذى يبادى رفاقه بالهجوم . ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار . والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطمئة من موسى ...

– قيل لى هذا • شىء مزعج • ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجبر علينا هذا الحادث وبالأآ •••

تابع أليوشا كلامه قائلاً :

– أنا أضح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذى يتقد فى قلبه •

قال الضابط المتقاعد مؤمناً :

– الغضب ! الغضب ! تلك هى مشكلته • غضب كبير فى كائن صغير • وأنت لما تعرف بعد كل شىء • فاسمح لى أن أقص عليك كيف جرت الأمور فى الواقع • بعد ذلك حادث • الكاباريه • ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيطونه ، ويسمونهم ليفة • ان الأطفال الذين هم فى هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة • هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم • لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النبيل وتمرد • رب صبي آخر ، رب ولد فاجر المزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزي والعار من أبيه ، أما هو فقد هباً وحيداً ضد جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضاً ••• نعم ، عن الحقيقة ••• ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبل يد أخيك متوسلاً اليه • أن يغفر لأبيه • • فانظر كيف يعرف أطفالنا – أطفالنا نحن لا أطفالكم أتمم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم – أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك • فهم مهمما يعيشوا ويكبروا لن يروا أعماق الهوة فى يوم من الايام ! أما ابني

ايليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة في تلك اللحظة التي قبل فيها يد أخيك بالميدان ... لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحرفت في كيانه الى الأبد .

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وأملت به حماسة مفاجئة وحمياً قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيداً من التوضيح كيف انخرست «الحقيقة» في نفس ايليوشا .

وتابع الرجل كلامه فقال :

- وفي الليلة التالية اتابته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت . ولم يكلمنى في الغداة ، وانما التزم صمتاً يشبه أن يكون مستمراً ، ولكننى لاحظت أنه كان يرقبني ويرصدني من الركن الذي هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهيم واجباته المدرسية . لقد أدركت أنه لم يكن يفكر في دروسه في تلك اللحظة . حتى اذا جاء اليوم التالي شربت فأصبحت لا أذكر شيئاً ... يا لي من شقي ! ... نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى على الكرب والكمد واليأس . وأخذت زوجتي عندئذ تبكي - اننى أحبها كثيراً - ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخر كويك أملكه لأسكر فأنسى . لا تحقرني يا سيدي . ان أصحاب القلوب الحساسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم في بلادنا روسيا . ونمت ، ولم أحفل بايليوشا . وفي ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصية يميّرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أخرج أبوك من الكاباريه مشدوداً من لحية ، فأخذت تركض الى جانبه تستغفر له وتستغفى عنه ! » . وفي اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه . سألته : « ماذا بك ؟ » فلم يجب . وكان يستحيل علينا التحدث في الغرفة ، فلو قد تحدثنا في الغرفة لتدخلت الأم والبنات في الحديث ... وكانت بناتي

على علم بالقضية منذ أول يوم • كانت بربارا نيكولايفنا ما تفكك تسدي
استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جنباء ! ما عسى ينتظر منكم ؟ » •
قلت لها : « أنت على حق ، ماضن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات
تلو الحماقات • • » • وبذلك أرحت نفسي منها • وفي نحو المساء خرجت
أتنزه مع الصغير • يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم
بنزهة مع ابني كل مساء • وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير
فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة
التي تراها على الطريق قرب السياج • ان البرية تبدأ هنا • المكان خال
جميل • سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي • يدي في يده • ان يده
صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة • انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا •
قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم ،
حينما شدك • • » • قلت : « ما العمل يا صغيري ايليوشا ؟ » ، قال :
« لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدعون أنه
أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » • قلت له : « لا ، لا
يا صغيري ايليوشا ، لن أقبل منه مالا في يوم من الايام ! » • أخذ الصبي
يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين ، وغمرها بالقبل •
ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المباراة ! فالأطفال يدعون في المدرسة
أنك جبان ، وأنك لن تطلبه الى المباراة ، وانما ستقبل منه عشر
روبلات • • » • فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز
أخاك ، وأطلعت به بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصني الى باتباه •
ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرتة : « بابا ! لا تصالحه أبدا • ولأطلبه
أنا الى المباراة حين أكبر ، فأقتله ! » • وأنا أبوه على كل حال • • •
فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق • قلت له : « انه لاثم
أن يقتل انسان انسانا ولو في مباراة • • » • فصاح عندئذ يقول : « لسوف



إيليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله فى مبارزة حين أكبر ، فألقه على الأرض بعد أن أسقط له سلاحه بضربة من سيفى ، ثم ارتعى عليه وأشهر سيفى فوق رأسه قائلا له : انتى أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكننى أعفُ عنك ، فذلك كل ما تستحقه ! ، ، فانظر يا سيدى فى أى شىء قد فكّر هذا الصبى طوال يومين ، انظر الى الخواطر التى شغلت رأسه الصغير طوال ذلك اليومين ! لقد ظل يفكر خفية فى هذا الثأر الفروسى ، ولا شك أن هذيانه فى الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر . ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا . ولم أعلم بأمر اشتباكات هذه مع رفاقه الا أسس الاول . وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة . لقد خفت عليه خوفا شديدا حين بلغنى أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداء وأنه هو الذى تحداهم أولا . ان الغضب يعصف فى قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم . لقد خرجنا تنزه مرة أخرى فى يوم من الايام ، فاذا هو يسألنى : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن فى هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل النسى يملك قدرة لا حدود لها » فقال لى بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنيا أنا أيضا فى يوم من الايام ، وسأصبح ضابطا ، أغلب الأعداء ، فيكافئنى القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن . . . » وصمت بضع لحظات ، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بنى ايليوشا ، ليست هذه المدينة محبة الى القلب كثيرا » ، فقال : « فلماذا لا تركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا تركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبت بأن هذه هى نيتى فى الواقع وأتأ سناذر هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال . لقد أسعدنى أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نتحدث عن هذا الرحيل ، وناقش

تفاصيله • قلت له : « سنشتري حصانا وعربة كارية ذات عجلتين • نركب ماما والأختين على العربة ونطيهما جيدا ، ونمشي نحن الاثنين الى جانبهما • وقد أُرْكِبِك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسأمشي على قدمي ، لأن علينا أن نراعى الحصان وأن نداريه ، والا فستهد قواه اذا اضطر أن يجبر الأسرة كلها • سنرحل قريبا ، • بهذا وعدته •

تحمس الصبي تحمسا شديدا ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يقوده وأن يركبه هي التي تلهب حماسه أكثر من أى شئ آخر •

ان الصبيان فى روسيا يولدون فرسانا كما تعلم • وقد نثرنا مدة طويلة فى ذلك المساء • قلت لنفسى : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهذات نفسه ، وسُرِّى عنه • • » حدث هذا فى مساء أمس الأول • ولكن كل شئ تغير أمس من جديد • لقد عاد من المدرسة فى الظهر مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى • وفى المساء أسكته من يده لتقوم بنزهتها اليومية • كان مصرا على الصمت فما ينطق بكلمة • الريح تهب قليلا ، والسحب تغطى الشمس ، والنسق يهبط • ان المرء يحس قدوم الخريف • كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حزن دفين • قلت له آملا أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرتنا ، • فلم يجب • ولكنى شعرت بأصابه الصغيرة ترتجف فى يدي متشنجة • قلت لنفسى : « حالته سيئة • • • لا شك أن هناك جديدا • • • ومضينا الى تلك الصخرة التى تراها هناك • جلست على الصخرة • كان فى السماء طيارات كثيرة من طيارات الورق التى يطلقها الأولاد • انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع • كان فى السماء يومئذ ثلاثون طائرة من هذه الطيارات على الأقل • ذلك هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء • قلت له : « لقد آن لنا يا ايليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طائرة المام الماضى • سوف

أتولى أنا اصلاحها • أين وضعها ؟ • لم يجب بشيء ، وانما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب • وفجأة هبَّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من غبار ••• فاذا هو يرتدى على ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه • تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين يستطيعون أن يكلموا ألهم وأن يجسبوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكأؤهم أخيراً ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تندفق عندئذ كالسيول • فما هى الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقاً فى هذه الدموع المنهمرة الحارة • كان يتحب فى تشنج ، ويرتد ارتعاداً قوياً من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الى وهو جالس على الصخرة • قال لى متجهاً : « بابا ! ما أشد ما أذُلك ! » • فأجهشت أبكى أنا أيضا • وتماقتنا عناقاً شديداً والدموع نهزنا كلينا • فكان ما ينفك يردد قوله : « بابا ••• حبيبي بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ••• بنى الطيب ايلوشا ! » • لم يرنا أحد فى تلك اللحظة ••• لم يرنا الا الرب من علياء سمائه ••• الرب الذى قد ينتصف لى • أشكر أذاك يا ألكسى فيدوروفتش • لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأمرّك وأرضيك ! •••

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سحريته المرة الحائقة الوضيعة • ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل ، وأن هذا الرجل ما كان له أن « يتحدث » الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصّه عليه هو • وسُرَّ أليوشا من ذلك • كان يرتمش من شدة التأثير ، وكانت دموعه تهم أن تسيل •

قال أليوشا :

— أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيم ••

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

— كما تشاء ... طبعاً ...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

— يجب علىَّ الآن أن أكلمك فى شيء آخر • اصنع الى • ان أخى
ذاك نفسه • ان دمترى ذاك نفسه • قد أهان خطيئته أيضاً • وهى فتاة
نبيلة جداً أغلب ظنى أنك سمعت عنها • ومن حقى أن أكلمك عن الاهانة
التي ألحقها بها • بل ان ذلك واجبى أيضاً • لأن هذه الفتاة • بعد أن علمت
بالاساءة التي نالتك • وبعد أن عرفت الظروف البائسة التي تعيش فيها •
قد كلفتنى ... قد عهدت الىَّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت منى أن
أقدمها اليك • اعلم أن هذه الفتاة هى التي ترسل اليك المعونة لا أخى
دمتري الذي هجر الفتاة من جهة أخرى ... والمعونة ليست من دمتري
على كل حال • ولا منى أنا أخيه • ولا من شخص آخر • بل منها هى
وحدها • وهى تتوسل اليك أن تقبل معونتها ... ألم يذلكما كليكما
شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن ألحقت بها الاهانة
نفسها التي ألحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) • فهى اذن أخت
تريد أن تساعد أخاها ... لقد كلفتنى أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين
من الروبلات • معونة من أخت لأخيها • ولن يعلم أحد بالأمر • ولن
تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع • اليك المائتى روبل ...
عليك أن تقبلها ... أحلف لك ... والا كان على البشر أن يعدوا
أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة فى هذا العالم ...
انها موجودة أيضاً ... ان لك نفساً نبيلة ... فلسوف تفهم ... لسوف
تفهم حتماً ! ...

قال أليوشا ذلك ومدَّ الى الرجل ورقين تقديتين جديديتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا فى تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حوالهما أحد • بدا أن الورقتين التقديتين قد أحدثتا فى نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتش فى أول لحظة ، ولكن ارتعشه كان من الدهشة خاصة • انه لم يحلم بشئ من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهى الحديث بهذه الخاتمة • انه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهبط الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخيم كهذا المبلغ • تناول الورقتين التقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف فى وجهه تعبير جديد كل الجدة •

— أهذا لى ، لى أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! انسى لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهى تعطينى هذا المبلغ كما تعطى أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟ هتف أليوشا يقول :

— يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

— قل لى يا صديقى العزيز : أأكون جبانا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جبانا ، أليس كذلك ؟ أأكون جبانا فى نظرك ؟ اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ، اصغ الىّ حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه فى كل لحظة) : انك تشجضى على قبول هذا المال ، لأنه مرسل الىّ من أخت ، ولكن ألن تشعر نحوى باحتقار وازدراء ، فى قرارة نفسك ، سرآ ، اذا أنا أخذتها؟ قل ...

— يميناً لا ... أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعنى أنا وأنت وسيدة أخرى هى صديقتها الكبرى ...

- لا تهمنى السيدة • دعنى أقول لك كل شيء • اتى فى لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الإفصاح عن كل ما بنفسى •

ثم أضاف الرجل البائس الذى أخذت تفزوه شيئاً فشيئاً حماسة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

- انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبيلات المائتين بالنسبة الى اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يسمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

- ان هذا المبلغ ليس مالاّ حلالاً ترسله الى « أخت » محترمة مبعجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضاً على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتى الحبيبة ، ملاكى الحدياء ، نينوتشكا التى يمكننى أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسشتوبه فى ذات يوم ، شهامة منه وبلا ، ففحصهما كليهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال « انه لم يفهم من الأمر شيئاً » ، ذكر أن الماء المعدنى (الذى وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيراً ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضاً حمامات للرجلين بأملح طيبة • وسعر الماء المعدنى ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذا كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسى بهذا البذخ والترفع ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين فى اليوم ، مرة فى الصباح ومرة فى المساء • فكيف يكون فى وسعها أن تبغ هذا العلاج فى مسكننا الفقير ، بفسير خادم ، بغير أحد

يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم - لم أذكر لك هذا من قبل - وهى تشعر فى الليل بالآلام شديدة فى كل الجانب الأيسر من جسمها • ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمسك عن التوجع والأين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا • ونحن نأكل بقدر ما تيسر له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام • فهل تصدق أنها تختار لنفسها فى كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها للكلب ؟ وكأن عينها للملائكتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا • أنا أحرمكم من نصيكم ، وأنا عبء عليكم جميعا • ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناء فى سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها: « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها ، أهى تستحق ؟ هى ؟ مع أنها هى التى تفقدنا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح فى بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التى تعرف كيف تقولها فى اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تليّن حتى فاريا ! وإياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هى أيضا ملاك •• هى ضحية ••• مثلنا جميعا ••• لقد وصلت إلينا هذا الصيف وفى جيبيها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التى يجب أن تكون فى شهر ايلول (سبتمبر) ، أى الآن • ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه فى سدّ رمقنا • فبأية وسيلة يمكننا أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لانمام دراستها ؟ هأت ذا عرفت كيف تجرى أمورنا • ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل فى خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة ، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتنسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وتترقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات ،
تبكى لأيسر سبب ، تبكى لغير سبب ، فهى مجنونة ... هى مجنونة ،
الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الرويلات الماتتين أن أستخدم خادما
... هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أدارى المريضتين
العزيزتين ، ومستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ،
وسوف أشتري لحماً ، فأحسن ما نصيبه عادةً من طعام • آه • • • يارب
السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا
الفرح كله ، وهنا نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة •
ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت فى نفسه حماسة
جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

— لحظةً يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخسرى ! هل تعلم أننى
أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا وأن أفى بوعدى له ؟ لسوف تشتري
حصانا وعربة كارية • وسيكون الحصان أكحل • ان ايليوشا يصرُّ على
هذا اللون • وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول • اننى أعرف
فى مدينة ذلك مجاميا هو من أصدقاء الطقولة • وقد علمت من شخص
موثوق به أن صديقى هذا سيعينى كاتباً فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك
المدينة • من يدرى ؟ قد يستخدمنى فعلا ! سأقعد الأم اذن على العربة ،
وسأقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره ،
وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة • وهكذا نرحل جميعا ! يا رب
السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترده ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به
أحدهم هنا ، اذن للملك من المال ما يكفينى لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

— ستملك ما أنت في حاجة اليه ! سترسل اليك كاترين ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه • وأنا أيضا عندي بعض المال ، هل تعلم ذلك ؟ خذ مني ما أنت في حاجة اليه ، خذ مني كما يأخذ أخ من أخيه ، كما يأخذ صديق من صديقه • وسترده اليّ في المستقبل (ذلك انك ستقتني ، هذا مؤكد) • صدقني اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم آخر هي خير فكرة يمكن تخيلها • ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنك خاصة • وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شيء • سافر قبل حلول الشتاء ، سافر قبل اشتداد البرد • وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة • ليس هذا حلمًا ، ليس هذا حلمًا البتة !

ودّ أليوشا لو يقبله وهو في غمرة الفرح هذه • ولكنه أمسك فجأة حين نظر اليه • لقد مدّ الرجل عنقه ، وقدّم فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة • ان شفّيته تتهلجان ، كأنما هو يهمس بشيء أو يحاول أن يتكلم • ولكن لم يخرج من فمه أي صوت ، وظل يحرك شفّيته صامتًا منظر غريب مقلق •

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا ؟ :

— ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقًا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كأنسان يهم أن يهوى في فراغ ، بينما شفّاته تصطنعان ابتسامة :

— ألكسي فيدوروفتش •• انتني •• أ •• نعم •• انتني أ •••

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شيء من تقطع :

- هل تريد أن أريك براءة صغيرة من براعاتي ؟

- براءة ؟

- نعم ، براءة من نوع براءة الحواة !

كذلك أجاب الضابط المتقاعد في همس أيضا •

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

- ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

- نعم •• هي براءة •• أنظر •

قال ذلك ثم أراه الورقتين التقديتين اللتين ظل طوال الحديث
يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمينه ، ثم اذا هو يقبض
عليهما فما يزال يدعكهما في قبضة يده بنصف وقوة حتى سحقهما سحقا
وقد أخذ منه الحق كل مأخذ •

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ناقب :

- فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحب الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين
المسحوقتين على الرمل •

وعاد يعول من جديد قائلا وهو يشير اليهما باصبعه :

- هل تراهما ؟ اليك هما ! ••

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحق مسرور وحشي ، وهو
يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

- أنظر ماذا أقفل بمالك ، أنظر ماذا أقفل به ! انظر اليهما ،

ورقتك •••

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا مشدود الجسم منتصب القامة • كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا تغلب •

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

— قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تباع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا • ولكنه ما ان قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا ، وحرك له يده مودعا • ثم ما ان قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتا نحو أليوشا مرة ثانية • كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع • وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

— ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمنا لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى • تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق • وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميها • انه الآن يركض ، ولن يرجع • ذلك أمر كان منه أليوشا على يقين • ولم يشأ أليوشا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه ، لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك • حتى اذا غاب الرجل عن بصره ، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل ، ولكن دون أن يصيبيهما أى تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان • حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دك ، عاد فطواهما ودسهما في جيبه • ثم سار في طريقه ليلخ كاترين ايغانوفنا ثمرة مسعاء في انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه •

حواش

الصفحة

- ١٢ ★ « الحق الحق أقول لكم ٠٠٠ » : يرى بعضهم أن تصدير دوستوفسكى كتابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستوفسكى بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة .
- ١٩ ★ ان اسم كارامازوف ، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة ، يرجع الى أصل تترى . ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستوفسكى هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف . ويقال ان دوستوفسكى قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه . ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا .
- ١٩ ★ «وقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ٠٠٠» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستوفسكى يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩
- ٢٧ ★ « ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تعجبا
- ٢٨ ★ بيير - جوزيف برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وميشيل باكونين (١٨١٤ - ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب الفوضى » منذ ١٨٤٠
- ٢٨ ★ « الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش .

- ٢٨ * يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر «بألف نفس» :
ألف نفس ، أى ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضى
المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار .
- ٣٥ * « كليكوشى » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسى ومعناه
صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات البلواتى يأخذن
فى صراخ كان بهن مسا من جن .
- ٤٠ * « لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى » : ان مسألة المحاكم
الاكليركية (التى كانت تفصل فى شئون الطلاق خاصة) ترتبط
باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت فى الصحافة
مناقشة حادة فى ذلك العهد .
- ٤٤ * « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما
وتبجيلا على الرهبان الطاعنين فى السن . أما العجوز العادى
فاسمه بالروسية « ستاريك » .
- ٥٤ * « الشيخ زوسىما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ
أمفروسى الذى زاره دوستوفسكى فى أوبتينا سنة ١٨٧٨ ،
ولكن دوستوفسكى قد استوحى أيضا كتابا بعنوان : « حياة
الشيخ الراهب زوسىما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب
فى موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ - ١٨٣٥) هو
ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوى ، وقد كان
فى شبابه ضابطا فى حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح
شيخا يعيش حياة نساك قاسمية . وقد جمع أحد مريديه أقواله
ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستوفسكى فى اعداد الباب
السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » .
- ٥٦ * « رأيت طيف حوذى ٠٠٠ » : عرض بتصرف لمقطع من
النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التى تصف الجحيم) ،
وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو .
- ٥٩ * « أعلن الرسول توما ٠٠٠ » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عسدم تسرهه فى التصديق قد أشير اليه فى انجيل يوحنا
(الاصحاح العشرين ، ٢٤ - ٢٩) .

٦٢ * بائيسى فيليتشكوفسكى (١٧٢٢ - ١٧٩٤) : ناسك يرجع
أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهباً فى جبل آتوس ،
وفلاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذى أدخل نظام « المشايخ » الى
روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت . وقد
نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٣ * كوزلسكايا أوبيتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب
كوزلسك فى مقاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق
تائب ، اسمه أوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير فى القرن التاسع
عشر بتقوى رهبانه . وزاره دوستويفسكى فى شهر حزيران
(يونيه) سنة ١٨٧٨ بصحبة الفيلسوف الشاب فلاديمير
سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) بعد موت ابنه أليوشا . وكان
فى هذا الدير الشيخ أمفروسى ، الذى اتخذه دوستويفسكى
نموذجاً للشيخ زوسيمافى هذه الرواية .

٦٤ * « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا ٥٠٠ » .
هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ - ١٧٠٤) الذى قضى حياته
فى الاديرة بتركيا وفلسطين ، ثم أصبح أسقف هولجورى ،
ومات فى روسيا . كان دوستويفسكى مطلعاً على حاجات هذا
الراهب الى الشرق .

٧٢ * يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير فى الكنيسة الارثوذكسية
اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية .

٨١ * «فون سون» موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ فى ماخور
بموسكو ، ووضعت جثته فى صندوق وأرسل الصندوق الى
سان بطرسبرج بالقطار .

٨٢ * « لكل دير قواعد ٥٠٠ » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب
الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » .

٨٧ * « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة
١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » فى روسيا .

- ٨٩ * « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك ٥٠٠ :
ها هنا لعب لعظى على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فاما كلمة
ايسبرافنك التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل
ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار
نابرافنك (١٨٣٩ - ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار
الابورا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو
من أصل تشيكي ، وقد شاعت المصادفة أن يكون اسمه هذا
مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح .
- ٩١ * الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) ، دعت
كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب
الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون
لفشين (١٧٣٧ - ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى
العهد بافل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو .
- ٩١ * الاميرة كاترين داخوفا (١٧٤٣ - ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا
فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ،
وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات
رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب .
- ٩٥ * « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك » :
كلام قالت له امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ،
الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) .
- ٩٨ * هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة
قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠ : هذه القصة
لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن
شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا :
- ١٠٧ * ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا .

- ١٠٧ * « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : فى هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى . وقد كتبت أرملة دوستويفسكى تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا اليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر . ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية » .
- ١٠٧ * نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا .
- ١١٠ * « هذه راشيل . . . تبكى صغارها . . . » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ أمفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه .
- ١١٢ * « سأذكره فى صلواتى » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتينا بعد حديثه مع أمفروسى ووصفه له مدى ما تعانيه من لوعة لموت ابننا .
- ١١٥ * النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخطيء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » .
- ١٢٢ * « أوبدورسك » : مدينة صغيرة فى أقصى شمال سيبيريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد .
- ١٣٤ * « كان أحد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسألة » : ان أستاذنا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتابا عنوانه : « بحث فى الاسس العلمية للقضاء الاكليركى » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب .
- ١٣٥ * « ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو إيطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التى تتفق ودعاوى بابا روما . وهكذا تفهم النكتة التى ترد فى الحوار بعد ذلك « .. نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال » .

- ١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه .
- ١٥٠ ★ « باتيوشكا » : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة .
- ١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدراما التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور . فأما الاول وهو كارل مور فيتأس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهبى مقتل أبيه .
- ١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لأنها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) .
- ١٧٦ ★ « جروشكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشتق من اسم اجرافين تصغيرا .
- ١٧٧ ★ « ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقبيها الصغيرتين فى شعره » : ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « أوجين أونيجين » .
- ١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة .
- ١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا .
- ١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها أنبياءها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم وأعمال خليعة .
- ١٩٨ ★ « قبله على الشفتين وطعنه فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » .

- ١٩٨ * أحسن متجر لبيع المواد الغذائية في سان بطرسبرج .
- ٢٠١ * « فانيا » : تصغير اسم إيفان
- ٢١١ * « اسحاق السوري » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ في موسكو . وقد ضمت مكتبة دوستوفسكى هذا الكتاب .
- ٢١٢ * « اليزابت سمردياستشايا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى أخو دوستوفسكى الاصغر (وهو أندره دوستوفسكى) في مذكراته التي نشرت سنة ١٩٣٠ أن امرأة معتوهه اسمها أجرافين كانت تسكن في أراضى أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ - ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فإذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فإذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة . ويظهر أنها كانت معتوه منذ ولادتها، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات في سن مبكرة . فحين قرأت قصة اليزابت في رواية الإخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهه أجرافين » .
- ٢١٤ * « يوروديغايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » .
- ٢٢٤ * « ان مدينتنا مبعثرة جدا » . ان دوستوفسكى يسمى هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر: سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد - بهائم) . وفي المسودات يسميها توبولسك ، وفي رأى زوجة دوستوفسكى أنه وصف سترايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوداعة ، بأقنيتها ، وحفرها وحداثتها ذات الاسيجة الخشبية .
- ٢٢٧ * هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدنها مرة أخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .
- ٢٢٨ * « أكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ، فلا تسمح لها أبدا وبدد

كل أوهاملك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكرا سوف ، نشرت سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها وبعثها بحبه . وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة في غير هذه الرواية (قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها ، و « في قبوى ») .

٢٣١ ★ « كن نبيلًا يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشاعر جوته عنوانها : « الالهى » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ ★ « سيلين ذو الوجه المزهى » : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها . « آلهة اليونان » ، في ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب دمترى بالالفاظ مستغلا الجنس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون (ومعناها قوى) .

٢٣٣ ★ « سكان الكهوف الخائفون الوجلون » : ان دمترى لا يتلو هنا نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هي « عيد ايليتوزيس » (١٧٩٨) في ترجمة روسية قام بها ف . آ . جوكوفسكى (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) .

٢٣٥ ★ « روح العالم التى خلقها الله » : هاتان هما الفقرتان الثالثة والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة « الى الفرح » ، فى الترجمة الروسية التى قام بها ف . آ . تيوتشيف ، وقد استخدم بتهوفن هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة .

٢٧٠ ★ « الكوليبيكا » : فطائر بالسّمك .

٢٧١ ★ « حمار بلعام » : ان الأتان التى ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) .

٢٧٣ ★ « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة اقاصيص خيالية رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) .

٢٧٤ ★ « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف : هو موجز فى التاريخ للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل .

٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى » : هو إيفان كرامسكوى (١٨٢٧ - ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية في ذلك العصر ، وقد رسم وجوه تولستوى ونكراسوف وغيرهما في لوحات رائعة .

٢٨٦ ★ « جاء في الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ١٠٠٠ : تحوير لما ورد فى الاناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) .

٢٩٢ ★ « ولكن الفلاحين مستمرّون على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ قد ألغى العقوبات الجسدية فى محاكم الدولة ، ولكنه تسامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .

٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى بيرون (١٧٧٣ - ١٨٦٨٩) .

٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من زماننا » ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .

٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى إيفان وأليوشا .

٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة » : ان دمترى يسمى أباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف

أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عى اللسان
أحلب .

٣٦٠ * « ايكاتيرنبورج » : مدينة فى منطقة المناجم من الاورال ، على
طريق سيبيريا . وتسمى الآن سفردلوفسك .

٣٧٨ * « ميتكا » : تصغير تحقيرى لاسم ميتيا (دمترى) .

٣٨٠ * « جروشكا » : تصغير تحقيرى لاسم جروشسكا (أجرافين) .

٣٨٢ * « فانكا » تصغير تحقيرى لاسم فانيا (ايفان) .

٣٨٨ * « أبدى اليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » :
روت أرملة دوستوفسكى أن هذه الطريقة هى التى كان يستعملها
زوجها فى مخاطبة أطفال لا يعرفهم .

٤٢٤ * « بالشكر ياسيدتى لا أحفل » : آخر بيت من قصيدة شيللر
« القفاز » (١٧٩٧) . ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت
له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها
دولورج .

٤٣٨ * « الرائد سينجيريف - س » : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال
حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن . فهكذا
يتكلم الحقراء امام المظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر
الكلمات .

٤٤٢ * « ايليوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا .

٤٤٥ * « ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة
ليرمونتوف التى عنوانها «الشيطان» . وها هنا تحريف ، فالنص
الاصلى لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك
شيئا فى الطبيعة بأسرها » .

٤٤٥ * « تشرنومازوف » : لعب لفظى على اسم كارامازوف الذى يعنى
نصفه (كارا) : أسود (تشرنى) فيكون معنى تشرنومازوف :
«المسود» أو «الملطخ بالسواد» .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الاهداء	١١
الى القارئ	١٣
الجزء الاول	١٧
الباب الاول (قصة أسرة صغيرة طيبة)	١٩
١ - فيدور بافلوفتش كارامازوف	١٩
٢ - كيف تخلص من ابنه الاول	٢٧
٣ - الزواج الثانى وابنا الفراش الثانى	٣٣
٤ - اليوشا الابن الثالث	٤٤
٥ - مشايخ الرهبان	٥٨
الباب الثانى (اجتماع فى غير محله)	٧٥
١ - الوصول الى الدير	٧٥
٢ - المهرج العريق	٨٥
٣ - ايمان نساء الشعب	١٠٢
٤ - السيدة الضعيف ايمانها	١١٨
٥ - لتكن مشيئة الرب	١٣٢
٦ - لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل	١٤٩
٧ - طالب اللاهوت	١٧٠
٨ - فضيحة	١٨٧

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث (الشهوانيون)	٢٠٣
١ - في الخدمة	٢٠٣
٢ - اليزابت سمردياستشاي	٢١٣
٣ - اعتراف قلب حار « شعرا »	٢٢١
٤ - اعتراف قلب حار « نثرا »	٢٣٧
٥ - اعتراف قلب حار « والقدمان في الفضاء »	٢٥٢
٦ - سمردياكوف	٢٦٨
٧ - مجادلة	٢٧٩
٨ - أثناء شرب الكونياك	٢٩٠
٩ - الشهوانيون	٣٠٥
١٠ - المراتان كلتاهما	٣١٦
١١ - أخرى تعرض نفسها للضياع	٣٣٨
الجزء الثاني	٣٥٣
الباب الرابع (التمزقات)	٣٥٥
١ - الأب تيرابونت	٣٥٥
٢ - في منزل الأب	٣٧٦
٣ - لقاء مع تلامذة	٣٨٦
٤ - في منزل أسرة هوخلاكوف	٣٩٦
٥ - التمزق في الصالون	٤١٠
٦ - التمزق في الخربة	٤٣٢
٧ - وفي الهواء الطلق	٤٥٠
حواش	٤٦٩

دوستويفسكي

الاعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كائناً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين الميائين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر في سروريفيف